المؤلفة الحائزة
على جائزة
«نوبل» عام
2009

«رواية»

كان الثعلبُ يومها هو الصيّاد

هيرتا موللر



ترجمة: د. خليل الشيخ

رواية

هيرتا موللر

كان الثعلب يومها هو الصيّاد

ترجمة: د. خليل الشيخ

مراجعة: د. مصطفى السليمان

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة»

PT2673.U2925 F8312 2012
Muller, Herta.
[Der Fuchs war damals schon der Jager]
كان الثعلب يومها هو الصيّاد : رواية / تأليف هيرتا موللر؛ ترجمة خليل الشيخ؛ مراجعة مصطفى السليمان.-
أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2012.
ص 270 : 14× 21سم.
ترجمة كتاب: Der Fuchs war damals schon der Jager : Roman
تدمك: 978-9948-17-070-9
1 - القصص الألمانية - الترجمة إلى العربية.
أ-شيخ، خليل. ب-سليمان، مصطفى.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Herta Müller
Der Fuchs war damals schon der Jäger
© Carl Hanser Verlag München 2009
First published by Rowohlt Verlag 1992

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كان الثعلب يومها هو الصيّاد

غيرُ مهمٌّ، غيرُ مهمْ
قُلتُ لنفسي: غيرُ مهم

فينيدكت يروفيجيف[1] Wenedikt Jerofejew

(1) روائي روسي (1938–1990) له روايات عديدة ترجم بعضها إلى اللغات الأوروبية. (المترجم).

طريق دودة التفاح

تحمل النملةُ ذبابةً ميتّة، فتعجز عن أن تبصر الطريق أمامها، لهذا تديرُ الذبابةَ جانباً، وتبدأ بالتراجع إلى الوراء؛ فالذبابة تفوق النملة ثلاث مرّات في الحجم.

تسحبُ أدينا مرفقَها، لأنها لا ترغب في أنْ توصد الطريق أمام الذبابة. تلمعُ إلى جوار ركبة أدينا كتلةُ قار، وتغلي الكتلة تحت أشعة الشمس. تمسّ أدينا الكتلة بإصبعها مسّاً رفيقاً، فينسّل خيط من تلك الكتلة خلف يدها، لكنّ الخيط سرعان ما يتجمّد في الهواء ويتكسّر.

للذبابة رأس مدبّب كالإبرة. ونظراً لأن الشمس لا تجد في ذلك الرأس ما يمكن أن يُحرَق، فإنها تقوم بلسعه. تضّل النملةُ الطريق. صحيح أنها تستطيع أن تزحف، لكنها لا تحيا ولا تبدو للعين التي تنظر إليها شبيهة بالحيوان، إضافة إلى أنّ بذور الأعشاب قادرة على أن تزحف صوب ضواحي المدينة كما تفعل النملة. أمّا الذبابة فهي تحيا، لأنها تفوق النملة في الحجم ثلاث مرّات ولأنّها محمولة، ولأنها تبدو كالحيوان لمن يتأملها.

لا ترى كلارا الذبابة، فالشمس تشبه حبّة القرع المتوهجّة التي تغشي العيون بأشعتها الساطعة، كما تبدو بعض أدوات الخياطة كالمقص والبكرة بخيوطها البيض إضافة إلى النظّارة الشمسية والكشتبان[1]؛ فكلارا تخيط لنفسها بلوزة صَيْفيّة.

تنغرس الإبرة في القماش، ويسير الخيط قُدماً، وتقول كلارا وهي تلعق الدم عن إصبعها: أمّك فوق الثلج، اللعنة على الثلج وعلى الإبرة

(1) الكشتبان: قِمْع الخيّاط يغطّي به طرف إصبعه ليقيه وخز الإبرة. (المترجم).

الأمّ وعلى البَكَرة والخيط. وعندما تشرع كلارا باللّعن، يغدو لكل شيء من الأشياء أمّ خاصة به.

إنّ أمّ الإبرة هي الموضع الذي ينزّ دماً، أما الإبرة الأم فهي الإبرة الأقدم في العالم التي جاءت جميع الإبر من رحمها، وهي إبرة تفتش لإبرها التي تقوم بالخياطة، عن إصبع مناسب لتقوم تلك الإبرة بوخزه. أثناء اللّعن يصبح العالم صغيراً، تعلوه كومة من الإبر وكتلة من الدم المتخثّر، وتقف أم الخيوط بالمرصاد، وهي تحمل خيوطها المتشابكة لتطوف بها العالم.

تقول أدينا، وعمود كلارا الفقري يهتزّ ولسانها يدور في فمها؛ إنّ عليكِ أن تلعني الثلوج في مثل هذا القيظْ. وقد اعتادت كلارا، عندما تشرع باللّعن، أن تزوي ما بين عينيها، فتنطلق الكلمات من بين شفاهها كالرصاص الذي يستطيع أن يصيب أمّ الأشياء بل الأشياء كلّها في الصميم.

استلقت أدينا وكلارا فوق أحد الأغطية، وفي حين كانت أدينا عارية، كانت كلارا ترتدي بنطال السباحة القصير.

اللعنات باردة وهي لا تحتاج إلى زهور الأضاليا ولا إلى الخبز أو التفاح أو فصل الصيف. وهي لا تصلح للشمّ أو الأكل. إنّها مخلوقة للدوران السريع حول نقطة بعينها، وللاستلقاء السطحي وللغضب السريع والصمت العميق. وهي تُخفّف من ضغط العصب الصدغي على الرسغين، وتجعل نبضات القلب الخامل تعلو لتبلغ مسامع الأذن، فاللعنات تتصاعد لتخنق ذاتها في النهاية، وعندما تتكسّر،

تتلاشى وكأنها لم توجد قطّ.

الغطاء مُلقى فوق سطح إحدى الوحدات السكنيّة. تحيط بالسّطح شجرات الحور التي تعلو فوق سطوح المدينة كلّها. الشجرات تعلوها الخضرة، وهي خالية من الأوراق المتفرّقة، حيث تعلوها كتل من الأوراق الملتفّة، كما أنها لا تُصِدرُ حفيفاً بل إنها تهمس. تقف الأوراق عمودياً كالغصون بحيث لا يستطيع المرء أن يرى الأخشاب. يصل ارتفاعُ تلك الأشجار إلى ذرى ساحقة فتقوم بتشتيت الهواء الساخن فهذه الشجرات هي بمثابة سكاكين خضراء.

عندما تتأمّل أدينا شجرات الحور طويلاً، تدور السكاكين حول عنقها، وتتنقّل من جهة إلى أخرى. ويصاب عنقها بالدوار ويشعر جبينها بأنّ فترة ما بعد الظهر لا تحتمل سوى شجرة حور واحدة، مثلما يحتاج الضوء إلى زمن كاف كي يتلاشى خلف مبنى المصنع. فعلى المساء أن يَغُذّ الخطى، فالليل قادر على أن يتحمّل شجرة الحور، لأن أحداً لا يستطيع أن يراها في تلك الأثناء.

على إيقاع ضرب السّجاد، يتكسّر النهار بين الوحدات السكنية، ولهذا الضرّب صدى فوق السطح، فتتلاحق الضربات كما تتلاحق الكلمات أثناء قيام كلارا باللعن. لكنّ ضرب السجاد لا يستطيع أن يجعل نبضات القلب الخامل تعلو لتبلغ مسامع الآذان.

تشعر كلارا بالإرهاق، بعد اللعنات، وتصبح السماء فارغة تماماً فتغلق عينيها اللتين أعشاهما الضوء، في حين تفتح أدينا عينيها على وسعهما وتحدّق طويلاً في الفراغ. وفي الذرى العليا، حيث لا تبلغُ

السكاكينُ الخضر، يمتّد خيط من الهواء الساخن يبلغ العينين. وفي ضوء هذا الخيط يتحدّد وزن المدينة.

في الصباح قال أحد أطفال المدرسة ممن يتميّزون بالهدوء التام مقارنة بأترابه لأدينا: إنّ السماء تبدو مختلفة تماماً هذا النهار. كانت عينا ذلك الطفل متباعدتين وهو ما جعل صدغيه ضيقيّنْ. حكى ذلك الطفل: أيقظتني أمّي في الرابعة فجراً وأعطتني مفتاح المنزل، لأنها كانت مضطرة للذهاب إلى محطة القطار. رافقتُها وهي تذهب إلى البوابة. وعندما عبرتُ الساحة معها، شعرتُ بأنّ السماء قريبة من كتفيها. كان بوسعي أن أدع الباب مواربا، لكنّني لم أُرِدْ أن تصاب أميّ بالفزع. وعندما عبرتُ الساحة وحدي في طريق العودة، بدت لي الحجارة شفافة، فأسرعت في المشي. عند المدخل بدا لي الباب مختلفاً، فقد كان مفرّغاً من الخشب. كان بوسعي أن أنام ثلاث ساعات إضافية، لكنّني لم أنم. ولعلّي قد غفوت لأنّ عينيّ كانتا متوترتين. حلمت بأنني استلقي تحت الشمس بالقرب من الماء وفوق بطني بعض البثور. فركتُ جلدي ولم أشعر، جرّاء ذلك، بالألم، فقد كان ثمة حجر تحت جلدي. هبتْ الرياح ورفعتْ المياه عالياً لكنّني لم أجد إلا منديلاً ومعه خيوط ولم يكن ثمة ماء. ولم يكن ثمة حجارة، فقد كان اللحم هو ما يقبع تحت المنديل.

ضحك الطفل وهو يتلّفظ بالجملة الأخيرة، كما ضحك أثناء فترة الصمت. كانت أسنانه كالحصى، نصفها أسود ونصفها الآخر أبيض لامع وفي وجهه شيخوخة لا يستطيع صوت الطفل احتمالها ولوجهه

رائحة الفواكه التالفة.

كانت تلك الرائحة هي رائحة النساء العجائز اللواتي يضعن المساحيق بكثافة فوق وجوههن حتى تغدو هذه المساحيق ذابلة كالجلد الذي تحتها. ترتجف أيدي هؤلاء النسوة أمام المرآة، ويصطدم أحمر الشفاه بأسنانهن. وعندما يتأملن أصابعهن، يتبيّن أنّ أظافرهن مقصوصة تحوطها هالات بيض.

لحظةَ وقف ذلك الطفل بين أقرانه في ساحة المدرسة، كانت البقعة فوق خدّه تدل على إحساسه بالعزلة، لكنّ الطفل طال حتى سقط على شجر الحور ظلّ مائل.

نامت كلارا، وهي تذهب بعيداً في نومها، وقد تركها نومُها وحيدةً تحت أشعة الشمس. في أثناء ضرب السجاد، يتكسّر الصيف وينقسم إلى قشور خضر، وفي أثناء الحفيف الذي يصدر عن شجر الحور، تكون القشور الخضر كلّها كصيف نائم. في كلّ السنوات التي يكون المرء فيها طفلاً يكبر وينمو، لا يغادره الشعور بأنه سيسقط عن الحافة مساءً في كل يوم. تلك هي أيام الطفولة مع الشعر المقصوص على نحو متعامد، ومع الوحل الجاف في الضاحية، ومع الغبار الموجود خلف المترو، ومع خطوات الرجال العجاف فوق الممرّ، أولئك الذين يجمعون المال ليتمكنوا من الحصول على الخبز.

كانت الضاحية ترتبط بالمدينة بأسلاك وأنابيب وبجسر لا نهر له، والضاحية مفتوحة من طرفيها كما الجدران والطرق والأشجار. وفي نهايتها كانت عربات المترو تطلق هديرها، والمصانع تنفث دخانها فوق

ذلك الجسر الذي لا نهر له. كان هدير عربات المترو في الأعلى يتساوى، في كثير من الأحيان، مع الدخان في الأعلى. في الطرف الآخر من الضاحية، افترس الدخانُ الحقل وتخطّاه ليصل إلى أوراق الشمندر التي كانت الجدران البيض تومض خلفها. هناك كانت تقبع إحدى القرى. وبين القرية والجسر الذي لا نهر له خراف متدلية، وهي خراف لا تأكل أوراق الشمندر. فقد كان العشب ينمو على حافة الطريق الخاصّة بالحقل. وكانت الخراف تأكل الطريق قبل أن ينتهي الصيف. توقفّت الخراف قبيل الوصول إلى المدينة وشرعتْ تلعق جدران المصنع.

كان المصنع الضخم يبدأ من مقدّمة الجسر الخالي من الماء، ليصل إلى نهايته، وكان خوار البقر وقُباع الخنازير يعلو وراء الجدران. في الأماسي كان يجري إحراق القرون والأطراف، فيتصاعد هواء لاذع فوق الضاحية، فلم يكن المصنع إلاّ مسلخاً في الواقع.

في الصباحات، وبخاصة قبيل انبلاج الفجر، تصيح الديوك وتتمشّى في الساحات الرمادية، كما يفعل الرجال العجاف فوق الطرقات وتكون لها المظاهر ذاتها.

يسير الرجال من المحطّة الأخيرة الخاصة بالمترو ويعبرون الجسر الذي تتدّلى السماء فوقه. وعندما تكون حمراء يضع الرجال أمشاطاً حمراً في شعورهم، وقد قال حلّاق الضاحية إنّه عندما يقوم بقصّ شعر والد دايانا فإنه ليس ثمة أجمل من عرف الديك لأبطال العمل.

سألتْ أدينا الحلّاق عن المشط الأحمر، لأنّ الحلّاق يعرف فروة الرأس وخُصَل الشعر الخاصّة بكل واحد من أولئك الرجال. وقد قال

بأنّ تلك الخصل هي بمثابة الأجنحة عند الديوك. لهذا أدركت أدينا أنّ كلّ واحد من هؤلاء الرجال العجاف سيطير في أثناء تلك السنوات، مرّة فوق الجسر. غير أنّ أحداً لا يدري متى سيحدث ذلك؛ فالديوك تطير من فوق الأسوار وتشرب الماء من علب الطعام المعلّب الملقاة في الساحة الداخلية، وتنام ليلاً في صناديق الأحذية، وفي الصناديق التي تلجأ إليها القطط لتنام فيها عندما تبرد الأشجار ليلاً.

تقع محطة المترو الأخيرة على مسافة سبعين خطوة في أعماق الضاحية، بعيداً عن الجسر الذي لا نهر له. كانت أدينا قد أحصت تلك الخطوات، لأنّ تلك المحطّة كانت الأخيرة في ذلك الشارع والأولى في الشارع المقابل. وقد اعتاد الرجال أن يغادروا المترو ببطء عند نزولهم في المحطة الأخيرة في حين كانت النساء تصعد إلى المترو بسرعة في المحطة الأولى. وكنّ يغذذن الخُطى قبيل الصعود وشعورهن في تلك الصباحات الباكرة، متكسّرة وحقائبهن تتأرجح في الهواء، أما بقع العرق التي كانت تجففّ، في كثير من الأحيان، فكانت حوافّها البيض تبدو من تحت أذرعهن. أما على أصابعهن فتتبّدى آثار زيت المحركات والصدأ الذي محا آثار طلاء الأظافر، وفي أثناء الجري نحو المترو، تظهر آثار الإرهاق في المصنع بوضوح بين منطقتي الذقن والعينين.

وعندما كانت أولى عربات المترو تندفع نحو الضاحية كانت أدينا تصحو وترتجف في ملابسها الصيفية التي رُسم عليها نمط من الأشجار. كانت رؤوس الأشجار مقلوبة؛ لأنّ الخيّاطة قلبت قطعة القماش رأساً على عقب في أثناء حياكتها لها.

كانت الخيّاطة تعيش في غرفتين صغيرتين وكانت أرضية الغرفة مربّعة والجدران رطبة ولها انتفاخات في كلّ مكان من الجدار. وكانت النوافذ تطلّ على الفناء الداخلي وقد علتْ إحدى النوافذ لوحة كتب عليها: **جمعيّة التقّدم.**

سمّت الخياطة غرفتها ورشة، كانت قطع القماش الطويلة ملقاة على السرير والكراسي والصناديق. أما البقايا الطويلة لقطع القماش فكانت موزعة على حواف الأبواب وفوق أرضية الغرفة. وقد وضع على كل قطعة من القماش قصاصة ورقية كتب عليها اسم صاحبها. أما وراء السرير فكان ثمة سلة فوق صندوق خشبي، وقد وضعت يافطة فوق الصندوق كتب عليها: **غير صالحة للاستعمال.**

تبحث الخيّاطة عن المقاييس الخاصّة بالناس في دفتر صغير. وهي تعدّ من سبق أن اختلف إليها منذ سنوات، ضمن قائمة الزبائن. أما الذين جاءوا إليها مصادفة أو على نحو نادر، فهم زبائن عابرون. وعندما يأتي إليها واحد من زبائنها المعتادين، فإن الخيّاطة لا تدوّن المقاييس الخاصة به في ذلك الدفتر، وتستثني من ذلك تلك المرأة التي أصابها الهزال، كالرجال الذين اعتادوا الذهاب إلى المسلخ كلّ يوم، فالخياطة تدّون مقاساتها في كل مرة تأتي فيها إليها، وتقول لها وهي تضع شريط القياس في فمها: عليكِ أن تذهبي إلى الطبيب البيطري، إن أردت أن تخيطي ثوباً لك، وإذا كنت في كل صيف ستكونين أكثر هُزالاً من ذي قبل، فإن هذا الدفتر سيمتلئ، عما قريب، بمقاييس عظامك.

اعتادت تلك المرأة أن تحضر في كلّ عام للخيّاطة، دفتراً كُتب على

غلافه عبارة: **دفتر القطيع** أما على أجزاء الدفتر الداخلية فثمة عبارتان: **الوزن حيّا والوزن بعد الذبح.**

لم تكن أدينا تسمح لنفسها بأن تمشي فوق أرضية الغرفة بقدمين عاريتين، فقد كانت الأرضية مليئة بالإبر المتناثرة بين بقايا القماش. وحدها كانت الخياطة تعرف كيفية المشي فوق الأرضية من غير أن تصاب بوخزات الإبر. فقد اعتادت أن تزحف في أثناء الأسبوع وتطوف بين أرجاء الغرفة ومعها المغناطيس الذي تنجذب نحوه الإبر المتناثرة على الأرض.

قالت والدة أدينا للخيّاطة في أثناء التجارب الخاصة بالفستان بأنّ الأشجار الموجودة على الثوب تتّدلى نحو الأسفل؛ لقد قمتِ بقلْب قطعة القماش. كان في وسع الخيّاطة أن تعيد قطعة القماش إلى وضعها الطبيعي، لأنّها لم تكن مثبّتة إلا بخيطٍ واحدٍ أبيض اللون، لكنّ الخيّاطة ردّت وفي فمها دبّوسان، الأمام والخلف مهمّان ونظراً لأنّ السّحاب يقع على جهة اليسار، فإنني إذا تأمّلت المنظر من هنا، فإنّ الأسفل هو الأعلى. ثم تطلّعتْ نحو أرضية الغرفة وقالت: بأنّ الدجاج يرى المنظر على هذه الشاكلة، والأقزام أيضاً. قالت أدينا. فأشاحت الأم ببصرها وأخذت تنظر من خلال النافذة إلى الفناء الداخلي.

على جانب الشارع واجهة للعرض فيها صُلبْان وأنابيب للمدخنة ومرشّات من الصفيح موضوعة كلها على جرائد قديمة وقد وضعت على غطاء مُطّرز مُدّ أمام تلك الأشياء، يافطة كتب عليها: **جمعية التقدّم التعاونيّة.**

كانت الصُلبان وأنابيب المداخن، والمرّشات تهتّز عندما يمرّ المترو إلى

جوار واجهة العرض، لكنّها لا تسقط.

وراء واجهة العرض تلك، كان ثمة طاولة عليها مقصّاتٌ وملاقط وبراغ وخلفها يجلس أحد الرجال. كان الرجل سمكرياً، ويرتدي مريولاً مصنوعاً من الجلد. وكان خاتم الزواج يتدّلى من عنقه ليصل إلى مريوله الجلدي، فأصابع يديه الاثنتين تخلوان من خاتم الزواج.

للسمكري أيضاً زبائن دائمون وعابرون. يقول الزبائن الدائمون بأنّ زوجة السمكري الأولى توفيّت منذ زمن طويل، ولم يوّفق في العثور على زوجة ثانية، لأن خاتم الزواج ما يزال معلقاً فوق مريوله الجلدي. أما الحلّاق فقد روى بأنّ السمكري لم يسبق له أن تزوّج من قبل، صحيح أنّه خطب أربع مرات بالخاتم نفسه، لكنه لم يتزّوج قط. وعندما تكون واجهة العرض مليئة بالصُلبْان وأنابيب المداخن والمرشّات، يقوم السمكري بَلْحم الطناجر القديمة.

وعندما كان المترو يمرّ إلى جوار واجهة العرض، كانت الوجوه التي يجلس أصحابها في العربة تظهر بين الصلبان والأنابيب. أمّا على المرشّات فقد كانت الوجوه تتماوج جرّاء الحركة ولمعان الصفيح. وعندما كان المترو يبتعد، كانت أضواء الثلج المتجمد تنعكس على الأنابيب.

ظلّت أدينا ترتدي زيّها الصيفي ذا الأشجار المقلوبة لفصول صيفية عديدة، فكانت تكبر في حين يغدو ثوبها أقصر في كلّ صيف، كما ظلّت فروع الشجرة العليا تتجّه نحو الأسفل وتزداد ثقلاً في كلّ صيف. وبقي لفتاة الضاحية التي كانت تقف على طرف الطريق الموصلة إلى

المترو وجه خجول، لم تستطع ظلال الشجرة أن تغطيّه بالكامل، وظل خدّها الموجود في الظلال بارداً في حين غدا الخدّ الآخر الموجود تحت الشمس ساخناً وطريّاً. وقد شعرت أدينا بوجود سحّاب فوق خدّها البارد.

بعد مطر الصيف الذي لم يستطع تبريد الحجارة، زحفت أسرابٌ من النمل الأسود إلى داخل الممّرات الحجرية في الفناء الداخلي. تركتْ أدينا إبرة حياكة مدبّبة تنساب داخل أنبوب شفاف مملوء بالسّكر المذاب في الماء، ووضعت الأنبوب داخل أحد الشقوق. فزحفت أسراب النمل واصطفّت داخل الأنبوب على رؤوسها تارة وعلى بطونها تارة أخرى. بعد ذلك أغلقتْ أدينا طرفيْ الأنبوب بلهب عود الثقاب ووضعتْ الأنبوب قلادة حول عُنقها وسارت نحو المرآة، لترى أنْ هذه القلادة ما تزال حيّة على الرغم من أن النمل الموجود في داخلها قد مات ملتصقاً بالسّكر في المواضع التي اختنق فيها.

في تلك اللحظات بدتْ كلّ نملة حيواناً لمن ينظر إليها، وكان هذا يحدث للمرة الأولى.

اعتادتْ أدينا أن تذهب إلى صالون الحلاقة مرّة كل أسبوع، لأنَّ شعرها كان ينمو بسرعة، ولم تكن ترغب في أنْ يغطيّ شعرُها حافتّي أذنيها. مرّت وهي في الطريق إلى الصالون بواجهة العرض ذات الصلبان والأنابيب والمرّشات وعندما لوّح السمكري لها من وراء الزجاج ذهبتْ إليه، فناولها قرطاساً من أوراق الجرائد، فيه كرز أيّار ومشمش حزيران وعنب الصيف مع أن هذه الفواكه لم تكن قد نضجت في الحدائق بعد.

حتى ظنت أدينا وقتها بأنّ أوراق الجرائد تُغيّر الفواكه.

عندما ناول السمكريُّ أدينا قرطاس الفواكه طلب منها أن تأكلها وإلا فإنّها ستتلف سريعاً، فشرعت أدينا تأكل على الفور وكأنّ الفواكه ستصاب بالتلف في أثناء حديثه. بعدها أردف السمكري قائلاً بأنّ عليها أن تأكل ببطء لتتمكن من تذّوق كلّ لقمة.

شرعت أدينا تمضغُ الفواكه وتبتلعُها وتراقب النار التي تتوّهج في جهاز اللحام، وكيف تقوم بتغطية الثقوب في الطناجر وإخفائها.

كانت الثقوب التي أصابها اللّحام، تلمع كأنابيب المداخن والمرّشات والصلبان المعروضة في واجهة المحل. وقد قال السمكري بأنّ النار إذا لم تقم بالتهام الطنجرة، فإنّها تصدأ لا محالة.

ذهبت أدينا، عصر أحد الأيام، إلى صالون الحلاقة، وهي تضع العقد المملوء بالنمل حول عنقها وجلست فوق الكنبة الموجودة أمام المرآة الكبرى بساقين مسترخيتين. مشّط الحلاق شعرها الملتفّ حول عنقها ثم وضع مشطه أمام عينيها، وقال لها: إمّا أن يختفي هذا النمل أو تختفي هي والنمل معاً.

في الزاوية كان ثمة رجل مستغرق في النوم وعلى ساقه كانت تجلس قطّة الحلّاق. كان الرجل نحيفاً وعندما كان الرجل يسير فوق الجسر ذاهباً إلى المسلخ كان يمشي بخيلاء. صحا الرجل فزعاً من نومه ورمى القطة أمام المرآة، قريباً من الباب، وصاح: يكفيني ما أراه في المسلخ من حيوانات ميّتة. ثمّ بصق فوق الأرض.

كانتْ أرضيّة صالون الحلاقة مليئة بشعر أولئك الرجال العجاف

الذين عرفناهم. كان الشعر هشّاً ورمادياً داكناً ورمادياً فاتحاً وأبيض. وكان كثيفاً وكأنّه فوق رأس غزير الشعر، والصراصير تزحف بين خصل الشعر كذلك، فتعلو فوقها تارة وتسقط عنها تارة أخرى. كان ذلك الشعر يحيا لأنّ الصراصير كانت تحمله، في حين لم يكن هذا الشعر يحيا وهو فوق رؤوس الرجال.

ترك الحلّاق مقصّ الشعر يسقط في جارور الطاولة المفتوح وقال: لا أستطيع أنْ أقصّ الشعر في وضع كهذا، فالنمل يزحف في هذه الأثناء تحت ملابسي، ثم سحب قميصه من بنطاله فخدش بطنه وعندما أزاح أصبعه ظهرت صراصير حمراء، فلعن النمل وأمّه. أما الرجل الذي يعمل في المسلخ فلعن أم الجثث.

كانت المرآة مثبتّة فوق الجارور على نحو مرتفع تماماً، لدرجة أنّ أدينا رأت قدميها وكأنهما متدليتان من أحد السقوف، فركضت نحو الباب الخارجي حيث تستلقي القطّة، وعندما نظرت القطة نحوها، بدا وكأن لها ثلاثة أعين.

بعد مرور أسبوع أعطى الحلاق أدينا بعضاً من حبات الملبّس التي التصق الشعر بها، فشّقت تلك الحبّات طريقها فوق لسانها بشيء من الصعوبة، ولمّا أرادت أدينا أن تبصق الشعر قال الحلاق لها بأنّ الشعر ينظّف الحلق. سألتْ أدينا وحبّات الملبّس تتكسّر في فمها عن الموعد الذي سيموت فيه الرجل الذي رمى القطّة. فردّ الحلّاق، وهو يحشو فمه بملء يده من حبّات الملبّس، بأنّ الرجل سيموت عندما يكون ما قُصّ من شعره قادراً على أن يملأ كيساً من الأكياس. أما عندما يكون

وزنُ كيس الشعر مساوياً لوزن الرجل، فإنّ صاحبه سيموت لا محالة. إنني أحشو شعور هؤلاء الرجال داخل كيس حتى يمتلئ الكيس تماماً. ثم أضاف إنني لا أزن شَعْر هؤلاء الرجال بالميزان، بل أقدّره من خلال العينين. لكنني أستطيع أن أعرف مقدار ما أقصّه من شعر في كل عام. إنني أقدّر الوزن من خلال النظر ولا أخطئ، على الإطلاق، قال الحلاق، وهو ينفخ على عنق أدينا. أما الزبون الذي رمى القطة، فهو يجيء إلى هنا للمرّة السابعة أو الثامنة، لهذا لم أتفوّه بكلمة جرّاء ما فعله، على الرغم من أنّ القطة لم تعد تأكل الطعام منذ أن قام برميها. إنني أريد زبوناً يأتي إلى الصالون على نحو دائم ولا يذهب إلى صالون آخر عندما يريد أن يقص شعره للمرة الأخيرة، فيغامر بالذهاب إلى المجهول. وهنا خرجت من زاوية فمه كسرة من الطعام، التصقت بخدّه.

تقف كلارا إلى جوار الغطاء وترتدي بلوزتها الصيفية، ويتوهج الكشتبان على إصبعها السّبابة في أشعة الشمس. أما ساقاها فنحيلتان، وقد زحفت على بطنها كي تجرّب البلوزة، وكان زحفها شبيهاً بزحف طائر هزيل، لم يفعل في الصيف غير التأمل والحرص على أنْ يظلّ جميلاً.

كانت شجرات الحور بسكاكينها القريبة ترى ذلك. فقد نمت جذور الشعر تحت إبطيْ كلارا بعد أن جرى قصّ تلك الجذور. وهذا الشعر، كما تقول كلارا، يساوي من حيث الكثافة، ما على ذقن الرجل من شعر، ثم تضيف بأنّها لم تلتق إلى اليوم برجل له أسلوبه، وهذه هي إحدى أمانيها.

ضحكتْ كلارا وهي تعيد ضبط ساقيها وتقول بأنّ رغبتك تلك أحرقتها الشمس، وأنّ الدوار أصابها تحت السقف، فرأسها لا يعرف شيئاً عن السكاكين الخضر الخاصة بشجر الحور ولا عن حافة السقف أو الغيوم أو المدينة ولا يدري أنّ السقف يمتلئ صيفاً، بالنمل ليقوم بنقل الذباب الميّت، كما أنّها لا تدرك أن السقف يبدو في الشمس وكأنه حاشية في السماء.

لقد شعرت أدينا بالخجل لسنوات طويلة بسبب ذلك الزّي الصيفي الذي كانت رؤوس الأشجار تتدّلى فيه على نحو معكوس، وبسبب ذلك السّحاب الذي علا خدّها.

بدأتْ أدينا تحسب. عند الخيّاطة، أعمار النساء، تبعاً لبقايا القماش الخاص بهّن. فصارت تذهب إلى هناك في كثير من الأحيان، وتتأمل الأوزان من خلال النظر إليها بعينيها، وتعرف شخصية المرأة التي سيمتلئ كيسها عما قريب. وهذا الكيس يبلغ وزنه، عادة، وزن المرأة نفسها. لهذا فإن المرأة التي تعمل في المسلخ. مثلاً، لا تحتاج إلى أكثر من أربعة أثواب كي تموت.

سحبت كلارا، من حقيبتها، تفاحة صيفيّةً صغيرةً حمراء، ووضعتها تحت ذقن أدينا، فتوّهج الكشتبان، وكاد يجرح قشرة التفاحة الصغيرة ذات العنق الطويل التي تخشبّ الكثير من جسمها. عضّت أدينا التفاحّة بقوة ثم بصقت وقالت: «إنها دودة لا أكثر. وهذه الدودة تنمو داخل التفّاحة وتجيء من داخلها»؛ هذا هو طريقها. ردّت كلارا بأنّ الدودة لا تنمو داخل التفاحة بل تزحف إليها من الخارج وهي تلتهم ما بوسعها

أنْ تلتهمه وتموت داخل التفاحة. هذا هو طريقها.

إنّ عينيّ كلارا غير مزّينتين بالمساحيق، والسماء فارغة وسكاكين شجر الحور عمودية وخضر. والتلاميذ يفتّشون تحت وجنتيها عن أقصر الطرق إلى فمها. تصمت كلارا وتستلقي فوق الغطاء وتغلق عينيها.

ثمّة غيمة بيضاء، مضطربة فوق الوحدة السكنية. فالمسنّون الذين يموتون في فصل الصيف يبقون، لفترة من الزمن، يحلّقون في سماء المدينة، متوزعين بين السرير والقبر.

تستلقي كلارا ومسنّي فصل الصيف في المكان نفسه. تشعر أدينا بالطريق الذي تسلكه دودة التفاحِ في بطنها، فهي تسير من خلال شعر العانة وتمرّ بالجانب الداخلي من الساق حتى تصل إلى الركبتين.

الرّجل في اليد

يتحرّك الظّل خلف امرأة ضئيلة ومعوّجة القوام، يحافظ الظلّ على المسافة، تسير المرأة فوق العشب وتجلس فوق أحد المقاعد بالقرب من الوحدة السكنية.

تجلس المرأة ويبقى الظلّ واقفاً، فالظّل لا يخصّ المرأة، مثلما أنّ ظلّ الحائط لا ينتمي إلى الحائط، فالظلال تتخلّى عن الأشياء الخاصّة بها، لأنها ترجع إلى مرحلة ما بعد الظهر المتأخرة التي شارفت على الزوال.

تنمو أمام سلسلة النوافذ السفلية للوحدة السكنية شجيرات الأضاليا، التي تتفتّح بقّوة وتكاد حوافها، نظراً للهواء الساخن، تخلو من الأوراق، وهذه الأشجار تظهر من المطابخ والغرف، مثلما تبدو في الصحون والأسّرة.

يتسّرب عبر نافذة أحد المطابخ دخان يتجّه صوب الشارع، وللدّخان رائحة البصل المحروق. فوق موقد الطبخ سجّادة حائط عليها صورة لغابة فسيحة وفي الغابة أيّل بنّي اللون كمصفاة المعكرونة الموجودة فوق الطاولة. وهناك امرأة تلعق ملعقة خشبية وطفل يقف فوق كرسي ويبكي وحول عنقه مريلة الطعام، والمرأة تمسح الدموع المتحدّرة على وجهه بالمِرْيلة.

إنّ الطفل أكبر من أن يقف فوق الكرسي وأكبر من أن يضع مِرْيلة الطعام. على مرفق المرأة بقعة زرقاء. صوت رجل يصرخ، للبصل رائحة عفنة وأنت تقفين عند الطنجرة كالبقرة سأذهب بعيداً! سأذهب ما

وسعتْ قدماي المشيْ! نظرت المرأة في الطنجرة، ونفخت البخار بعيداً. وقالت بصوت خفيض وحازم: اذهب حالاً، ضع أغراضك التافهة في حقيبة واذهبْ إلى أمك! شدَّ الرجلُ المرأةَ من شعرها، وصفعها على وجهها باليد الأخرى، وقفت المرأة باكية إلى جوار الطفل فسكت الطفل ونظر صوب النافذة.

قال الطفل: لقد كُنْتَ فوق سطح المنزل وقد رأيتُ مؤخرتَك. بصق الرّجل عبر النافذة، فوقع بصاقُه فوق شجرة الأضاليا. كان النّصف العلوي من جسده عارياً وعلى صدره بقع زرقاء. سأل الرجلُ الطفلَ: ترى ما الذي يمكنك أن تراه؟ سأبصق بين عينيك! وقع البصاق فوق الممّر الذي توجد فيه بذور عباد الشمس. بعدها أردف الرجل:

تعال إلى هنا، وانظر إلى هناك، فسترى المزيد! ضحك الطفل، فرفعته المرأة عن الكرسيّ وضمّته إلى صدرها وقالت: ها أنت تضحك وستنمو وتغدو كبيراً، وما يزال هذا الرجل يضربني ضرباً مبْرحاً. ضحك الرجل بصوت خفيض ثم علا صوت ضحكته. فقالت المرأة: لقد كنت مع الطفل فوق السطح.

كان البصاق ينتشر بين كل خطوة وأخرى، كما كانت السجائر وبذور عبّاد الشمس تتوزّع فوق الممّر، وأوراق الأضاليا الممزّقة تتناثر هنا وهناك. وعلى حجر الرصيف ورقة منتزعة من دفتر مدرسي كُتبَ فوقها: سرعة التراكتور الأسود، تفوق سرعة الأحمر ستّ مرات.

تسقط الخطوط والحروف الهجائية وتتجمع في كلمة واحدة وتقع فوق الظّهْر ثم تقع على الوجه. أما الثآليل الموجودة فوق أصابع

الأطفال، وما على تلك الثآليل من قذارة تبدو كالتوت الرمادي، فإنها تبدو في اصطفافها شبيهة بعنق الديك الرومي.

قال باول بأنّ الثآليل تنتقل من خلال الأشياء وتتجّول فوق شتّى أنواع الجلود، فأدينا تُمسِكُ كلّ يوم أيدي الأطفال ودفاترهم، والطباشير تخدش السبورة، ويمكن لكل كلمة تكتب فوقه أن تكون من الثآليل.

في الوجوه عيون مرهقة لا تصغي إلى ما يقال، يُقْرع الجرس بعد ذلك، فتذهب أدينا إلى التواليت الخاص بالمعلّمات وتقف أمام المرآة، لتتأمل وجهها وعنقها وتبحث عن الثآليل، فأصابعها تسحق الطباشير.

في الثآليل الخاصة بالأطفال يبدو القبض والدّفع والضغط والشدّ، وتبدو الكراهية أثناء الرض ولف الأشياء، مثلما يبدو الزهو والهرب ومراوغة الآباء والأمّهات والأقارب والجيران والغرباء. فعندما يفيض دمع العين، وينكسر السّن ويتجمّد الدّم في الأذن، عندئذ ترتعد الفرائص.

تمرُّ إحدى الحافلات بنافذة مضاءة وفي وسطها أنبوب مطاطي وأكورديون والأبواق تلمع فوق الأسلاك. ينفتح الأكورديون وينغلق، فينبعث التراب من بين طياته. كان التراب رمادياً وناعماً وأكثر سخونة من هدوء المساء. تثير الحافلة، عاصفة أثناء مرورها داخل المدينة، فالأبواق تنشر الشرر بين الأشجار، فتتساقط الأوراق على الشارع من فوق الأغصان البعيدة، وتمتد شجيرات الحور فوق جميع الشوارع، وتكون أكثر إظلاماً من الأشجار الأخرى في لحظات السّحر.

يمرّ رجل أمام أدينا يحمل مصباحاً يدويّاً، فالمدينة بلا كهرباء، لهذا

فإنّ المصابيح اليدوية لا تفارق أصابع اليدين. وفي الشوارع الضيّقة المظلمة ليس الليلُ سوى قطعة واحدة، والماشي فيه ليس أكثر من ضجيج في آخر أطراف الأحذية المضيئة، حيث يُسلِّطُ الرجلُ ضوءَ مصباحه نحو الأسفل والمساء يسحب الحقولَ البيضاءَ الأخيرة من خلال نهايات الشوارع.

تلمع في نوافذ العرض، صحونُ الحساء البيضاء، والملاعق الخالية من الصدأ، فلم يشتعل المصباح اليدوي بعد، فما يزال الرجل ينتظر حتى تتلاقى نهاية الشارع مع الشارع الصغير. وعندما يضيء الرجلُ المصباحَ الكهربائي، فإنّه يتلاشى، ويغدو الرّجلُ في اليد.

لا يتّم إيقاف التيار الكهربائي عادة إلّا عندما يعمّ الظلام، فيتوقف الضجيج الصادر عن مصنع الأحذية ويتمّ إضاءة شمعة في منزل الحراسة، وإلى جوارها يجلس أحد الأكمام. أمام منزل الحارس ينبح أحد الكلاب. ولا يراه أحد، لكنْ المرء يرى عينيه تلمعان ويسمع وَقْع خطواته فوق الإسفلت.

تزحف أشجار الحور صوب الشوارع جميعها، وتتقارب البيوت وتبدو أضواء الشمس خلف الستائر. يُبقي الناس أطفالهم في النور، لأنهم يريدون أن يشاهدوا وجنات أطفالهم قبل انبلاج الصباح الجديد.

حيثما تنمو الأدغال، يكون الليل موزّعاً بين أوراق الشجر والسطو. وعندما ينقطع التّيار الكهربائي عن المدينة، يجيء الليل من الأسفل فيمزّق السيقان أولّ ما يمزّق. فوق الكتفين نور رماديّ يكفي الرأس كي يقوم بالتمايل والضغط على العينيْن ولكنه لا يكفي للرؤية.

في بعض الأحيان تتألّق أحواض المياه، لكنّها لا تضيء طويلاً، لأنّ الأرض عطشى والصيف جاف والغبار يمتّد لأسابيع طويلة. تمسّ الشجرةُ كتفَ أدينا، وللشجرة نُوار أبيض لا يهدأ، ورائحة ثقيلة وعبير حاد. أضاءت أدينا المصباح اليدوي فسقطت بقعة ضوء في الظلام. إنّها بيضة. وفيها ينمو رأس ذو منقار، فضوء المصباح لا يكفي للرؤية، فهو بالكاد يكفي للتأكد من أنّ الليل لا يستطيع أن يفترس الظهر كلّه، بل نصفه.

أمام مدخل الوحدة السكنيّة، تبني الزهورُ سقفاً كثير الثقوب، إنه غربال من الأوراق القذرة والنجوم القذرة، يطردها الليل بعيداً عن المدينة.

الذؤابة

الجريدة خشنة، لكنّ لذؤابة الديكتاتور فوق صفحاتها وميض رمادي. فالذؤابة مدهونة بالزيت ولامعة ومسرّحة بعناية. الذؤابة ضخمة وهي تخفي الثقوب الصغيرة في الجزء الخلفي من رأس الديكتاتور. ابتلعت الورقةُ الذؤابةَ وقد كُتب فوق الورقة الخشنة:

ابن الشعب المحبوب.

إنّ ما يلمع هو ما يبدو للعيان.

تلمع الذؤابة فتُرى يومياً في أرجاء البلاد، فصور الديكتاتور في الصحيفة اليومية هي من الضخامة بحيث تساوي نصف طاولة. تحت الذؤابة يبدو وجه الديكتاتور كراحتي يدي أدينا عندما تضعها إلى جوار بعضهما بعضاً. يبدو الرجل يحدّق في الفراغ ويبتلع أنفاسه من جديد.

السواد في عيني الديكتاتور شبيه بإظفر إبهام أدينا، عندما ينحني دون أن يريد أن يمسك شيئاً. يمتدّ السواد الموجود في حدقة العين على امتداد البلاد من خلال الجريدة.

يتحرّك العَصَبُ البصري في أرجاء البلاد. فالمدن والقرى تتجمّع تارة وتتباعد تارة أخرى، فتضّل الطرق بين الحقول وتمرّ بالمقابر دون جُسور، أما الأشجار التي تنمو دون أن يزرعها أحد، فإنها تختنق. وتهيم الكلاب على وجهها، وتنسى النباح حيث لا توجد بيوت، وتفقد المأوى في الشتاء، لأنّ المأوى في الصيف يكون متواضعاً تارة،

قاسياً تارة أخرى. وهي تشعر بالفزع وتخفض جبينها في أثناء المشي قبل أن تلتهم طعامها.

وحيثما يسقط الضوء من السواد إلى العين، يقف الناس في البلاد وتكون لديهم أمكنة تحت أقدامهم تبلغ البلعوم صعوداً وتنحدر من على الظهر نزولاً.

المقهى والموقف والطاولات والكراسي كلّها هي الأخرى من الحديد. إنّها مصنوعة كي تنحني من أجل التصّفح والاستعراض، وهي بيضاء رقيقة كالخيط، لكنّ الكراسي تغدو ثقيلة عندما يرغب أحد في رفعها أو تحريكها بعيداً، غير أنّ الناس اعتادت أن تمسّها بأصابعها وتنظر إلى الماء في تلك الأثناء، لأنّ المرء لا يتوقع أن يكون للحديد تأثير في يديه.

الطريق المجاور للمقهى يتبع النهر، مثلما يحاذي النهر الطريق. يقف الذين يصطادون الأسماك بالصنّارة على الشاطئ، مثلما يتبّدى السواد في العين ثانية، ويلمع أيضاً.

إنّ ما يلمع هو ما يظهر للعيان.

تسقط ظلال أشجار الحور على ضفّة الشاطئ وهي تتمزّق على حافّته ولا تعود لتظهر ثانية. وعندما يسير المترو فوق النهر تطرد الظلالُ ظلالاً صغيرة أخرى نحو مجرى الماء، مثلما تطرد ذؤابة الديكتاتور الثقوب الصغيرة في الجزء الخلفي من رأسه.

أضواء أشجار الحور وظلالها تطوف بالمدينة كلّها؛ لوحاتها الحجرية وجدرانها وتلالها العشبيّة وأمواهها ومقاعدها.

لا يتمشّى أحد على مقربة من النهر، على الرغم من أنّ اليومَ من أيام الصيف، ويمكن لهذا اليوم الصيفي أن يكون بلا معنى إلى جوار النهر.

لا يثق صيّادو السمك بالصيف ذي الألوان المخطّطة، فهم يعرفون أنّ ظلال شجر الحور تبقى في الأسفل، وأنْ الجزء العلوي من تلك الأشجار هو بمثابة سكاكين.

يقول الصّيادون إن الأسماك لا تقترب منهم عندما تقع الخطوط السود القادمة من شجر الحور على الصّنارة، ففي تلك اللحظات يضع الصّيادون عصيّهم فوق الأعشاب، ويقذفون بالحبال إلى النافورة الحجرية المضيئة.

في الطريق المحاذي للنهر ثمة امرأة تتمشّى، وهي تحمل بين ذراعيها وسادة مشدودة والرياح تصفق من خلفها. ومن يدري فلعلها تخبئ طفلاً داخلها، وقد يكون الطفل هذا ملفوفاً بقماط، وهو ينام برأسين فوق طرفي المخدّة، حيث لا تكون الحبال قد شُدّت بقوة. كان ذراعا المرأة بُنيّينْ أما باطن ساقيها فشديد البياض كالوسادة، وكان أحد الصّيادين يتأمل باطن ساقيها والجزء الخلفي من جسدها يترّنح.

وقعت نظرة الصّياد على الماء، وكان الرجل مرهقاً وضئيلاً، جرّاء وقوف أشجار الحور على رأسها.

كانت نظرات الصيّاد تستشعر قدوم المساء المفرط في القصر، وهو يستلقي في منتصف النهار وأصابعه تفتش في ثنايا جيوبه والسيجارة في زاوية فمه. بدت سيجارته مشتعلة بقوة بينما يده تكبر لتغطيّ الشعلة؛ لأن الرياح كانت تهبّ.

كان الصّيادون يصطادون العشبَ المترسبّ في أعماق النهر، والجواربَ الممزّقة والملابسَ الداخلية المنتفخة. وقد يحدث، مرة في النهار، عندما تغدو القضبان معوجة والجبال والموجودة في الأعماق منهكة أن يصطادوا سمكة قذرة. وقد يصطادون قطة ميتّة.

يسرق هذا المساءُ المفرطُ في القصر كلَّ شيء. وما لا يستطيع أن يسرقه، فإنّه يحرّمه. فهو يحرّم السعادة، كما يقول الصّيادون، فالصيف ذو الألوان المخططة يفترس السعادة أثناء الصيف.

تتدلى من شجرات الحور قرون، لا هي بالبذور ولا هي بالثمر، إنّها قفّازات مائلة لمقاومة الحشرات والهوامّ والذباب والمنّ، وهي تسقط من الشجرة وتقع فوق الجريدة. تُبعد أدينا الهوام بأطراف أصابعها وتجمعها في ذؤابة الديكتاتور، في حين يزحف الذباب نحو غضروفة الأذن، ويتظاهر المنّ بالموت عندما يستشعر الوميض.

تُخفض النادلةُ اللوحةَ وتتأملُ الوجهَ الموجودَ فوق الطاولة، تصطك عظامها الخلفيّة وتحمّر أذناها. تشيح بعينيها على نحو سريع، فيتوتر الوريد الأزرق في صدغيها، فتضع الكأس فوق الجبهة.

فوق الطاولة عصير الليمون غيرُ مُركزّ وقد أثار متواليات صفراء، وتبدّت الذؤابة في الكأس. حركتّ أدينا العصير بالملعقة، فصارت الملعقة تلمع، والليمون أيضاً، وما يلمع هو ما يظهر للعيان. إبرة ساخنة في الجبهة، يمّر المترو فوق الجسر، وتندفع الأمواج في النهر. تدع أدينا الملعقة واقفة ولا تلمس الكأس وتغدو يدها كالملعقة. تنتظر أدينا كلارا وباول وتشيح برأسها بعيداً.

يقع الموقف تحت السقف المستوي الخاص بالمقهى، وتحته تقع سقوف مدبّبة. هنا شوارع الديكتاتور والمفتشيّن ورئيس البلدية والمخبرين والضباط. إنها الشوارع الهادئة التي تنتمي إلى عالم الأقوياء والتي يَشعُر الريحُ بالخوف إذا مرّ فيها. وإذا حلّقت هذه الرياح، فإنها لا تستطيع أن تُحوِّم، وإذا زمجرت فمن الخير لها أن تتكسّر أضلاعها لا أطرافها. إنّ الأوراق الجافة تخدش الطريق وتخفي بسرعة آثار الخطوات التي تمشي فوق ذلك الطريق، وإذا ما سَار أحد لا يسكن في هذا المكان، فإن الشوارع تعدّه نسياً منسياً.

إنّ الشوارع الساكنة التي تنتمي إلى عالم الأقوياء، تقع في مهبّ النسيم الذي يُجبر الفروع على الاهتزاز وأوراق الشجر على الإصغاء ويجعل الطريق الممتّدة إلى جانب النهر تنشغل بالضوضاء الموجودة على جانبي الشاطئ، وفي العشب المقصوص الذي يجعل خطوات الماشي فوقه عمودية ويرفع حركة الركبة إلى مستوى الحلق. لا يريد السائرون في هذا الطريق لفت الأنظار، فهم يسيرون بثبات وهدوء، أما الذين يهرولون فتتحرك حتى أعناقهم، وعندما يصل السائرون إلى الجسر، فإنهم يغمرون المدينة بضجة لا تبالي بشيء، فهم يتنفسّون بينما يمّر المترو مندفعاً ويمدون جباههم وشعورهم للخروج من حالة السكون.

إنّ أحداً لا يرى، على الإطلاق، سادة هذه الشوارع الساكنة، إنْ في منازلهم أو في حدائقهم، فخلف أشجار الصنوبر وفوق الدرج الحجري يتمشّى الخدم. وعندما تطأ أقدامُهم الأعشاب، فإن قلوبَهم تصل إلى حناجرهم، خوفاً على الأعشاب أن تتكسّر. وعندما يقومون

بقص الأعشاب، تنتصبُ أمامَ عيونهم مرآة يلمع فيها المنجل والمشط الزراعي، مثلما يلمع المقص والمشط ولا يثق هؤلاء الخدم بجلودهم، لأن أيديهم ترمي الظلال في أثناء الإمساك بالأعشاب. كما أنّ جماجمهم تعي أنّهم ولدوا بأيد ملوّثة في شوارع ملوثة، وأنّ هذه الأيدي لن تصبح نظيفة، بل هرمة لا أكثر. وعندما يبصر الخدم ما بداخل ثلاجات هؤلاء السادة، تصاب أعينهم بالفزع؛ لأن النور يسقط فوق أرجلهم على نحو رباعي. تدّق ساعة الحائط وتنفتح الستارة وتتجمّد الوجنات في أثناء تفكيرهم، فاللحم ملفوف بأوراق السلوفان والسلوفان مغطى بالجليد الشبيه بالحجارة أو الرخام الموجود في الحديقة.

ليست الحدائقُ في الشوارع الساكنة، حدائقَ تماثيل ذوات قبّعات، ففي تلك الحدائق تقف الحجارة الحزينة عارية حتى رأسها. ففي تلك الحدائق أسودٌ عارية بيضاء كالكلاب التي تتساقط الثلوج فوقها وملائكة بلا أجنحة كالأطفال الذين غمرتهم الثلوج، وإذا كان الصقيع في الشتاء، يذوب تحت أشعة الشمس، فإن الثلج يغدو هنا أصفر ويتكسّر دون أن يذوب.

يقيم الخدم في الأدوار السفلية من تلك البيوت، وما يقومون به أثناء النوم ليلاً، أقرب إلى ما تقوم به الحشرات والفئران في الطابق الأرضي في الأعلى. فقد ذهب الرجال من الخدم إلى باطن الأرض، أما أطفالهم فقد كبروا وأما نساؤهم فقد صرن أرامل.

هناك معلمة في مدرسة أدينا، هي ابنة واحدة من الخادمات. وقد قالت تلك المعلمة لأدينا إن أمّها تعيش في المنزل الأصفر الواقع وراء

الحديقة الدائرية، ثم ترفع أصبع السبابة وتشير إلى منزل يقع على الضفة الأخرى من النهر. كانت عينا المعلمة باهتتين، ونظراتها جامدة، لأن اليوم كان شديد البرودة ومياه النهر قريبة. قهقهت المعلمة وهي فوق الجسر، مرّ المترو فوقه فسحق تلك القهقهة. وقد قالت ابنة الخادمة إن السّيد لا يعود إلى المنزل إلّا وقت حلول الظلام، فهو ضابط، يضيّع أيامه في الكازينو العسكري في ساحة الحريّة. وعند المساء تعثرُ الطريقُ عليه، في حين لا يتمكّن هو من العثور عليها. وقبل أن يقود تضع النادلات قبعتّه العسكرية، على نحو مقلوب، فوق رأسه، ويظلّ الرجل يمشي مترنحاً حتى تعثر الطريق عليه وعلى القبعة العسكرية التي تتدلى حول عنقه. وقد أضافت المعلّمة، ابنة الخادمة، بأن الأمر ذاته يتكرّر في المنزل: دلتا الدانوب. في برج الكاتدرائية تقرع الأجراس، تتطلع ابنة الخادمة إلى هناك، فتضحك وتضحك، فقرع الجرس يمسك بلسانها. أحست أدينا باقتراب المياه من خلال نافذة العرض. انحنت ابنة الخادمة، فرأتْ باطن الحذاء من الأسفل، وظهرت الجوارب لها رأيَ العين وقالت، إنّ كعوب الأحذية لا تعجبني. التوى فمها وقالت: دلتا الدانوب. فعثرت على الضابط مجدداً.

عندما يصعد الضابط ويسير بين الأسود الموجودة على الدّرج، تُصغي زوجتُه للخدوش فوق حذائه الثقيل، فتقول لأمي: دلتا الدانوب. عندها تحمل والدتي قِدْراً فيه ماء يغلي وتذهب به إلى الحمّام، وهناك تسكب الماء الساخن في حوض موضوع فوق الأرض، وتصّب الماءَ الباردَ فوقه حتى يمتلئ الحوض بالماء الساخن ويُصبحَ الماء دافئاً. تنتظر

زوجة الضابط في الممرّ، وقبل أن يدورَ المفتاحُ في الباب من الخارج، تفتحُ الزوجةُ البابَ من الداخل، وتتناول من يد زوجها الحقيبة، وتنزع القبعة عن رأسه وتقول: دلتا الدانوب. فيدندن الضابطُ ويطرق، ويسير خلف زوجته مباشرة من خلال الغرفة إلى الحمّام. تجلس المرأة فوق غطاء التواليت المغلق، بينما يقوم زوجها بخلع حذائه ووضعه بالقرب من الباب، فتطلب منه الزوجة بأن يخلع جواربه أيضاً. يخلعُ الضابطُ البنطالَ الرسمي ويناوله لزوجته، فتطويه وتضعه على ذراعها، بعدها يخلع الرجل ملابسه الداخلية ويجلس القرفصاء فوق حوض الاستحمام، ويتأملُ البلاطَ الأزرقَ الموجودَ حول المرآة. تصرخ زوجته وتبكي وتتهّمه بالخيانة، فيضع الضابط وجهه بين ركبتيه وهو يقول: أقسم يا حبيبتي، إنني أقسم.

رأت ابنة الخادمة في الشجرة الجرداء التي خدشت معطفها، ما سبق للضابط أن أقسم به، فلم تعلم أمي، كما قالت المعلّمة أن المرآة يكسوها البخار، لم يُسّبب الأمر للضابط أكثر من لحظة تعاسة عابرة، ولكنّ الأمر كان يعني الكثير لزوجته.

كانت أمي تجلس في غرفة المعيشة، وكرسيُّها إلى جوار حافة الطاولة الطويلة. وعندما نظرت صوب الحمّام، شعرت بالخجل يصل إلى ما وراء عينيها. خبّأتْ أمي يديها اللتين كانتا ترتعشان تحت سطح الطاولة. وعندما كانت تحرك حذاءها المنزلي، كانت السيدة تخاطبها قائلة: لينوزا، مكانك! بعدها التفتت السيدة إلى زوجها وصاحت به: ارتد ملابسك الداخلية! فنهض الرجل وارتداها في الحال.

مشت السيدة وهي تضع البنطال على ذراعها، وظلّت تمسك بحافة الطاولة ثم أمسكت بكتف أمي وقالت: لينوزا، نظفّي ما حولك وقالت لزوجها. اذهب ثانية إلى حافة الطاولة وأمسك بها كما تمسك بالدرابزين الموصل إلى غرفة النوم، فسار الرجل وهو يحمل حذاءه الثقيل بيده وراء أمّي.

نفخت ابنه الخادمة هواءً ساخناً من فمها، بين يديها وقالتْ: ليس لهذا المعطف جيوب وهو من السّيدة.

نظّفت أمّي الحمام وأطفأت النور، ثم أضافت ابنة الخادمة وهي تمرّ بأصابعها فوق المعطف وتمس أزراره بأظافرها، فيصدر عنها ضجيج لأنها كانت تصطدم بحجر إثْر رمي حجر: أنا لا أصّدق ذلك كلّه في واقع الأمر.

ثم قالت ابنة الخادمة: إنّ أمي لم تكذب قط، فقد شخر الضابط وراء باب غرفة النوم، أما السيدة فقد دندنت بأغنية:

أزهارُ الوادي
تُزهرُ ثانيةً
في ثوبٍ أحلى
أزهارُ الوادي

تعرفُ أمي تلك الأغنية، لأنّ السيدة تغنّيها في كلّ صباح وهي في المطبخ. تسير أمي على أطراف أصابعها، لكنّ خطواتها تترك، على الرغم من ذلك، صريراً فوق الأرض. تصغي السيدة إلى وقع خطواتها وتنادي أمّي لحظة أن تقف أمام باب المنزل وتصيح: أغلقي قفل الباب

مرتيّن يا لينوزا.

كانت السيدة تخشى، كما تقول ابنة الخادمة، أن يدخل الملاكان الحجريان إلى المنزل ليلاً. لهذا وضعت الأسود. وقد كانت تقول: في بعض الأحيان، لابنة الخادمة، إنّ ملائكته لا تستطيع أن تتخطّى أسودي. اشترى الضابط تماثيل الملائكة لتكون مقابل الأسود الخاصة بزوجته. كانت أمي تقول إنّ أسودهم وملائكتهم قدّت من حجر واحد، لهذا فكلهم عاجزون عن فعل شيء.

كان الضابط، كما تقول ابنة الخادمة، يعرف ذلك. لكنّ زوجته لم تكن تعرف. في الصباح عندما يرتدي الضابط حذاءه الطويل وقبّعته العسكرية، تبدأ زوجته بتنظيف زيّه الرسمي في الممّر. ينحني الضابط ببطء ويتناول الحقيبة الخاصّة بالملفات، في حين تنحني زوجته وتستمر في عملها.

كانت الفرشاة المستخدمة في التنظيف متناهية في الصّغر، لدرجة أن أمي عندما كانت حديثة عهد بالعمل في المنزل، لم تكن قادرة على رؤيتها كما تقول ابنة الخادمة، وقد كانت أمي تعجب كيف كانت السيدة تحني يدها عندما تشرع في تنظيف الجاكيت. وكيف وقعت الفرشاة ذات مرة من يدها. فقد كانت يداها صغيرتين، لدرجة أنّ أمي اعتقدت أن السيّدة لا تستطيع أن تحمل شيئاً في يدها.

ومع أنّ السيّدة كانت شديدة الضخامة، تقول ابنة الخادمة، إلّا أنني لم أر في حياتي يدين صغيرتين لامرأة على هذا القدر من الضخامة.

كانت السيدة تقف وراء النافذة، عندما كان زوجها يذهب، وتشرع

في تتبّع خطواته. يختفي الضابط بعد منزلين، فتنتظر كي تراه ثانية على مطلع الجسر، ثم فوق الجسر. وتقول السيّدة إنها تخشى أن يقع لزوجها شيء فوق الجسر عندما يكون قد بدأ يستعيد صحوه.

ويبدو أن ثمة حكاية لزجاجة العطر الصغيرة، كما تروي ابنة الخادمة، فالسيدة تحمل الزجاجة في جيبها مع أنّها فارغة، وتفعل ذلك منذ سنوات. كانت الزجاجة على هيئة وردة، وغطاؤها مُذهبّ. لكنّ الغطاء بلي من كثرة الحمل. على الغطاء حروف بالأبجديّة الكيرليّة[1]. ويبدو أنّ الغطاء كان روسيّاً، فقد سبق لضابط ذي عينين زرقاوين، لم يعد أحد يتحدث عنه في هذه الأيام، أن أقام في المنزل. لأن السّيدة كانت تقول: بين الحين والآخر. إن الضبّاط الأكثر وسامة هم أصحاب العيون الزرق. وقد كان لزوجها عينان بُنيّتان. وكان يقول لزوجته، أحياناً، إنّ رائحة الروس تفوح منك. وقد حكت ابنة الخادمة وهي تقلّب شفتيها وتضع طرف لسانها في زاوية فمها، بأن هذه الزجاجة ترتبط، بكل تأكيد، بحكاية محزنة. فما أسرع ما تثور الرغبة وتنغلق الأبواب. ولم يكن غياب الزوج هو ما يثير في السّيدة الشعور بالوحدة، بل حملها لزجاجة العطر الفارغة. كانت السيدة تجيء لأم ابنة الخادمة، في بعض الأحيان، وكأنّ رأسها يقع أسفل عنقها، أو كأنّ هناك سلّماً يبدأ من عنق المرأة وينتهي بكاحلها. أو كأنّ المرأة تمشي على رأسها فوق تلك الدرجات. ولعل ذلك لأنّ الأم كانت تقيم في الطابق السفلي من

---

(1) Cyrilic Script: أبجدية طوّرتها الإمبراطورية البلغارية الأولى، وهي تستخدم في الدول السلافية الشرقية والجنوبية. (المترجم).

المنزل.

تجلس زوجة الضابط نصف النهار إلى المائدة وعيناها فارغتان على نحو لاذع، وشبيهتان بقرصي عبّاد شمس جافين، تمسح ابنة الخادمة فتحتي أنفها الحمراوين بمنديل مُجعّد ثم تضع المنديل في حقيبتها وكأنه إحدى كرات الثلج.

دأبت السيّدة على أن تشتري للأم زوجاً من الأحذية المنزلية المصنوع من صوف الضأن في كل عام، مثلما اعتادت أن تعطيها شيئاً من البّن غير المطحون وبعض الشاي الروسي. وقد حكت ابنة الخادمة بأنّها اعتادت أن تستولي على تلك الأشياء لأن أمها تقتصد. وقد أضافت: إن أمي لا تستطيع أن تعطيني الحذاءَ المنزليَّ، لأنّ السيدة ستلحظ ذلك. وقد استطاعت ابنة الخادمة أن تخفي الحذاء ما قبل الأخير، وقد كان بوسعها أن تزعم أنّ كلب ساعي البريد قد أخذ الحذاء بعيداً وقام بتمزيقه من ثمّ، ولم يعد بالتالي صالحاً للاستعمال. صحيح أنّ ساعي البريد قد أنكر ذلك، لكنه لم يستطع البرهنة على إنكاره.

وقد بينّت ابنة الخادمة أنها حصلت على وظيفتها في المدرسة من خلال أمها التي طلبتْ من زوجة الضابط أن تتدخل لصالح ابنتها.

عند النهر ثمّة صيادان يقفان إلى جوار بعضهما بعضاً. رفع الأول قبّعته عن رأسه، فبدا شعره منكمشاً، وكان فوق الجزء الخلفي من رأسه خيطٌ يجري. فحاسر الرأس يحمل قبّعة من الشعر الأبيض، أمّا الصياد الثاني فيرمي بعض القشور في النهر. وهو يضع في قبعة حاسر الرأس بذور زهرة عبّاد الشمس ويقول: كل! حتى يمضي الوقت. وكان حاسر

الرأس يُبعد القبعة عنه ويقول: إنّ هذه البذور تذكّرني ببذور البطيخ. وعندما عدت من الجبهة إلى المنزل، بدا لي أنّ كل ما يؤكل هنا هو بمثابة مقبرة بالنسبة لي. فالنقانق والجبن والخبز وحتى الحليب هي بمثابة قبر. وهو يقول إنه لا يدري إلى الآن، على الرغم من مرور سنة ويوم، ثمّ ينحني ويتناول حصاة ويديرها في يده ويفرك عينه اليمنى ويرميها في الماء على نحو تمسّ الحصاة فيها الماء ثمّ تقفز إلى الأعلى. تمس الحصاةُ الماءَ أربع مرات وفي كل مرة تقفز نحو الأعلى أي أن الحصاة ترقص فوق الماء قبل أن تغرق. لقد مضى ما يثير الاشمئزاز يقول الرجل، ولكنّني أخاف ممّا في داخل البطّيخة.

سحب الرجل الذي يحمل بذور زهر عبّاد الشمس رأسه. بدا فمه ضيّقاً وعيناه مائلتين وهو يضع عيدان الصيْد فوق العشب اللامع.

يعلو قرص الشمس ويتوقف فوق المدينة، فتصنع العيدان ظلّاً، فيتكئ العصر على ظلال عيدان الصيّاديْن. وعندما يتجّه العَصْر نحو التلاشي أو عندما يبدأ النهار بالزّوال. تفكرّ أدينا، بأنّه سيحفر في الحقول المحيطة بالمدينة قبوراً عميقة، وستتكسَّر أعواد الذرة.

يقف الصيّادان بلا حراك عندما يصمتان. وعندما لا يتبادلان الحديث فإنّ حياتهما تتوقف. ليس لصمتها سبب، ما عدا أنّ الكلمات لا تنطلق.

تتحرك الساعة في برج الكاتدرائية ويدّق جرسها، وهذا يعني أنّ ساعة قد مرّت وانقضت، وهو ما يمكن أن يقع غداً. ليس ثمة من يُصغي إلى دقّة الجرس عند النهر، فدقّاته تنخفض وتضعف حتى تتلاشى.

يعاين الصّيادان، أثناء الحَر الشديد، النهار ويرقبان المطر في غمار الدّخان الصاعد من مصنع الأسلاك، عندما يكون يهطل في مناطق أخرى، ويشعران من خلال الوهج الموجود على الكتفين، المدّة التي ستبقى فيها الشمس ومتى ستبدأ بالغياب والتلاشي.

يقول الصّيادان: من يعرف النهر، يكون قد رأى السماء من الداخل. لحظة حلول الظلام في المدينة، تعجز الساعة الموجودة في البرج، لفترة ما، عن قياس الزمن، فيصبح وجه الساعة أبيض ويتحلل ضوؤها ويسقط فوق الحديقة. عندها تبدو أوراق شجر الأكاسيا الدقيقة كالأمشاط. تقفز عقارب الساعة، لكنّ المساء لا يصّدق تلك العقارب، غير أنّ الضوء الأبيض لا يستمر طويلاً.

يستلقي الصّيادان على بطنيْهما متجاوريْن، طالما بقي الضوء، ويتأملان النهر. يُظهِرُ النهرُ، لمن يعرفه، طالما بقي الضوء، كما يقول الصّيادان، التهابَ المفاصلِ البطيء. إنّها السماء من الداخل. لكنّ الالتهاب يقع في الوسط وليس في الأعماق، ولديه الكثير من الملابس التي تكفي لينتقل من جسر إلى آخر. لكنّ التهاب المفاصل هذا عارٍ، وهو يمسك الملابس بيده، إنّها، كما يقول الصّيادان، ملابس الغرقى.

يتوقّف الصّيادان عن تأمّل التهاب المفاصل، فبعد تبادل نظرات قصيرة، يضع الرجلان وجهيهما في العشب ويضحكان؛ لأنّ ساقيهما ترتجفان. لم يضحك الصياد حاسر الرأس. وعندما يسأله الآخرون عن سرّ ارتجاف ساقيه، مع أنه لم يضحك، يرّد بأنه يرى دماغه عارياً في الماء، عندما يضع وجهه بين الأعشاب.

في المقهى، إلى جوار الطاولة الأخيرة، يقف شاب غجري. يرفع الشاب قدحاً فارغاً من البيرة إلى الأعلى، فتبدأ الرغوة تنزل من القدح ببطء، ويبدأ فمه بابتلاع الرغوة قبل أن تصل إلى شفتيه. صاحت أدينا، توقف عن الشرب، فليس لك فم، فأنت تحتسي البيرة عن طريق جبهتك. يقف الشاب الغجري إلى جوار طاولة أدينا ويطلب منها، وهو يمد يده فوق الصحيفة، أنْ تعطيه ليو. كانت أدينا تضع العملة الرومانية إلى جوار القدح، فمد الشاب يده وسحب القطعة النقدية عن الطاولة، وقال لأدينا بأنّ الله، سيساعدها كي تبقى جميلة وطيبّة على الدوام. ظل الشاب يتحدث عن الله، لكنّ أدينا لم تتمكّن من رؤية وجهه الواقع تحت الشمس. ولم تر غير عينين يمتزج فيهما البياض بالصفار. فخاطبته أدينا: اشرب عصير الليمون.

في الكأس ذبابة تسبح، فقام الشّاب بالإمساك بها وإخراجها بالملعقة، ثم ألقى الذبابة فوق الأرض ووضع الملعقة في جيب بنطاله.

صاحت النادلة: شوشوج.

بدأ عنق الشّاب جافّاً يتراقص داخل قميصه. رفع الشّاب الكأس وشربه دفعة واحدة على امتداد وجهه وصولاً إلى عينيه اللتين يختلط فيهما البياض بالصفار ثم حشا الكأس في جيب بنطاله.

صاحت النادلة: شوشوج.

تعني شوشوج في لغة الغجر أرنب، أوضحت كلارا، فالغجر يخافون من الأرانب. لكنّ باول بيّن أنهم يخافون من الخرافات، بل إنّ الخوف لا يفارقهم على الإطلاق.

دوّن باول فوق قصاصة ورقية، لأحد كبار السّن من الغجر الذين غادروا المستشفى حديثاً، قائمة بالطعام المسموح له أن يتناوله. لكنّ العجوز لا يحسن القراءة، فتلا عليه باول قائمة الطعام التي تضمّنَتْ **لحم الأرانب**. صرّح العجوز بأنه لا يستطيع أن يحتفظ بالقائمة وقال لباول: أنت سيّد وعليك أن تكتب لي قائمة جديدة. شطب باول **لحم الأرانب**، لكنّ العجوز هزّ رأسه رافضاً وقال: شطب باول **لحم الأرانب**، لكنّ العجوز هزّ رأسه رافضاً وقال: ما تزال الجملة موجودة، ثم إنّك طبيب وسيّد، لكنك لا تعي كيف ينبض القلب في أحشائك، أما الأرانب، فقلب الأرض لديها ينبض، ولما كنا ننتمي إلى الغجر، فنحن نعي ذلك، لذا علينا أن نجري.

يركض الشاب الغجري بين أشجار الحور التي تمزّقه، فيرفع نعله ليصل إلى مستوى ظهره. تركض النادلة وراء نعليه، يتابع الصياد الذي يحمل بذور زهر عباد الشمس النعليْن ويقول إنهما يشبهان الحصى. في الأجمة تهب الرياح، فتقف عينا الشاب بين الأوراق. تقف النادلة فوق العشب تلهث وتترقب وأجفانها تتحرك، فأوراق الشجر كلها تتحرك، وهي لم تعد تستطيع أن ترى الشاب. لهذا تدع النادلة رأسها يقف وتخلع صندلها وتعود إلى مقهاها بطيئة وتمشي بين شجر الحور حافية وصولاً إلى الحجر والبلاط، وظلال صندلها تتحرك تحت يدها. تبدو الظلال عالية كالكعب العالي، رقيقة كالحزام، وتلمع أبازيم الحزام تحت خاتم النادلة وهي تمشي فوق الحجر. قال الصياد الذي يحمل بذور زهرة عبّاد الشمس للنادلة: هيّا اركضي صوبي، فلديك الكثير،

فساقاك غليظتان دون حذاء، وبدون كعب عال تظهرين مثل فلّاحة.

خدش الصيّاد الذي يخاف بذور البطيخ سرواله. وحكى بأنّه كان في قرية نسي اسمها، في أثناء الحرب. رأيت من خلال النافذة امرأة تجلس على ماكينة الخياطة. وهي تخيط أطراف إحدى الستائر البيضاء الملقاة على الأرض. طرقتُ الباب وقُلتُ: ماء. فتحت المرأة ووقفت بالباب وهي تحمل الستارة أمامها. كان في الدلو وعاء للشرب فشربت مرة وراء مرة حتى فرغ الدلو. رأيت باطن ساق المرأة في أثناء الشرب وكانت ساقها سمينة وبيضاء. نظرت في الدلو فرأيتها في الماء عارية. كان الماء بارداً وسقف حلقي ساخناً، وعنقي يقرع في أذني. جرّتني المرأة فوق البلاط. كانت ترتدي ملابس داخلية دون بنطال. لم يكن لبطنها قرار. ولم تنبس المرأة ببنت شفة. فكرّت بالأمر كثيراً، فأنا لم أسمع صوتها. وأنا الآخر لم أقل كلمة واحدة. لكنّني عندما صرت في الشارع قلت لنفسي: ماء.

قطع الصّياد الذي يحمل بذور زهرة عبّاد الشمس أحد الخيوط في حاشية قميصه، وقال إن ذلك يرجع إلى باطن الساق. وأضاف بأن زوجتي تشكو عندما أنام فوقها، لدرجة أن الجيران يقرعون الجدران في منتصف الليل ويصيحون بي كي أتوقف عن ضربها. وليس ثمة شيء وراء تذّمرها، فأنا أعرف منذ مدة طويلة أن كلّ شيء خلف قميص نومها بارد. وليس لديها غير فم يصرخ. اعتدت أن أنام فوقها في الظلام، فأرى عينيها الممزقتين، وجبينها من بعيد، وفمها الذي يختلط فيه الأصفر بالرمادي وذقنها المعُلّق. وأرى كيف تلوي فمها. وقد كان

بوسعي أن أضرب عينيها المفتوحتين بأنفي، لكنني لم أفعل. كانت تئن وتشكو، مثل امرأة يتوجب عليها أن ترفع خزانة وليس مثل امرأة يطيب لها الأمر. ضلوعها قاسية لدرجة تجعل قلبها يصاب باليباس، أما ساقاها فيصبحان أكثر هزالاً كلّ يوم، وليس ثمّة لحم يُغطّي باطن الساق، فكلّ ما لديها من لحم يتجمّع فوق بطنها على نحو دائري ويتمدّد كما الحال عند النعجة السّمينة.

خلع الصيّاد حذاءه وقَلَبهُ ثم نفضه فسقطت على الأرض نواة حبّة كرز. ثم قال إن القمر يكون، أحياناً، بين السقف والجدار في زاوية الغرفة، وللقمر ثنايا، ويكون بوسعي معها أن أرى أقداح الخمر في الفاترينة والخيوط البالية في السّجادة. عندها أقوم بتحديد تلك الخيوط وأدع اليوم يمّر من رأسي.

سحب الصياد الحاسر الرأس عوداً من الأعشاب وحشاه في فمه وأخذ يمضعه، فأخذ العود يهتّز. إن مرور اليوم من خلال الرأس، يضيف الصّياد، ومعك بذور زهرة عباد الشمس وشجرات الحور والنهر أمور لا تحتاج إلى وقت طويل. أمّا مساء هذا اليوم فسيطول، لأن النادلة ستكون معي في هذا المساء.

ضحك الصياد صاحب العود العشبي وقال: ومعك الغجري أيضاً. فرّد الصّياد الذي يحمل بذور زهرة عباد الشمس بأنّ هذا المساء سيستغرق وقتاً أطول وسيكون الوقت المخصص للنوم أطول بكثير. إنني استمع إلى جَلَبة الشواء في الخارج. أما السرير فيتأرجح لأن قميص النوم قد تمدّد فوقه. والشواء يصدر صفيراً ويجعل الظلام بلا حياة، ويفترس ما

أتمتع به من هدوء. ويمكن للشواء أن يكون أسفل وحدتي السكنية فوق الصخرة الواقعة بين الأعشاب، عبر الطريق المنبسط الموصل إلى نهر الدانوب. وعندما أنام، أحلم أنني أغادر وحدتي السكنية حيث أقيم، إلى الشارع. ليس ثمة شارع هنا، أقف حافياً وأنا ارتدي البيجاما عند الماء وأنا أرتعش. إنّ عليّ أن أفكّر باللجوء، إنّ عليّ أن أقطع الدانوب صوب يوغوسلافيا لألجأ إليها، لكنّني لا أحسن السباحة.

على الضفة الأخرى من النهر، يجلس رجلان فوق أحد المقاعد يرتدي كلٌّ منهما بدلة. تبدو أذناهما، جرّاء الضوء، شفّافتين، فهما يجلسان إلى جوار بعضهما بعضاً وكأنهما ورقتان. يرتدي الأوّل ربطة عنق منقّطة تجمع اللونين الأحمر والأزرق. أما على طرف المقعد فثمة بقعة من الظلال، لعلها معطف بلا أكمام أو بلا رقبة أو بلا جيوب. وفي كلّ مرّة يختفي واحد من الرجلين، عندما يتوقف الضوء فوق الغصن الآخر. والرجلان يأكلان بذور زهرة عباد الشمس. أما القشور فتطير سريعاً إلى النهر. وعندما يرفع الريح الغصن، يبدو الغصن أصغر.

يشير الرجل الحاسر الرأس بطرف عينه إلى الرجلين ويبصق العود العشبي في تلك الأثناء، ويسأل صاحبه إن كان يعرفُ العصفورَ الموجود هناك. أجاب الصياد، الذي يحمل بذور زهرة عبّاد الشمس، بأنّه لا يحسن السباحة في الواقع، ثم هزّ كتفيه وتحدث بصوت خفيض قائلاً: رأيت زوجتي عندما حلمت بنهر الدانوب ذات مرة. اقتربت من الماء ورأيتها موجودة هناك، لم تعرفني وسألتني مثلما يسأل الغريبُ الغريبَ: هل تريدُ اللجوءَ أنت الآخر؟ بعدها ذهبتْ وغادرتْ الحصى

والماء صوب الوجهة الأخرى. هناك كانت المراعي وشجيرات البندق. بعدها صاحت زوجتي بأن الماء يختطفها وأنها لا بد أن تتناول شيئاً من الطعام. بدأتْ تبحث عن الطعام تحت الأجمة، فلم تجد إلا العشب النهري، فبدأت تبحث بين الأغصان، فجمعت بعض حبّات من الجوز إضافة إلى الأوراق والأغصان. لم تكن تلك الحبّات صالحة للأكل، فقد كانت ما تزال مغلّفة بأغلفة خضراء. دقّت زوجتي الحبات بحجر مدّور، وعندما بدأتْ تأكل، أخذ حليب الحبّات يسّح من فمها. أشحت بنظري بعيداً وأخذت أنظر صوب الماء وأخذت أردّد: أبانا الذي في السماء وفي الأرض كنت أشعر وأنا أتلفظ بكل كلمة بالحجارة تتصادم في فمي ولم أستطع أن أواصل الدعاء، فالله قد استمع إلى صوت الحجر وحبات الجوز ولم يُصغ إليّ. اتجهتُ صوبها وصرخت بصوت عال، لدرجة أن الصوت استطاع أن يُصيب عيني: تعاليْ إليّ فأنا لا أستطيع اللجوء ولا أحسن السباحة.

جلست حشرة المنّ على جبين الديكتاتور واستسلمت للموت. تَخْتَلِفُ أدينا إلى المقهى، في كثير من الأحيان؛ لأنّه على مقربة من النهر، ولأنّ موقف السيارات ينمو كل سنة مقدار ذراع، ولكون خشب المقهى نصف السنوي. يغدو أكثر إشراقاً وطراوة في نهاية الصيف، ولأن بوسع المرء أن يرى الأغصان الكبيرة وهي تتحرك على الرغم من انقضاء السنة.

لحاء الشجر معتم وصلب وأوراقها خشنة الملمس على نحو يبيّن أن الصيف لم ينته بعد. أما عندما يحّل الصقيع، فإن تشرين الأول يكون

قد حلّ، لأنه يكون بمقدوره أن يقّص أوراق الشجر في ليلة واحدة، ويحدث ذلك بالسرعة التي يقع فيها الحادث.

ونظراً لّأن دخان الخوف يبقى عالقاً في موقف السّيارات، فإنّ المرء يميل إلى البطء في التفكير. ويرى أنّ ما يراه الآخرون ويفعلونه يشاكل حياته الشخصية. وليس ثمة من يدري، على الإطلاق، إن كان ما يفكر به المرء هو جملة عالية أو عقدة في الحلق، أو أنّ ذلك كلّه ليس أكثر من رفع أو خفض في الحروف الأنفية.

يبدو المرء أصمّاً في مهّب الخوف.

يتطاير الدخان من مصانع الأسلاك، ويذهب في جميع الاتجاهات بانتظار أن تتشكّل الصورة التي يكون عليها فصل الصيف. وفي الداخل هناك الزي الخاص بالتهاب المفاصل الرديء.

وإذا كانت أدينا قد اعتادت على هبوب الخوف، فإنها تحرك ساقها على نحو مختلف عن ساق الكرسي.

تترابط الشوارع الهادئة الخاصة بأصحاب الحكم مع المترو فوق الجسر كونه يمثل العربة الأخيرة، وتدخل إلى المدينة وإلى الضاحية وإلى الشوارع المثلثة الخاصة بالخادمة. هناك يرى المرء كيف يكبر الأطفال من الطين الجاف، خارج منازلهم، وكيف يذهب الرجال إلى باطن الأرض، تغطّيهم أوراق الجرائد القديمة، أما الأرامل فقد هربن إلى شوارع الأقوياء وأيديهن ممدودات إلى الأمام.

عندما يجلس المرء، في المقهى، لمدة طويلة، فإنّه يضع الخوف جانباً ويشرع بالانتظار. وعندما يعاود القدوم في صباح اليوم التالي يجد هذا

الخوف موجوداً حيث يختار أن يجلس. فالخوف حشرة مَنٍّ في الرأس تأبى الذهاب. وعندما يقرر المرء البقاء طويلاً في المقهى، فإنّها تتظاهر بالموت.

تتأرجح كلارا فوق الكرسي وترفع ملابسها إلى الأعلى، فساقاها نظيفتان، تمّ تنظيفهما حديثاً من الشعر، لهذا تراهما يلمعان لدرجة أنّ النمش الأحمر يظهر في كلّ مسام من مسامات جلدها. تقول كلارا إنه يتوجب عليها أن تحصي، يوم أمس، لفّات السلك الخاصة بمارا، وقد طلبها اليوم المدير، الذي وقف إلى جوار النافذة وشرع يحصي لفّات السلك، وعندما انتهى قال: إن سيقانك كسيقان الغزال. احمّر وجه مارا وقالت له: شكراً. فرّد المدير بأن ما على سيقانك من شَعْر يذكرّ بساقيْ الغزال.

في النهر ثمة مجاديف تحرّكها أربعة نساء يجلسن في قارب وعضلاتّهن تبدو في أذرعهن مثل البطون. أما المرأة الخامسة فتضع قِمْعها في فمها وتصيح من خلاله دون أن ترى المجاديف، فهي تصرخ فوق الماء.

تسير كلارا عبر شجر الحور في المدينة، يطقطق حذاؤها قرب النهر، تظهر ناصيتها وكأن الصيحة قادمة من قِمْع يقع القرب من خطواتها. ويترنم الصياد حاسر الرأس بأغنية.

ينهض الرجل ذو ربطة العنق المنقّطة التي يمتزج فيها الأزرق بالأحمر عن مقعده، وفي أثناء المشي يدّس الرجل الربطة في جاكيته، ويبصق في أثناء المشي، قشور بذور عباد الشمس في النهر، ويُمشّط شَعرَهُ في أثناء صعود الدرّج. يقف الرجل فوق الجسر ويتابع ساقيْ كلارا التي تطير

ملابسها الصيفية، ويشعل سيجارة في تلك الأثناء.

تفتح أدينا مظروف رسالة أبيض اللون ويغطّي باول وجهه بالجريدة فيتبيّن أنّ ظفر إبهامه ممّزق، والجلد الذي يحيط بأظفر أصبع السّبابة، أصفر جرّاء التدخين. الرسالة قادمة من ليفيو، وهي تتضمن دعوةً مع خاتميْ زواج متشابكيْن.

ليفيو صديق باول في المدرسة، وهو يعمل منذ سنتين مدرّساً في قرية صغيرة في الجنوب، حيث يشطر نهر الدانوب البلاد إلى شطريْن، وحيث ترتطم الحقول بالسماء وترمي الأشواك الذابلة زهورها البيضاء في الدانوب. في القرية يحتسي القرويون، قبل الإفطار، العرق ويذهبون إلى الحقول، كما يقول ليفيو. أما النساء فإنّهن يقمن بحشو الإوز بالذرة المشبّعة بالدهن، كما أنّ الشرطي والقسيس ورئيس البلدية والمعلم يضعون أسناناً ذهبية في أفواههم.

يسرف الفلاحون الرومانيون في الطعام والشراب؛ لأنهم لا يملكون سوى القليل، كما يقول ليفيو، لكنهم لا يتحدثون كثيراً؛ لأنهم يعرفون الكثير ولا يثقون بالغرباء حتى لو أكلوا طعامهم وشربوا شرابهم، لأن الغرباء لا يضعون أسناناً ذهبية في أفواههم. فالغرباء هنا، كما يقول ليفيو، يشعرون بالوحدة تماماً.

لهذا تزوج ليفيو معلمة من القرية، امرأة تنتمي إلى هناك.

إنسان لا يساوي أكثر من قطعة خبز

يتمشّى رجل مع حصانه فوق الشارع المجاور للشاطئ وهو يدندن بأغنية وأغنيته أقصر من خطواته. ولم يستطع وقع سنابك الحصان أن يفسد النغمة. يُرى الرجل وهو يخطو فوق الأرض، والغبار يُصبح كلّ صباح أكثر قِدماً من النهار.

شعرتْ أذينا بالأغنية من خلال إيقاع حوافر الحصان، وكان فم الرجل يكتب نصّ الأغنية فوق جيبها:

كلّ يوم بعد يوم
رغبتي في بيع حقلي
رغبتي في بيع بيتي
تتنامى، تتنامى

رجل صغير وحبلٌ رفيع وحصان ضخم. الحبل الرفيع للحصان، هو غليظ بالنسبة للرجل. ورجل مع حبل غليظ، وهو بمثابة رجل مشنوق. كالسمكري الذي قدم من الضواحي في السنوات الغابرة.

كان يوماً شبيهاً بالأيام التي يمرّ فيها المترو أمام شباك العرض، حيث الأنابيب والمرشات وصلبان المقبرة، عندما عثر على الرجل مشنوقاً.

لم تعد النار تلتهم القدور، لكنّ الموت، كما اعتاد السمكري أن يقول، لم يعضّه بنابه وإن كان قد أمسك بخناقه عندما عُثر عليه.

أمسكت أصابعه القليلة بالحَبْل وصَنَعتْ حلقة. وقد عَثَرَ على الحبل الرّجلُ الذي يعمل في المسلخ والذي سبق له أن رمى القطة أمام الباب.

لقد عثر ذلك الرجلُ عند السمكري على أنبوب للموقد فوصّى عليه وذهب ليحضره. كان الرجل قادماً للتو من عند الحلّاق وكان شعره حديث القص وذقنه حديثة الحلاقة، وتفوح منه رائحة زيت عشبي. سمّى الحلاق تلك الرائحة رائحة الخزامى، والحقّ أنّ كلّ الرجال الذين يحلق لهم لحاهم، تلمع وجوههم وتفوح منهم روائح الزيوت العشبية.

قال الرجل الذي تفوح الروائح العشبية منه عندما عثر على المشنوق، إنّه حِرَفيّ ماهر، لكنّ عمله غير متقن.

كان السمكري معلقّاً على نحو غير مستقيم، وكانت المسافة بينه وبين الأرض قصيرة، بحيث كان في وسعه أن يقف على رؤوس أصابعه وأن يتخلّص من الحبل.

مدّ الرجل الذي تفوح الروائح العشبية منه يده نحو رأس المشنوق، وقال: يا لخسارة هذا الحبل المتين. لم يقم الرجل بقطع الحبل، لكنّه أرخى الحلقات فسقط السمكري على الأرض، وظل رأسُه معلّقاً في الهواء. أرخى الرجل الذي تفوح الروائح العشبية منه عُقَد الحبل، وعَقَد الحبلَ حول كوعه مستخدماً إبهامه وسبابته، وصنع عقدة في نهاية الحبل وأوضح بأن لهذا الحبل استخدامات كثيرة في المسلخ حيث يعمل.

حشتْ الخيّاطةُ جيبَ المريول بملقط ومسامير جديدة لامعة وتركت الرأس معلقّاً وسكبت دموعها على المنبّه الموجود فوق الطاولة. على صدر الساعة كان العقرب يتحرك ويصدر إيقاعات متتالية. نظرت الخياطة نحو المؤشّر واتجهت صوب مرش الماء، وقالت: سآخذه إلى قبر السمكري. فأجاب الرجل الذي تفوح الروائح العشبية منه: لا أدري

وأخذ يبحث عن أنبوبه.

روى الحلاق أنّ السمكري قد زاره قبل ساعة وأنه حلق له ذقنه، وقد شنق نفسه قبل أن تجفّ ذقنه. أدخل الحلاق ملفاً في جيب معطفه المخصّص للعمل وقال للرجل الذي تفوح الروائح العشبية منه، إن على من يقطع حبل المشنوق، أن يربط نفسه بالحبل. وضع الرجل الذي تفوح الروائح العشبية منه ثلاثة أنابيب تحت ذراعه وعرض الحبل وهو يقول: انظر، فالحبل لا يشكو من أيّ نقص.

رأت أدينا فوق البلاط، وإلى جوار المشنوق حبلاً من القدور النحاسية. كان الطلاء داخل تلك القدور قد مُحيء وبلي. وقد كان للبقدونس والكاشم[1] والبصل والثوم والبندورة والخيار، وكل ما استطاع فصل الصيف أن يخرجه من باطن الأرض دور في جعل القدور باهتة بمقادير تصغر أو تكبر؛ إنها خضروات حدائق الضاحية ولحوم الحظائر والمراعيّ.

عندما وصل الطبيب. ابتعد الجميع بمقدار خطوة عن السمكري، وكأنّ الصدمة قد حلّت بِهِمْ، لحظتها. وقد شوّه الصمتُ وجه السمكري، وكأنّ الطبيب هو الذي جلب الموت معه.

عرّى الطبيبُ السمكريَ من ملابسه وتأمّل القدور ثم شدّ على يديْ السمكري الخاليتيْن من الحياة، وقال:

كيف يستطيع رجل له ثلاثة أصابع في يديه أن يقوم باللحام؟ وعندما

---

(1) الكاشِمْ نوع من النبات يتبع الفصيلة الخَيْمية، وتستعمل أوراقه وبذوره توابل، ويسمى بالإنجليزية Lovage. (المترجم).

رمى الطبيب بنطال السمكري على الأرض، سقطت منه حبتّا مشمش. كانت الحبتّان صفراوين كالنار النظيفة والكاملة التي لم تلتهم القدور بعد. تدحرجت الحبّتان أسفل الطاولة وهما تشعّان في أثناء الحركة.

كان الحبل ملتفاً، كعادته كل يوم، على عنق السمكري، لكن خاتم الزواج سقط قريباً من الحبل.

بقي الهواء تحت الأشجار أياماً وليالي، مرير الرائحة، وقد شاهدتْ أدينا الحبلَ الفارغ في عروق الجدران الجيرية وفي الإسفلت المتصّدع. وقد فكرّت أدينا أول ما فكرت بعد الظهر بالخيّاطة، أمّا في المساء فقد فكرّت بالرّجل ذي الرائحة العشبية، وفي اليوم التالي فكرّت بالحلّاق، أما في الليل الذي هبط دونما غَسق، فقد فكرّت أدينا بالطبيب.

بعد يومين من وفاة السمكري، ذهبت والدة أدينا، مروراً بحقول البنجر، إلى القرية التي تومض جدرانها البيض وصولاً إلى الضاحية. ونظراً لأنّ عيد الفصح سيحل قريباً، فقد اشترت خروفاً. وقد سمعت والدة أدينا وهي في القرية والخروف في حوزتها أنّ ثمة طفلاً كان عند المشنوق، وهو طفل غريب، متشّرد، قام بسرقة خاتم الزواج من على عنق السمكري. كان الخاتم من الذهب الخالص، وكان من الضروري أن يباع ويشترى بثمنه كفن للسمكري، لكن المال الذي عثر عليه في درج طاولة السمكري لم يكن يكفي لشراء المادة الخام لصندوق خشبيّ ضيّق. لذا قالوا إن هذا الصندوق ليس نعشاً، إنّه بدلة ضيقّة.

ظلّ الرجل صاحب الحصان واقفاً عند حافة الشارع، مرّ باص فحجبه عن النظر، اختفى الباص فبقي الرجل واقفاً في الغبار والحصان

يدور حوله. رفع الرجل ساقيْ الحصان فوق الحبل ولفّ الحبل على جذع شجرة وشدّ العقدة بقوّة ثم اندفع عبر باب المخزن ووقف بين الرؤوس المنتظرة في طابور الخبز.

قبل أن يختفي رأس الرجل بين الرؤوس الصارخة، نظر الرجل إلى الوراء. رفع الحصان حافره ووقف على ثلاثة سيقان مدة تفوق المدة التي يحتاجها الباص كي يمر، كان الحصان يفرك بطنه بجذع الشجرة.

أحست أدينا بوجود تراب في عينيها، تفحّص الحصانُ حوافَّ الشجرة بمنخريه، فغاب رأسه. تبيّن أن الغبار الموجود في طرف عيني أدينا هو ذبابة صغيرة الحجم. عضّ الحصانُ غُصناً، فتساقطت أوراق الأكاسيا من فمه. ولمّا كان للخشب الرقيق أشواك، فإنّ تلك الأشواك توقّفتْ في حلقه.

هبّ من المخزن الذي اختفى فيه الرجل، هواء ساخن على الشارع. أثارتْ الباصاتُ زوبعةً من الغبار خلفها، وكانت الشمس تعلق بالباصات وتتحرك معها. أما فوق الزوايا فكانت الشمس تتذبذب كقميص مفتوح. كان الصباح يفوح برائحة البنزين والتراب والأحذية التي تعبر الطريق. وعندما يمر أحدهم وهو يحمل قطعة خبز بيده، تفوح رائحة الجوع من الطريق.

للجوع بين الرؤوس التي تتصايح في المخزن آذان صاغية وأكواع قاسية وأسنان كليلة للعض وأخرى جيّدة للصياح. وفي المخزن خبز طازج وأكواع لا حصر لها، لكنّ الخبز محدود.

حيث يحلّق الغبار عالياً، يكون الشارع، ضيقّاً في الغالب،

فالوحدات السكنيّة ملتوية وضيّقة وبالقرب من الطرق ينمو العشب بكثافة وعندما يتفتّح هذا العشب ويكون نضراً ومشرقاً، تمزّقه الرياح. وكلّما زادت نضارة الأزهار، ازدادت قوة التمزيق، ونظراً لأن الصيف يطحن نفسه، فإنه يخلط الملابس الممزقة بالتبن. كما أن وميض زجاج النوافذ البّراق، يغطيّ العيونّ، من قبل ومن بعد، مثلما تغطيّ الحبوبُ الطائرةُ الأعشاب.

يخلع الأطفال أُوراقَ الأعشاب ذات السيقان الحليبيّة من الأرض ويمصّونها في أثناء اللعب. وفي اللعب يتجلّى الجوع، لكنّ نمو الرئتين يتوقف. أمّا الحليب القادم من تلك الأعشاب فيغذّي الأصابع القذرة بالثآليل .. أما الأسنان الحليبية فلا تتغذّى على ذلك الحليب، بل تتساقط، وهي لا تترنّح في مكانها طويلاً، بل تسقط في الأيدي أثناء الحديث ويرميها الأطفال سنّاً وراء آخر كل يوم من فوق أكتافهم، صوب الأعشاب. ويصيحون وتلك الأسنان تطير:

أيّها الفأر، أيّها الفأر

أعطني سنّاً جديداً، وسأعطيك السنَّ القديم.

وعندما يستقّر السّن في مكان مجهول فوق العشب ويختفي، ينظرون إلى الوراء ويدعونه سن الطفولة.

تلتقط الفئران الأسنان الحليبية وتجلس فوق البلاط الأبيض في الممرات أسفل الوحدات السكينة، لكنها لا تجلبُ أسناناً جديدة للأطفال.

تقع المدرسة في نهاية الشارع، أما في بدايته فثمّة كشك محطَّم للهاتف. أما الشرفات فمصنوعة من الحديد المموّج الصدئ وهي لا

تستطيع أن تحتمل أي شيء على الإطلاق، بما في ذلك زهور إبرة الراعي أو الغسيل المتحرك فوق الجبل أو زهور الكليماتس التي تنمو نحو الأعلى وتربط نفسها بالصدأ.

ليس ثمة أضاليا في هذا المكان، فهنا تُنهِكُ زهور الكيماتس الصيفَ الخاصَّ بها، فهي زرقاء ومخادعة. فحيث ما يوجد الحطام وينتشر الصدأ، تتكسّر وتتحّلل ولا تتفتح زهورها إلا في أجمل الأماكن.

تزحف زهور الكليماتس في بداية الشارع صوب كشك التلفون المحطّم وتتكّئ على الزجاج المكسور دون أن تتمزّق، وتلتف حول قرص الهاتف.

أرقام الهاتف في القرص عوراء وتبدو وكأنّها تتحدث مع نفسها عندما تذهب أدينا ببطء: واحد، اثنان، ثلاثة.

صيف فاتن في أثناء المسير، لكنّه صيف الجنود خلف السهل الممتد في الجنوب. يرتدي إيلّي زياً رسمياً ويضع في فمه أوراق عشب نمت في هذا الصيف، ويحمل في حقيبته الرسمية شتاء عبرت أيامه وصورة لأدينا. في السهل ثكنات وتلّة وغابة. وقد كتب إيلّي أنّ أوراق العشب التي في فمه، قطفها من فوق التلّة.

عندما ترى أدينا عشباً سامقاً، سرعان ما تفكر بإيلّي وتبحث عن وجهه. تضعُ إيلّي صندوق رسائل فوق رأسها، وعندما تفتحه، يكون فارغاً؛ لأن إيلّي لا يكتبُ رسائل إلا نادراً. وقد كتب ذات مرة يقول إنني عندما أكتب رسائل، أعرف المكان الذي أكون فيه. أما باول فقد قال إن المرء لا يكتب رسائل إلا عندما يشعر بأنّ أحداً يحبه وهو أَمرٌ

نادرُ الحدوث.

طالما بقيت نبتة الكليماتس خضراء، يظلّ في حجرة الهاتف رجل، ضيّق الجبهة إلى درجة أنّ الشعر قد بدأ للتو ينمو فوق حاجبيه. ونظراً لأن جبهته خالية، قال المارّون، ولأنّ دماغه من الخمرة ولأن الخمرة تتبخّر، فإنّه لا يبقى من دماغه شيء.

كان الرجل يستلقي وفردتا حذائه تقفان فوق الكعبين. وعندما يمر المرء به، فإنه يرى باطن قدمه. أما الحذاء فلا يراه. كان الرجل ثملاً ويتحدّث مع ذاته بصوت عالٍ. عندما لا يكون نائماً. يغذّ المارة خطاهم في هذا الموضع ويتجاوزون ظلالهم الممتدّة، ويمسكون بشعورهم وكأنها مليئة بالأفكار، ثم يبصقون بعيداً عن الممرّ أو العشب، لأنّ شيئاً من المرارة في أفواههم. وعندما كان الرجل يتحدث مع نفسه بصوت عال، كان المارة يشيحون بأعينهم جانباً، أما عندما كان ينام، فقد كانوا يدوسون بأطراف أحذيتهم فوق نعليه.

لم يرغب المارة يوماً في أن يعيدوا جثّه إلى الحياة، لكنهم كانوا يتمنّوْن على الدوام، أن يكون اليومُ، يومَه الأخير.

فوق بطن الرّجُل كانت زجاجة تتمدّد وأصابعه تُمسِكُ بفوهتها، وكان الرّجُل يمسك بالزجاجة بقوة، ولم يسمح لأصابعه أن ترتخي أثناء النوم.

قبل يومين ارتخت أصابع الرّجُل أثناء النوم، فسقطت الزجاجة. داست المرأة فوق نعلي الرّجُل. وبعد ذلك قدم أحد البوّابين من الوحدة السكنية المجاورة وتبعه طفل ثمّ شرطي. لم يتأوّه الرجل الموجود في

حجرة الهاتف وبدا أن لموته رائحة الخمرة.

رمى البوّاب زجاجات الميّت الفارغة فوق العشب وقال: إذا كان ثمة روح، فإنها تكون آخر ما ابتلعه المرء قبل موته، فكل ما لم تستطع المعدة أن تهضمه هو الروح. أطلق الشرطي صافرته في الشارع وأوقف عربة يجرها حصان. رمى الرّجُل السوطَ من يده ونزل من العربة ورفع الميت بين ذراعيه عالياً، في حين أمسك البواب بالحذاء. حمل الرجلان الجثة الهامدة تحت الشمس كما يحمل المرء لوحاً من الخشب، بعدها وضعا اللوح في العربة فوق رؤوس الملفوف الخضراء. غطىّ الرجل جثة الميّت بالغطاء الخاص بالحصان وتناول السوط، ثم ضرب الحصان وسار وهو يلوي فمه.

ظلت حجرة الهاتف تفوح بالخمرة، أما الريح فأخذت تصنع في الشارع، منذ يومين، صريراً مختلفاً. منذ تلك اللحظة أخذت زهرة الكليمانتس بالنمو، وصارت زرقاء اللون، في حين ظلت الأرقام العوراء موجودة في قرص الهاتف. اختارت أدينا رقماً وتخيّلت أنها تتصل به وظلت تتكلم من المكان الذي كان الميت يستلقي فيه وصولاً إلى نهاية الشارع.

قال الميت، إنني موجود على الطرف الآخر.

فقالت: أنت لست سوى جلد وعظم. ولست أكثر من جثة هامدة.

لا يّهم، أجاب، إنني إنسان كامل من شطرين هما: نصف ضال ونصف سكيّر.

فقالت: أرني يديك.

فقال: الخمر في فمي، والكونياك في معدتي، والعرق في دماغي.
رأت حذاءه، فالرجل يشرب وهو واقف.
توقّف الرجل، قالت المرأة. إنك تحتسي الخمرة عن طريق جبهتك، وليس لك فم.

في نهاية الشارع ثمة بكرة أسلاك كبيرة وصدئة. كان العشب أصفر حولها. خلف البكرة سياج، وراء السياج ساحة وثكنة خشبية. في الساحة كلب يجر قيدَه فوق العشب. ولم يسبق للكلب أن نبح على الإطلاق.

لا أحد يدري ما الذي يحرسه الكلب. ففي الصباح الباكر، وعند المساء، أي وقت حلول الظلام، يأتي رجال الشرطة، فيتحدثون مع الكلب ويطعمونه ويدخّنون دون انقطاع. يقول الأطفال الذين يسكنون في الوحدات السكنية إنّ عدد هؤلاء ثلاثة. وهم يعرفون ذلك لأن غرفهم لا تضاء بغير الشموع، لهذا فإنهم يرون ثلاث سجائر تشتعل أمام الثكنة الخشبية. تبعدهم أمهم عن النافذة. يقول الأطفال، إنّ الكلب يدعى أولغا وهو ذكر وليس أنثى.

يتأمل الكلب أدينا كلّ يوم، وقد كان العشب ينغمس في عينيه. تخاطبه أدينا كل يوم باسم: أولغا، حتى لا ينبح.
تحت شجر الحور، ثمة أوراق صفر تتوزّع فوق العشب.

شجرات الحور الموجودة قبل المدرسة عنيدة، فهي أكثر خضرة من كل أشجار الحور الموجودة في المدينة، حتى في شهر آذار. ولعل ذلك يعود، كما يقول المعلمون، لأن الأشجار قريبة من الحقل الموجود

وراء المدرسة، ولأن المدرسة تقع على حافة المدينة. أما في الخريف فإن أشجار الحور الخاصة بالمدرسة تغدو أكثر اصفراراً من كل أشجار الحور الموجودة في المدينة. حتى في شهر آب. ويرى المدير أن ذلك يعود لكون الأطفال، يبولون على جذور تلك الأشجار، مثلما تفعل الكلاب.

تصفر أشجار الحور نظراً لوجود المصنع الذي تقوم فيه النساء بعمل أواني الطبخ الحمراء ومشابك الغسيل الخضراء. تصاب النساء بالجفاف والسعال وتصفر أشجار الحور. ترتدي النساء العاملات في المصنع ملابس داخلية ثقيلة حتى في أثناء الصيف، إضافة إلى قطع خاصة بالركوع توضع على الساقين، وأربطة مطاطيّة. كما يقمن يومياً بإدخال الكثير من مشابك الغسيل داخل ملابسهن الداخلية حتى تنتفخ بطونهن وسيقانهن على نحو لا يسمح لمشابك الغسيل أن تصدر أصواتاً في أثناء الذهاب والمجيء.

في وسط المدينة وساحة الأوبرا يحمل أطفال هؤلاء النسوة مشابك الغسيل بعد أن يربطوها بالخيوط، ويضعوها فوق أكتافهم ويبادلوها بالجوارب والسجائر أو الصابون. أما في فصل الشتاء فتقوم النسوة بإدخال أواني الطهي مملوءة بالمشابك إلى ملابسهن الداخلية، فتحت المعاطف لا يراها أحد.

تُقرعُ الأجراسُ من خلال أشجار الصفصاف وصولاً إلى ساحة المدرسة. ولا أحد يتمشى في الساحة أو في الممرّات. والحصّة الدراسية لم تبدأ. يجلس الأطفال فوق عربة النقل الواقفة أمام السيارة وتحت أشجار الصفصاف ويسافرون إلى ما وراء المدينة، إلى الحقول البعيدة

التي تقع خارج المدينة حيث توجد البندورة الناضجة.

تلتصق بأحذية هؤلاء الأطفال حبات بندورة ممزّقة تعود إلى أمس وأمس الأول وإلى أسابيع، وإلى أخرى تتوزع بين الصباح والمساء. كما تلتصق حبات البندورة الممزقة هذه بحقائبهم وأعناق زجاجات الماء التي بحوزتهم، وجاكيتاتهم وقمصانهم وبناطيلهم، إضافة إلى بذور الحشائش المختلفة والأشواك الجافة.

تقول الأمهات عندما يعود الأطفال من الحقول، في وقت متأخّر من الليل، إن الأشواك الجافة، مخّصصة لمخدّات الموتى، فيرد الأطفال إنّ زيت المحّركات يفترس الجلد، لكنّ الأشواك تفترس العقل.

تداعب الأمهات شعور أطفالهن ويضربنهم على وجوههم ضرب مداعبة، ثم يتأملن عيونهم ويصمتن في أضواء الشموع. العيون مذنبة، لكنّ المرء يعجز عن أن يرى ذلك في ضوء الشموع.

يعلق التراب بشعور هؤلاء الأطفال، وهو ما يجعل رؤوسهم عنيدة وشعورهم مائلة، ورموشهم قصيرة وأعينهم حادّة. لا يتحدث الأطفال كثيراً وهم في عربة النقل، فهم ينظرون صوب شجيرات الحور، ويأكلون عدداً محدداً من الخبز الطازج. الثآليل لاذعة وهي تصنع حفرها في الحواف. يبدأ الأطفال بالتهام لُبّ الخبز، فهو أبيض وغير مخبوز تماماً، فالعجين الخامر داخله يتأثر بحرارة الفرن، لهذا يلتصق بالأسنان، والأطفال يمضغونه ويقولون إنهم يأكلون القلب. أما الحواف فإنهم يبللونها بلعابهم ويصنعون منها قبّعات وأنوفاً. بعد ذلك تشعر أصابعهم بالإرهاق أما الفم فلا يشعر بالشبع.

يغلق السائق باب السيارة الخلفي. ثمة زّر ناقص في قميص. مِقْود السيارة يمسّ سرّته. أمام الزجاج الكثير من الخبز، بالقرب من مِقْود السيّارة ثمة صورة لمغنية صربّية شقراء. يمّر المترو قريباً من السيارة ويتدحرج الخبز نحو الزجاج، فيلعن السائق أمّهات المترو كلها.

ليس ثمة وراء المدينة أيّ اتّجاه، فالقش المتّبقي من القمح بلا نهاية وهو يستمر إلى الوقت الذي لا تستطيع فيه العيون أن تبصر فوق أوراقها، سوى الشجيرات والغبار.

قال السائق: الحصّادة عالية وهذا أمر حسن، فعندما يجلس المرء في الأعلى، فإنّه يرى القمح وليس الموتى. عنق السائق مليء بالشعر، وحنجرته الواقعة بين قميصه وذقنه كالفأر الذي يتقافز. وقد قال أيضاً إن القمح هو الآخر عال، وأن المرء لا يرى من كلب الجنود سوى العينين، لكنّ القمح لا يبدو قصيراً إلا عندما يريد المرء أن يهرب. ارتكزت أدينا على ركبتها بقوّة، ففي طرف الحقل عصفور يترنح وهو يأكل الثمار البريّة من الغصن الأعلى في الشجرة، إنّه طائرة الحدأة، قال السائق.

ثم أضاف بأن المرء عندما يقول **حقل الله** فإنه يعني بذلك المقبرة. وقال: لقد عملت على الحصّادة ومرّ الصيّف عليّ ثلاث مرات وأنا على الحدود، وكنت وحدي في أثناء الحصاد، كما عملت مرّتين. في أثناء الشتاء في الحقل، ولم أكن أعمل إلا ليلاً. رائحة الحقل حلوة، وعلينا أن نُسمّي حقلّ القمح حقل الله. فالإنسان الجيّد هو بمثابة قطعة من الخبز، كما يقول المعلمون للأطفال في المدرسة.

يجلس طائر الحدأة الأحمر في الحقل، وكأنَّ بطنه قد انفجر من بقايا

الحصاد، فهو عاجز عن الحركة. ونظراً لأن بقايا الحصاد قاسية وفارغة، ولأن بطن الطائر طري، تتحول السماء في أثناء امتصاص الطائر لبقايا الحصاد إلى غيمتين بيضاويتين. يرتجف حاجب السائق، يجعل برقوق السياج كُراتٍ خضراءَ وزرقاء ولا يتراجع خوفاً من العجلات. قال السائق إنه لا يجب أن يُقال للأطفال بأن الإنسان لا يساوي قطعة خبز، فهم يصدقون ذلك ويتوقفون عن النمو، كما أنّه لا يجوز أن يقال ذلك للكبار، لأنهم يشعرون عندما يكذب الإنسان ويصبحون صغاراً كالأطفال، بأنّهم لا ينسون شيئاً على الإطلاق.

يتقافز عنق السائق بين ذقنه وقميصه وهو يقول: أنا وزوجتي لا نتحدث إلا عند المساء، بعد أن تعجز عن النوم. زوجتي تريد أن تكون مرتاحةً، لهذا لا تشتري الخبز. يضحك السائق وينظر نحو الحقول ويقول: لأن هذه الحفر في الطريق، فأنا الذي يقوم بشراء الخبز. فنحن نأكل ونتذوق الطعام، وكذا الحال بالنسبة لزوجتي، فهي تأكل وتبكي وتزداد سنّاً وسمنة. إنها أفضل مني، ولكنْ من حاله أفضل هنا؟ وعندما تكاد عيناها تخرج من رأسها، فإنها تتقيأ بدلاً من أن تصرخ. أدخل السائق قميصه داخل بنطاله، وهو يقول، إنها تختنق بصمت، كي لا يسمع الجيران أي شيء.

توقّفتْ سيارة النقل في الحقل، فقفز الأطفال على العشب. كان العشب كثيفاً لدرجة أن سيقان الأطفال غاصت فيه. طنين الذباب يعلو من صناديق البندورة الفارغة، وكان للشمس بطن حمراء، أما حقل البندورة فهو يمتد إلى الوادي.

ينتظر المهندس الزراعي بالقرب من الصناديق، ينحني ويتفحّص ساقيْ بنطاله بعد أن مر بالعشب الشوكي، بينما ربطة عنقه تطير أمام فمه. يلتقط المهندس الإبر الشوكية ويجمعها في يده، فقد علقت هذه الأبر بالكمّين والظهر وهي تنتقل بسرعة نحو الأعلى، قبل أن يستطيع الإمساك بها. لهذا يلعن المهندس أمهات الأعشاب. ينظر المهندس في ساعته التي يتوهّج وجهها تحت الشمس وبين الأعشاب الشوكية. وعندما تلمع الشمس، تبدو جشعة، ولا تخجل من أن تتمدّد بالطريقة التي تراها مناسبة، فهي تتعلق في الريح، وعندما لا تكون موجودة في الحقل، فإنها تنمو بين الغيوم وعندئذ يمتلئ العالم بالأعشاب الشوكية.

يتجّه الأطفال نحو صناديق البندورة، بينما يتجمع الذباب فوق الثآليل، وهي ثملة من البندورة، لهذا تراها تلمع وتلسع. يرفع المهندس الزراعي رأسه ويغلق عينيه ويصرخ:

أقول للمرة الأخيرة، أنتم هنا من أجل أن تعملوا، ففي كل يوم تبقى حبّات البندورة الناضجة معلّقة، بينما تقومون بقطف الحبات الخضر، أما الحبات الحمر فيتم دوسها والمشي عليها. كانت إبرة شوكية قد علقت في زاوية من زوايا فمه، وكان المهندس يبحث عنها، لكنه لم يجدها، لهذا صرخ قائلاً: إنكم تضّرون الزراعة أكثر مما تفيدونها وهو ما يشكّل فضيحته لمدرستكم. عثر المهندس الزراعي على الإبرة الشوكية بطرف لسانه، فبصقها وقال: خمسة عشر صندوقاً في اليوم هذا هو المعيار، لا يصح أن نمضي اليوم ونحن نشرب الماء، لنأخذ استراحة في الثانية عشرة، مقدارها نصف ساعة، ثم نأكل ونشرب ونذهب إلى المرحاض. في شعر

المهندس الزراعي كانت تعلق أجمة من الأشواك.

يذهب الأطفال إلى أقاصي الحقل وصناديق البندورة الفارغة تتأرجح بين أيديهم، بمقابضها الزلقة جرّاء البندورة المسحوقة، أما شجيرات البندورة فخضراء، فهي مملوءة باللون الأحمر، بما فيها الغصون الصغيرة.

كانت الثآليل تمتلئ بالدم أثناء القطاف، فحبات البندورة تفتن العيون، كما أن الصناديق عميقة وعصيّة على الامتلاء. كان العصير الأحمر يتحدّر من أفواه الأطفال، وكانت حبّات البندورة تطير فوق الرؤوس وتستقّر وتصبغ أجمة الأشواك.

غنّت إحدى الفتيات:

سرت في أحد الممرات نحو الأعلى

والتقيت صبيّة عذراء في الأسفل.

كانت الصبيّة تضع ضفدعاً في جيب بنطالها، وقد قالت إنها ستأخذه معها إلى المنزل، وكانت الصبية تغلق جيب بنطالها في تلك الأثناء. أخبرتها أدينا بأن الضفدع سيموت. ضحكت الفتاة وهي تقول: غير مهم، غير مهم. كان المهندس الزراعي ينظر نحو السماء ويمسك ضمة شوك بيده، ويترنم بالأغنية التي سبق للفتاة أن غنّتها. يجلس شابان فوق صندوقي بندورة نصف مليئين، إنهما توأمان، وليس في وسع أحد أن يميز بينهما، إنهما شاب يتكرّر مرّتين.

يخبّئ أحد التوأمين حبتي بندورة ضخمتين تحت قميصه، أما الآخر فيُربّت على حبة بندورة بيديه، وهو يحني أصبعه ويسحق حبة البندورة داخل قميصه وينظر بعينين فارغتين إلى الفتاة ذات الضفدع.

يحمّر القميص وتضحك الفتاة ذات الضفدع. يشتبك التوأمان وهما مستلقيان على الأرض. تمد أدينا يدها نحوهما وتسحبهما وتسأل: أيهما بدأ العراك أولاً؟ تهز الفتاة ذات الضفدع كتفيها.

ربطة عنق

عدّل سائق الدّراجة الهوائيّة مسار درّاجته بيده ووضعها بالقرب من الممّر؛ لأن سلسلتها تشابكت. يمرّ راكب الدراجة الهوائية بالموقف ويتجّه صوب الجسر.

يجيء الرجل الذي يرتدي ربطة العنق الزرقاء–الحمراء المنقّطة من جهة الجسر، يضع سيجارته البيضاء الطويلة إلى جوار ركبته، فيلمع خاتم الزواج إلى جوار فيلتر السيجارة. ينفخ الرجل دخان سيجارته صوب الأجمة والموقف، وفي أثناء النفخ تترنّح خطواته بسبب ما يشعر به من خوف. ثمة شامة بحجم ظفر الأصبع بين أذنه وياقة قميصه.

بقي راكب الدراجة واقفاً، وأخرج سيجارة من جيب بنطاله. ولم يقل شيئاً، لكنّ الرجل رفع سيجارته البيضاء الطويلة وأشعلها. بصق راكب الدراجة الدخان من فمه. بينما كانت النار تلتهم طوقاً أحمر وهي تجيء على نهاية السيجارة. ينفخ راكب الدّراجة الدخان من فمه ويدفع دراجته إلى الأمام.

في الموقف تصّدع أحد الأغصان، أدار راكب الدراجة رأسه فلم يكن سوى شحرور في الظلال، اعتاد أن يقفز عندما يرغب في الطيران. حرك راكب الدراجة دراجته ونفخ دخان سيجارته في الموقف.

يقف الرجل الذي يرتدي ربطة العنق الزرقاء–الحمراء المنّقطة على مفترق الطرق، الإشارة الضوئية حمراء. وقد قرر أن يسرع عندما يصبح

لونها أخضر، فكلارا تقوم بقطع الشارع.

تقف كلارا أمام معاطف الفراء في المحل. بينما تخترق عينا الرجل نافذة العرض. يرمي الرجل سيجارته التي لم يدخن سوى نصفها، فوق الإسفلت، وينفخ خيوط الدخان صوب المحل.

يدير الرجلُ المِشْجَبَ الذي تجمع ربطات العنق فوقه. معاطف الفراء مصنوعة من جلود الخراف البيضاء. ليس ثمة سوى معطف واحد أخضر، وكان المعطف قد التهم المرعى بعد خياطته. ستكون المرأة التي تشتريه لافتة للأنظار في فصل الشتاء، وستتقدّم صوب الصيف وهي تخطو بأقدامها فوق الثلج.

يحمل الرجل الذي يرتدي ربطة العنق، الزرقاء–الحمراء المنّقطة ثلاث ربطات ويتجه صوب النافذة، وهو يقول، هنا تبدو الألوان مختلفة، ويتساءل: أيّها أكثر مناسبة لي يا ترى؟ تضع كلارا أصبعها أمام فمها وتقول: لكَ أمْ للبدلة؟ يجيب الرجل: بل لي. فترّد كلارا ويدها تَجُسّ ياقة المعطف الخضراء بقوة: لا تناسبك أية ربطة منها، فالربطة التي ترتديها أجمل. كان حذاء الرجل لامعاً وذقنه ناعمة وفوق شعر رأسه فَرْق كالخط الأبيض. مدّ الرجل يده مصافحاً وهو يقول: باؤل، لكنه ضغط على أصابع كلارا بدلاً من أن يهزّ يدها. فذكرت كلارا اسمها وهي تنظر إلى عقرب الثواني في ساعة الرجل. بعدها نظرت كلارا إلى أظفر إبهامه ثم إلى كيّ ملابسه. احتفظ الرجل طويلاً بيدها تحت إبهامه وهو يقول: **مُحامي**. كان ثمة رف فارغ خلف رأسه، كانت بصمات الأصابع تظهر على الغُبار فوق الرّف. قال باؤل: اسمك جميل

وملابسك أيضاً. فقالت كلارا: هذه الملابس ليست من هنا، إنها من امرأة يونانية.

عيناها فارغتان، ولسانها حاد، تنظر صوب الغبار فوق الرّف، وترى أنّ الظلام يحل في المحل، بينما الجوّ مشرق في الشارع. وأنّ وقت الظهر المتأخر يتقاسم الضوء بين الداخل والخارج. وهي تريد أن تذهب وهو يحتفظ بيدها. تشعر أنّ في حلقها دراجة صغيرة، لامعة، تتحرك، وهي تسير إلى جانبه عبر الباب، ثم تعرف عندما تصبح خارج المحل، أين تلقي الشمس بظلالها الخفيفة، وإذا ما كانت الدّراجة اللامعة هي أمنيتها بعد معطف الفراء الأخضر أو بعد أن التقت بالرجل ذي الربطة الزرقاء الحمراء المنقّطة. لكنّها تشعر، في الواقع، أن الدّراجة في حلقها، أما عندما تستدير صوب المعطف الأخضر، فإنها تظل متعلّقة بهذا الرجل.

على درجات الكاتدرائية تجلس امرأة عجوز، ترتدي المرأة جوارب صوفية ثقيلة، وتنّورة لها طيات عديدة وبلوزة قماشية بيضاء. إلى جوارها سلّة من الخوص، عليها منديل رطب. رفع باۤذل المنديل. الزهور السامة التي تظهر في نهاية الخريف، الأصبع الرقيق، الانتظار في الصفوف وصولاً إلى الزهور المربوطة هناك بخيط أبيض، تحتها منديل وزهور ومنديل آخر، طبقات متعددّة من الزهور والمناديل والخيوط. تناول باۤذل عشر باقات من السلة قائلاً: باقة لكل إصبع. سحبت العجوز خيطاً من البلوزة، فظهر كيس النقود. رأت كلارا حلمات ثدييها اللتين كانتا معلقتين كالبراغي في جلدها. كانت رائحة الزهور في يد كلارا شبيهة

برائحة الحديد والعشب، فعلى تلك الشاكلة تكون رائحة العشب بعد المطر خلف ساحة مصنع الأسلاك.

عندما يرفع باؤل رأسه، يضيع الرصيف من عدسات نظارته الشمسية. فوق سكة حديد الترام ثمّة بطيخة وفوق سكة حديد الترام تم دهسها، تلتهم العصافير لبّها الأحمر، عندما يضع العمال طعامهم على طاولاتهم، تلتهم العصافير الخبز، تقول كلارا وهي ترى نوم باؤل في زجاج نظارته الذي تنعكس الأشجار البعيدة فيه. يراها باؤل من خلال هذه الأشجار البعيدة، وهو يقوم بإبعاد أحد الدبابير عنه ويتحدّث.

حسناً، قالت كلارا، ما الذي تعرفه، وما هو الجميل في أي مصنع؟

يربط باؤل حذاءه في السيارة، في حين تشمّ كلارا رائحة الزهور السامّة. تتحرك السيارة في شارع مكوّن من التراب، يشتعل أحد صناديق القمامة. ثمة كلب يُقعي في الشارع، يطلق باؤل زامور السيارة، فيتنحّى الكلب ببطء ويستلقي فوق العشب.

تمسك كلارا بالمفتاح في يدها، يمسك باؤل بيدها ويشم رائحة الزهور. فتشير إلى النافذة وتقول إنها لم تتمكّن من رؤية عينيه. يمسك باؤل إطار نظارته، فترى خاتم الزواج الخاصّ به، لكنه لا يخلع نظارتيه.

أحشاء الصيف

تخلو ساحة الأوبرا من أشجار الحور، ففي تلك الساحة لا تظهر المدينة وعليها الخطوط، ولكنها تبدو ملطخّة عبر حركة المترو التي لا تنقطع ذهاباً وإياباً.

يحتفظ شجر الطقسوس، الصنوبري الطابع، بإبره على نحو متقارب في الأعلى، وهذه الأشجار تغلق السماءَ وساعة البرج الموجود في الكاتدرائية في وجه العشب الداخلي. وعلى المرء أن يقطع الإسفلت قبل أن يتمكّن من الجلوس على المقاعد الموجودة قبالة ذلك الشجر. وراء المقاعد تساقطت الإبر أو هي لم تنمُ على الإطلاق، فوراء المساند الخلفيّة للمقاعد ظلَّ الخشبُ الداخليُّ مفتوحاً.

فوق المقاعد رجال متقدمون في السّن، يبحثون عن الظلال، فشجر الطقسوس مخاتل، فهو يحتفظ بظلال المترو بحيث تبدو وكأنها ظلاله، لكنْ هذه الظلال سرعان ما تتلاشى عندما يجلس الرجال المتقدمون في السن فوق المقاعد. يقلّب هؤلاء الرجال الجريدة وتظهر الشمس بين أيديهم، ومن خلال الزهور المتنامية الصغيرة فوق ناصية الديكتاتور المنشورة في الجريدة. يجلس الرجال المتقدمون في السّن وحيدين لا يقرأون.

يحدث أنْ يسألَ أحدُ الذين لم يتمكّنوا بعدُ من العثور على مقعد، واحداً من الجالسين، ماذا تفعل هنا، فيحرّكُ الجالسُ الهواء أمام وجهه ويضع يديه على ركبتيه ويهز كتفيه. فيتساءل المارّون: أتجلسون

وتفكرون، فيشير عندها الجالس إلى زجاجتي حليب فارغتين وهو يقول: لا شيء غير الجلوس. فيرد المار، غير مهم ثم يهز رأسه ويمضي، فيفعل الجالس مثله ويأخذ بتتبع خطواته.

فأرة النجار واللوح الخشبي يمرّان أحياناً من خلال رؤوس الرجال المتقدمين في السّن، ويستقرّان في الصدغين بالقرب من شجر الطقسوس، على نحو يصعب فيه تمييز خشب تلك الآلة والخشب الداخلي للشجرة. كما يصعب فيه التمييز بين الطابور في المحلّ الذي لا يكفي الحليب الموجود فيه، كما أنّ كميّة الخبز محدودة.

في الساحة هناك خمسة من رجال الشرطة يضعون قفازات بيضاً في أيديهم ويتابعون خطوات المارة من خلال صافراتهم. ليس للشمس عتبة، فعندما ينظر المرء وقت الظهيرة صوب شرفة الأوبرا البيضاء، يسقط الوجه كلّه في الفراغ. تتلألأ صافرات رجال الشرطة، بينما تتكوّر بطون الصافرات بين أيديهم. انحناءات الصافرات عميقة، بحيث يبدو الأمر وكأن كلّ شرطي يضع في فمه ملعقة بلا مقبض. كان لباسهم الرسمي أزرق غامقاً ووجوههم شابة وشاحبة. أما وجوه المارة فهي منتفخة من الحرارة.

يظهرُ المارة وكأنّهم عراة في هذا الضوء. تحمل النساء الخضروات في حقائب بلاستيكية شفافة وينقلنها من السوق مروراً بالساحة. بينما يحمل الرجال زجاجات. وكل من يسير بيدين فارغتين دون أن يحمل خضاراً أو فواكه أو زجاجات، يُزيغ البصر. أما من يُبصر الفواكه والخضار في حقائب الآخرين البلاستيكية الشفافة فهو بمثابة من يرى

أحشاء الصيف. فالبندورة والبصل والتفاح هي تحت أضلاع النساء، أما الزجاجات فتحت أضلاع الرجال. وفي منتصف الشرفة البيضاء، تكون العيون فارغة.

الساحة مغلقة وحافلات المترو تصطف وراء أشجار الطقسوس. عبر الشوارع الضيّقة الواقعة خلف الساحة تتقدم موسيقى حزينة، أما السماء فهي تحيط بالمدينة. يضع الرجال والنساء حقائبهم البلاستيكيّة الشّفافة بمحاذاة أحذيتهم. تسير عبر الساحة سيارة نقل قادمة من شارع ضيّق، تتدّلى فتحات السيارة الجانبيّة وعليها قطعة حمراء من القماش الذي تُصنع منه الرايات. تصمت صفّارات رجال الشرطة، فعلى طرفي كميّ السائق تلمع أزرار بيضاء.

فوق العربة ثمة نعش مفتوح.

شعر الميّت أبيض، وجهه مجّوف، فمه أكثر عُمقاً من تجويف عينيه، وعلى ذقنه يرتجف سرخس أخضر.

يتناول رجل زجاجة عرق من الحقيبة البلاستيكية، يشرب ويرى بإحدى عينيه العرق وهو يسيل من فمه ويرى بالعين الأخرى زيّ الميت الرسمي، وقد حكى الرجل بأنّ أحد الضباط، في أثناء خدمته العسكرية، قال له إن الضباط الموتى يتحولون إلى نصب تذكارية. تناولت المرأة الموجودة إلى جواره حبة تفاح من الحقيبة البلاستيكية، عضّتها وتأملت بإحدى عينيها وجه الميت، وبالعين الأخرى الصورة الكبيرة للميت الموضوعة خلف النعش، ثم قالت إنّ الوجه في الصورة هو أصغر بعشرين عاماً من الوجه الموجود في النَعْش. وضع الرجل

زجاجة إلى جوار حذائه وقال إنّ الميت الذي يبكيه الناس كثيراً يغدو شجرة، أما الميت الذي لا يبكي عليه أحد فإنه يغدو حجراً. لكنّ المرأة قالت إنه عندما يموت أحد في مكان ما من العالم، فإن البكاء عليه لا يجدي، وسيتحول إلى حجر.

وراء صورة الميّت ثمة وسادة مخملية حمراء، عليها أوسمة الميّت ونياشينه، وخلف الوسادة امرأة ذابلة تتكئ على ذراع رجل شاب، وخلف تلك المرأة الذابلة فرقة عسكرية. تلمع آلات الموسيقى الهوائية، ويسهم النور الذي ينعكس عليها بتكبيرها. خلف الفرقة الموسيقية يسير المعزّون بخطى متثاقلة، تحمل النساء زهور الجلاديولا ملفوفة بورق السولوفان، بينما يحمل الأطفال الزنابق ونباتات أيلول المتفتّحة.

يسير باؤل بين المُعزّين

على حافة الميدان، حيث شرب الرجل زجاجة العرق، ثمة زجاجة فارغة وإلى جانبها تفاحة أُكِلَ نصفها، تُعزَفُ الموسيقى الجنائزية بهدوء في الشوارع المتعرّجة. تقع مقبرة الأبطال خلف المدينة. في الميدان ثمة زهور جَلاديولا متناثرة هنا وهناك، وعربات المترو لا تهدأ عن الحركة.

يسير الرجال الكبار في السن عبر الأماكن الفارغة، وتتدحرج زجاجات الحليب الفارغة، الخاصّة بهم، ثم تتوقف دونما سبب. في الأعلى وضعت الشرفة البيضاء الخاصة بالأوبرا أعمدتها في ظلال الريح. أما الحفر الموجودة فوق الإسفلت الطري، فهي تعود إلى الأحذية ذات الكعوب العالية الخاصة بالنسّاء المعزّيات.

أيّام البطيخ
أيّام القرع

في المرحاض لفة قطن طبيّ ضخمة أما الماء فهو صدئ، امتصت لفة القطن الدم. فوق مقعد المرحاض تلتصق بذور البطيخ.

عندما تضع النساء لفائف القطن بين أرجلهن، يكون عصير البطيخ في بطونهن، وهو ما يبعث على الألم.

في وُسْع كلّ امرأة أن تشّد كلَّ رجلٍ إليها عن طريق عصير البطّيخ؛ ففي مصنع الأسلاك تحكي النساء كيف يخلطن مرّة في الشهر البطيخ بحساء البندورة. في ذلك اليوم لا تضع النساء طنجرة الحساء فوق المائدة. بل يتناولن الصحون واحداً تلو الآخر، بينما تكون الملعقة في عصير البطيخ، فيسكبن منه ملعقة في الحساء، ويحركّنه حتى يختلط مع الحساء ويذوب فيه.

في أيّام البطيخ يتّحرك السلك المشبوك فوق وجوههن، قبل أن ينضّم إلى البكرة الكبيرة ويصبح قياس طوله بالأمتار على نحو دقيق ممكناً. يبدأ ضجيج الأنوال وأيادي النساء صدئة وأعينهن مظلمة.

تربط النساءُ العاملاتُ في الشركة الرجالَ أوقات الظهر المتأخّر وعند المساء، كما تقول كلارا، لأنهنَّ لا يملكن الوقت صباحاً، فهن يستيقظن ويتركن الرجال عند الصباح وهن يحملن معهن إلى المصنع سريراً مليئاً بالنوم، وغرفةً عابقة بهواء خانق يلفح وجوههن.

قالت ابنة الخادمة إنّ من الممكن ربطُ الرجال صباحاً؛ لأنّ معداتهم

تكون خاوية، في تلك الأوقات، ففي الأيام التي تحرك فيها زوجة الضابط القهوة صباحاً قبل أن يذهب زوجها إلى الكازينو العسكري، فإنّها تضع في القهوة أربع كِسَر من عصير البطيخ. وهي تُعدّ القهوة لزوجها دون أن تضع السكرّ فيها، «فهي تعرف أنه يضع ملعقتي سكرّ في فنجانه وأنه يحرّك السكر طويلاً. تذوب كِسَرُ البطيخ أسرع من السكر. وقد قالت السيّدة لابنة الخادمة، بأن أفضل أنواع هذا العصير، هو العصير في اليوم التالي. تتبّدى آثار عصير البطيخ، على الرغم من كون الضابط يحتسي الشراب طيلة النهار في الكازينو العسكري، في خطواته وهو يسير فوق الجسر. وقد خصّصت زوجته أربع كِسر لكلّ شهر، بمعدل كسرة واحدة في الأسبوع.

قالت زوجة الضابط بأنّه لا ينبغي أن يتجاوز طولُ كسرة البطيخ إبهامَ الرجل الذي تريد المرأة أن تربطه بها، فعصير البطيخ يذوب في القهوة ويتخثر ثانية وهو يجري في حلق الرجل، فالعصير لا يمر بالقلب ولا يصّب في المعدة.

إنّ رغبة الضابط لا تستطيع أن تأسر عصير البطيخ، صحيح أنه لا شيء يمكن أن يقف في وجه الرغبة، لأنها تطير وتستطيع أن تتملص من كل شيء، وصحيح أيضاً أنّ الرغبة تطير صوب نساء أخريات، لكنّ عصير البطيخ يبقى في قلب الرجل، فهو يتخثر ويعلق فيه كما أنّ قلب الرجل لا يستطيع أن يحتفظ بصورة امرأة أخرى. كما تقول ابنة الخادمة، ففي وسع الضابط أن يخدع زوجته، لكنه لا يستطيع أن يفارقها.

كُتبَ على حائط المرحاض:

فوق التلّة عند المساء
تُقرع الأجراس بألم

إنهما بيتان من قصيدة؛ القصيدة موجودة في كتاب مدرسي يتعلمه الأطفال في المدرسة. إنّه خط معلم الفيزياء، قالت ابنة الخادمة، فأنا أعرفه من طريقة كتابته لحرفي التاء والجيم. كانت السطور مكتوبة على جدار الحائط على نحو مائل.

تندفع السخونة، وقد جرى إغلاق باب المرحاض. تضغط أدينا بمرفقيها، لأنها تريد أن تجعل الاندفاع هادئاً ومعتدلاً. فوق الشطافة توجد نافذة صغيرة بلا لوح زجاج، لكنّها مغطّاة ببيت العنكبوت وإنْ كان البيت يخلو من العنكبوت؛ لأنّ صوت المياه القادم من النياغرا يُقصيها بعيداً، فلا يتبقّى فوق الجدار سوى بقعة ضوء، بحيث يكون في وسع الجميع أن يرى كيف تمزق الأيدي الصحيفة حتى يغدو الخط شبيهاً بالدقيق، فأوراق الصحيفة الممزّقة لا تخدش الساقين.

تقول عاملة التنظيف إن مرحاض المعلّمين يخلو من ورق التواليت، لأنّه سبق وضع لفّة من ذلك الورق في المرحاض لمدة ثلاثة أيام على التوالي وتمّ سرقة تلك اللّفات الثلاث، وكان من المفترض أن تكفي اللّفات مدة ثلاث أسابيع.

أما المدير فقد قال في أثناء الاجتماع إنّ الكثير من كيزان الذرة وأوراق البنجر كان يتوفر في النظم البرجوازية التي تقوم على نظام الملكيّة وأنه لم يكن لدى كبار المُلّاك سوى أوراق الجرائد. أمّا اليوم، فإن الجميع يمتلكون أوراق الجرائد في منازلهم، ومع ذلك تبدو هذه

الأوراق غير ناعمة للرجال والنساء الناعمين. ثم مزّق المدير زاوية الصحيفة وسحق الورقة بين يديه وقال إنها سهلة كعملية غسل اليدين. ثم قال وحاجباه يتجمّعان فوق أنفه، فيظهران خفيفين ورماديين مثل ذيل الفأر فوق جبينه: من لم يتعلّم ذلك وقد بلغ سنّ الثلاثين، فعليه أن يتعلّمه.

ابتسمت عاملة النظافة واحتكّتْ بالكرّسي وعندما نهضت، شاهدت المدير تحت الطاولة، فقالت: إنّ الجميع يمتلكون الصحف في منازلهم، لقد نسوا أيّها الرفيق المدير، كانت أوراق البنجر ناعمة تماماً، بحيث ينزلق الأصبع فوقها، يكفي! قال المدير، وإلّا فلن نصل إلى نهاية.

لمستْ ابنةُ الخادمة أدينا بقدمها وقالتْ إن عاملة النظافة قادرة على أن تبيح لنفسها أن تتخطىّ كل الحدود، فالمدير ينام معها. كان زوجها الذي يعمل كهربائياً يوم أمس في المدرسة. وقد بصق على طاولة المدير وشدّه من بدلته فقطع زريّنْ من أزرارها، تدحرجا تحت الخزانة. وعندما غادر الكهربائي كان يتوجب على معلّم الفيزياء أن يُبعد الخزانة عن الحائط، وأن يذهب في منتصف الحصة إلى المخيطة ليجلب خيطاً وإبرة. ولم يسمح له المدير بأن يأخذ معه الجزء السفلي من السترة، بل كان على عاملة التنظيف، كما قال المدير، أن تتولّى بنفسها الخياطة.

كان مسموحاً لعاملة النظافة أن تُمزّق الصفحات الأخيرة من الصحيفة التي تحوي، في العادة، الريبورتاجات، والصفحات الرياضية وبرامج التلفزيون، كما كان عليها أن تسلّم الصفحات الأولى للمدير، لتضاف هذه الصفحات إلى العيّنات التي يجمعها سكرتير الحزب.

سحبت أدينا النياغرا. أمام المرآة، في المرحاض، كان ثمة ضوء ينتظم شعر أدينا، وكان شعرها معلّقاً بالضوء لا برأسها. فَتحتْ أدينا صنبور المياه. انفتح مزلاج باب المرحاض، وخرج المدير منه. وقف المدير إلى جوار أدينا أمام المرآة وفتح فمه وقال: أظنّ أنّ أسناني تؤلمني. فقالت أدينا، صحيح أيها السيّد المدير، فقال وقد بدت أسنانه الخلفية المذهبّة: **الرفيق المدير**. عندها لمعت أسنانه الخلفية باللون الأصفر. فكرّت أدينا بأنّ أيام البطيخ عند الرجال هي أيام القرع. نظّف المديرُ فمه بمنديل مكوي مثلّث وقال لأدينا: تعاليْ إلى مكتبي بعد انتهاء الحصة الأخيرة، ثم أزال بقوة شعرة عن كتفها في تلك الأثناء فردت أدينا: أجل أيّها الرفيق المدير.

تلمع ذؤابة الشعر فوق اللوح، مثلما يتألق السواد في العينين الذي يحيط بالضفيرة التي تسقط من خلال النافذة. يحرك الأطفال أكواعهم أثناء الكتابة. عنوان المقالة: **قطف ثمار البندورة**. تقف أدينا إلى جوار خيط الضوء عند النافذة، يكبر حقل البندورة في الدفاتر، إنه حقل مكون من الثآليل والحروف الهجائية.

قرأت الفتاة ذات الضفدع الشجري:

منذ أسبوعين وطلاب مدرستنا يساعدون الفلّاحين في الحقول. كما يساعد طلاب صفنّا في جني ثمار البندورة. إنّه جميل أن نعمل في حقول آبائنا. وهذا العمل صحّي ومفيد.

أمام المدرسة مسطحٌ رباعي الزوايا من العشب الأصفر، وخلفه بيت وحيد يقع بين الوحدات السكنية. رأت أدينا زهور الكركم فوق سطح

المنزل. كانت الحديقة تقع بين الوحدات السكنية والحائط. وكانت الكروم تنمو على إطار النوافذ.

عندما استيقظ في الصباح، تقرأ الفتاة ذات الضفدع الشجري، لا أرتدي الزي الرسمي، بل لباس العمل. ولا آخذ معي الدفاتر والكتب، بل أتناول زجاجة ماء وقطعة خبز وحبة تفّاح.

صرخ أحد التوائم: زُبْدة وضرب بقبضة يده على المقَعْد.

وقفت أمام المنزل الذي يوجد نبات الكركم فوق سطحه، عربة يجرها حصان ونزل منها رجل يرتدي شبكة مليئة بالخبز وسار عبر حديقة المنزل ثم سار خلف الكروم، على مقربة من الجدار.

في حوالي الثامنة يتّجمع الطلبة كلّهم أمام المدرسة، وتقرأ الفتاة ذات الضفدع الشجري. سنركب السيارة ونذهب إلى الحقول. وعندما نسافر نضحك كثيراً. وفي كل صباح ينتظرنا المهندس الزراعي عند حافة الحقل. وهو طويل ونحيف، ويرتدي بدلة وله يدان جميلتان ونظيفتان، كما أنه رجل ودود.

إنّه لم يصفعك إلّا يوم أمس، قال التوأم، والحصان يقف أمام العربة الفارغة دون أن يتحرك، فقالت أدينا: لماذا لم تقم بالكتابة؟

حنى التوأم الآخر رأسه أسفل المقعد، وقال إنه لا يجوز للمرء أن يكتب عن الصفعة، وقد فعل ذلك وهو يرفع قرصاً من الخبز المدهون بالزبدة في يده ويلصقه فوق المقالة.

مزّقت الفتاة ذات الضفدع الشجري شريطاً أبيض من ضفيرتها، وأدخلت نهاية الضفيرة في فمها وبكت.

سار الرجل وهو يحمل شبكة خبز فارغة نحو شجرة الكرمة ثم صعد إلى عربة الحصان. فوق العشب الموجود قبل المدرسة ثمة قزم يلّمع قميصه الأحمر وهو يحمل بطيخّة.

يا رفيقة، قالت الفتاة ذات الضفدع البشري مخاطبة أدينا.

فوق باب المدير ساعة حائط، ترصد عقاربُها حركةَ الطلبة والمعلّمين، جيئة وذهاباً وفوق رأسه تم تعليق الذؤابة والسواد في العينين وعلى السّجادة بقعة حبر وفي الواجهة الزجاجية خطب الديكتاتور. قال المدير لأدينا ورائحة العطر والدخان تفوح منه وإلى جوار ذراعيه أضاليا وضعت على نحو معكوس: أنت تعرفين لماذا ناديتك، إن الماء في المزهرية عكر. كلا. قالت: أدينا أنا لا أعرف ذلك.

تجمّع حاجباه على نحو رقيق ومادي وقال مخاطباً أدينا، لقد قلت للطلبة إنّ عليهم أن يأكلوا ما يستطيعون من البندورة؛ لأنّ من غير المسموح لهم أن يأخذوها إلى المنزل.

بدت فوق الأضاليا بقعة غبار. ليس الأمر كذلك يا رفيقي المدير. قالت أدينا بصوت خفيض. خطا المدير نحو بقعة الحبر ووقف وراء كرسي أدينا. كان نفسه جافاً وقصيراً، أدخل يديه داخل بلوزتها من الفتحة الأمامية، وجعل يديه تبحران في ظهرها، وقال: **لا تخاطبيني بالرفيق**، فليس هذا وقت مثل هذا الكلام.

بقي ظهرها متصلباً ولم يَحنْهِ شعورُها بالاشمئزاز، فقالت: أدينا: ليس فوق ظهري ثآليل، ضحك المدير وقال: حسناً. أرجعت أدينا ظهرها إلى الكرسي، فأخرج المدير يده من بلوزتها وقال: لن أبّلغ

عنك هذه المرّة. مسّت الأضاليا أذنه فقالت أدينا: ولكنْ من يصدقك؟ وكانت ترى في أوراق أضاليا الحمراء عصير البطيخ. فقال المدير: أنا لست على هذه الشاكلة. وكانت رائحة عرقه تفوق رائحة الدخان المخلوط بالعطر. ثم أخذ يمشّط شعره، وبدا أنّ لمشطه أسناناً زرقاء.

القطّة والقَزَم

بين لفّات الأسلاك الصدئة في ساحة المصنع تتحرك الرؤوس بالتتابع. ينظرُ البّواب صوب السماء، فيرى مكبّر الصوت إلى جانب البّوابة.

يبثّ مكبّر الصوت في الصباح، ما بين السادسة والسابعة موسيقى، إنّها أناشيد العمال، التي اعتاد البّواب أن يسّميها: الموسيقى الصباحيّة. وهي للبّواب بمثابة الساعة، فكلّ من يعبر البوابة بعد أن تصمت الموسيقى يكون قد قدم متأخراً إلى العمل. وعندما لا تكون الخطوات في أثناء المشي متناسبة مع الإيقاع، أو عندما يقوم أحد العمال في أثناء فترة الصمت بِتركْ الساحة والتوجّه إلى النول الخاص به، فإنّ اسمه يُسّجل ويتمّ الإبلاغ عنه.

يكون الظلام لمْ ينقشع بعد، عندما تعلو أصوات الأغاني ذات الإيقاع العسكري، تصطدم الريح في الأعالي بالحديد المتموج ويرتطم المطر في الأسفل بإسفلت الشارع، ترتدي النساء جوارب مُدبّبة ويضع الرجال ما يشبه المزاريب فوق قبعاتهم. ينقشع الظلام في الخارج، أما لفّات الأسلاك فتكون مبلّلة منذ الليل وتكون سوداء كذلك. وهذا ما يحدث في فصل الصيف، فالنهار في المصنع يحتاج كي يطلع إلى وقت يزيد على الوقت الذي يحتاجه خارجه.

يبصق البواب بذور زهرة عباد الشمس الفارغة من فمه فترة بعد الظهر، فتسقط البذور فوق الأرض وعلى العتبة تحديداً. تجلس البوابة في المنزل وهي تحيك. للبّوابة فجوة بين أسنانها، وهي ترتدي معطفاً

أخضر وتحصي الغُرز التي تحيكها بصوت عال من خلال تلك الفجوة. وإلى جوارها يُقعي قط من فصيلة النمور.

يرنّ جرس الهاتف في منزل البواب. يُصغي البواب إلى صوت الجرس، لكنه لا يدير رأسه صوب الهاتف، فهو ينظر صوب الرؤوس التي تتحرك بين لفّات الأسلاك. ترفع البوابّة إبرة الحياكة إلى فمها وتدخل رأسها بين فجوة أسنانها وتنتقل بها من تحت عنقها إلى المعطف. تحّك البّوابة ما بين نهديها. ترفع القطة أذنيها وتصغي، عيناها كلون العنب الأصفر. يبقى عدد البشر في أثناء العدّ معلقاً في الفجوة التي بين أسنانها وفي عيني القطة. رنين جرس الهاتف يعلو، يعلق الرنين فوق بطن القطة، تعلو القطة فوق حذاء البّوابة وتأخذ بالجري في مساحة المصنع. لم ترفع البّوابةُ سماعةَ الهاتف.

في ساحة المصنع تتكوّن القطّة من الصدأ ولفات الأسلاك، وفوق سطح المصنع من الحديد المّموج، وأمام المكتب من الإسفلت أما أمام غرفة الاستحمام فتكون من الرمل.

ينظرُ البوابُ تحت الرؤوس الذاهبة وبين أعناق بكرات الأسلاك. بين الأسلاك تغرّد العصافير. ينظر البواب صوب السماء، ويرى أنّ العصافير تكون خفيفة عندما تطير فُرادى، لكنّها لا تصبح ذات وزن إلا إذا طارت أسراباً. يبدو بعد الظهر وكأنه قد قُطع خطأ من الحديد المموّج، أما تغريد العصافير فيبدو أكثر سخونة.

تقترب الرؤوسُ في الساحة، وتغادرُ الأسلاكَ والشركةَ. صار في

وسع البّواب أنْ يرى رقابَهم. يصعد البواب ويهبط. يتثاءب، لسانه غليظ، أما عيناه فتصبحان ثقيلتين في وقت الفراغ، حين تكون الشمس رطبة فوق ذقنه. فعندما يقف البّواب تحت الشمس تغفو الصلعة تحت خصل الشعر، أما بخصوص أيدي الذاهبين وجيوبهم، فإنّ البواب لم يرها بعد.

التثاؤب للبواب هو بمثابة الانتظار. فعندما يغادر العمال الأسلاك، تصبح جيوبُهم جيوبَه، حيث يتم تفتيشهم. وهم يتأرجحون تحت الأيدي ويتميزون بالخّفة، ولا يتصفون بالجمود إلّا عندما يكون الحديد في تلك الجيوب، وهو ما يلاحظه البّواب، كما أنّ الحقائب اليدوية التي يضعها العمال فوق أكتافهم تبدو جامدة عندما يكون الحديد في داخلها، لأنّ كل ما هو قابل للسرقة في المصنع لا يعدو كونه من الحديد.

لا تفتش يدا البواب كلَّ الجيوب، فيداه تعرفان عندما تقتربان من الجيوب، ما هي الجيوب التي تستحق التفتيش. وهذا ما تقرّره الوجوه والجيوب في اللحظة التي تمرّ أمامه. في تلك اللحظة يصبح الهواء في وجه البواب مختلفاً، ولاسيما بين الأنف والفم. يتنفس البواب في تلك الأثناء ويدع حدسه هو الذي يقرّر مسألة الانتقال من جيب إلى أخرى.

يعتمد قرار البواب أيضاً على الظّل الموجود أمام منزله، وعلى مذاق بذور زهرة عباد الشمس في فمه؛ فعندما يكون مذاق بعض تلك البذور زَنِخاً، يشعر لسانه بالمرارة فيتصلّب عموده الفقري وتتجّمد عيناه وترتعش أطراف أصابعه، ولا تعود الثقة إلى أصابعه إلا عندما

يبدأ التفتيش عميقاً في الجيب الأولى. أمّا التوتر بين اليد والإبهام فيعبّر عن ذاته في التعامل مع الأشياء الغريبة، عندها تغّدو قبضته عنيفة. إنّ تفتيش البواب بعمق في الجيوب هو بمثابة الإمساك بكل وجه من تلك الوجوه، فبوسعه أن يُغيّر تلك الوجوه فتنتقل من لون الطباشير إلى الاحمرار، وعندها لا تستطيع أن تعود إلى ذاتها. وعندما يعطي البواب إشارة التوجه نحو البوابة فإنّ الناس يغادرونه إما ذاوين وإما منتفخين. ويظلون منزعجين طالما ظلوا واقفين على الشارع مدّة طويلة. ويبقى سمعهم ورؤيتهم غير واضحين، لأن الشمس تنخّط على وجوههم كاليد. ويذهبون وأنوفهم لا تكفي للتنفس، فيفتحون أفواههم وعيونهم ويتطلعون في الوجوه الأخرى طلباً لهواء يتنفسونه.

في أثناء التفتيش يصغي البواب إلى العمال وهم يبلعون ريقهم، وكيف تجف حناجرهم وتغدو صلبة كالمنجل ويحفر الخوف في معداتهم. يشم البواب الخوف الذي يتصاعد كالهواء الثقيل من أفواه الرجال والنساء؛ ليَعْلق في الجزء العلوي من باطن الركب. وعندما يطول حفر البواب في إحدى الجيوب، يُصاب الآخرون بالذعر وتخرج الريح من مؤخراتهم.

قالت البّوابة لكلارا: البّواب رجل شديد الإيمان، لذلك فهو لا يُحّب البشر ويعاقب غير المؤمنين ويعجب بالمؤمنين منهم. لكنه لا يُحبّ المؤمنين بل يحترمهم، فهو يحترم سكرتير الحزب لأنه يؤمن بالحزب، ويحترم المدير لأنه يؤمن بالقوة.

سحبت البّوابة دبّوس الشعر من شعرها وأدخلته في الفجوة التي بين أسنانها ولفت شعرها بقّوة. قالت كلارا إن معظم من يؤمنون بأمر ما

هم الرفاق أصحاب المراتب العليا ولا يحتاجون إلى البّواب.

قالت البوّابة وهي تدخل الدبوس بقّوة إلى شعرها، يوجد أناس آخرون. كانت كلارا تقف في تلك الأثناء عند الباب، بينما تجلس البّوابة في منزل البواب، سألت البوّابة كلارا: أتؤمنين بالله؟ تأمّلتْ كلارا رأس البّوابة ونظرت إلى العُقّد في شعرها وإلى انحناء الإبر المصنوعة من الأسلاك. كان أنفها قد اختفى وصار الانحناء في أعلاه رقيقاً كشعرةٍ أو كخيط وحيد وإن بدا أكثر وضوحاً. ردّت كلارا: أحياناً أشعر بأنني مؤمنة وأحياناً أخرى لا أشعر بالايمان. وعندما أكون بلا هموم، أنسى مسألة الايمان تماماً. مسحت البوابةُ الغبارَ الموجودَ على الهاتف بطرف الستارة، وقالت إن الايمان يحتاج إلى قُدرات، فالعمال لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بما يؤدّونه من أعمال، والله بالنسبة لهم ليس أكثر من يوم عطلة يستطيعون فيه، إن أراد الله، أن يكون على موائدهم دجاج مشوي. ثم أردفت بأنها لا تأكل لحم الطيور. تأمّلت البوابة في أثناء الحديث عينيها في زجاج النافذة ونظرت إلى معطفها وقالت: العمال يأكلون، بدلاً من الايمان بالله، ويتناولون الدجاج يوم الأحد محشواً بكبد ذلك الدجاج.

اختفى سرب العصافير. زجاج النوافذ في الصالات مكسور، وقد استطاعت العصافير أن تعثر على الفتحات الموجودة في الزجاج. وكان بوسع تلك العصافير أن تطير بسرعة تفوق قدرة البواب على رؤيتها داخل القاعة. كانت البّوابة تضحك وتقول لا تنظر إليها وإلا طارت العصافير من خلال جبهتك. يتأمل البّواب يديه فيرى الشعر الأسود

فوق أصابعه ومعصميه.

يشطر الظلّ في فترة ما بعد الظهر بنطاله في المنطقة الواقعة تحت الركبة. يتحرك الغبار حول نفسه من لفّات الأسلاك.

سكيّن وعبوة زجاجية ملطّخة وجريدة وقطعة من طرف رغيف خبز، وتحت الجريدة حفنة من المسامير. قال البّواب: أجل، أجل، الرجل يُغلق جيبه.

رسالة وزجاجة صغيرة من مسامير الورنيش. حقيبة بلاستيكية وكتاب. الجاكيت في حقيبة الشراء. سقط قلم أحمر شفاه من جيب الجاكيت على الأرض. انحنى البّواب. فتح أحمر الشفاه ورسم خطاً أحمر على معصمه، ومسح الخطّ بلسانه ثم بصق وهو يقول: توت عَفِنٌ وبعوض.

في إبهام الرجل ثمّة جرح والإبزيم الذي يحيط بجيبه صدئ. تناول البّواب منها مُوسى كبّاسة، ثم تناول قبّعة من تحتها، وتحت القبّعة مكوى وقال: تأمّل. فردّ الرجل: لقد قمت بإصلاح القابس الكهربائي، لا أكثر. فقال البواب: في أثناء الوقت المخصص للعمل! وضع الرجل الحديد في منزل البواب وهو يلعن أمهات القوابس الكهربائية. وضعت البوابة التي كانت ترتدي المعطف الأخضر المكوى فوق يدها ومدّت أصابعها، فأصاب البرد راحة يدها.

حقيبة يدوية. كتل قطنية تقع فوق الأرض. انحنى الرجل ذو الإبهام المجروح. وضعت المرأة جدائلها خلف أذنها وقرّبت القطن من الجرح الموجود في الإبهام. كانت حبة من بذور عباد الشمس ونملة تعلق بالقطن.

ضحكت كلارا، فلمعت الشمس ببياض فوق أسنانها، فلوح البوّاب لها، فضحكت فجوة الأسنان في فم البّوابة.

تناول الرجل ذو الجرح الموجود في الإبهام القبّعة من الحقيبة. وضع القبّعة فوق قبضة يده ومدّ أصبع السّبابة وأخذ يدير القبّعة كالعَجَل. ضحكت البّوابة فبدا تجويف الأسنان في فمها كالمخروط. جاءت الضحكة مبالغاً فيها. نظر الرجل ذو الجُرح الموجود في الإبهام إلى القبعة وهي تدور وأخذ يُغنّي:

الإيجارُ المتأخرّ

لم أدفعه منذ شهر

قَبْضتُه كالعَجَلة. في ذراعه الملوي يبدو الوريد رقيقاً وسميكاً، فيما عيناه مثبّتتان فوق إبرة الحياكة الخاصة بالبّوابة.

أمّا السيّد، ربُّ المنزلْ

يجلسُ لي فوق الشارع.

فمه يُغنّي وعيناه صغيرتان وقبضته تتأرجح، أما اليد الأخرى، اليدُ الفارغة، اليد ذات الجرح الموجود في الإبهام، فهي ليست على مقربة من الحقيبة ذات الأبازيم الصدئة. كانت أغنية الرجل بانتظار المكواة.

فوق فجوة الباب ترفرف أوراق الأكاسيا وتذهب بعيداً ثم تطير وتطير. ولا ترى البوابةُ تلكَ الأوراق. فتلك الأوراق صفراء كعيني الهرّة. ينظر الرجل ذو الجرح الموجودة في الإبهام إلى الساعة.

تلد الهرة كلّ سنة قططاً جديدة، وهي تشبه النمر مثلها. لكنّ القطة

تلتهم تلك القطط طالما ظلّت رطبة وزلقة وعمياء. تصاب القطة بالحزن مدة أسبوع، بعد أن تكون قد التهمت أبناءها وتتجول في الفناء. بطنها مسطح والخطوط فيه ضيّقة تعبر كل شيء وتمر بكل الأجزاء.

وعندما يحل الحزن بالقّطة، فإنّها لا تأكل اللحم وتكتفي برؤوس النبات وبقايا نبات الملح فوق الدّرج في الساحة الخلفية.

تقول النساء اللواتي يجلسن وراء الأنوال إن القطة قدمتْ إلى هنا من الضاحية. أما مسؤول المخزن فيقول إنها تسلّلتْ إلى هنا قادمة من ساحة المصنع عبر الصناديق المملوءة ببرادة الحديد التي لا يتسرب المطر إلى داخلها إلّا ببطء. لهذا كانت القطة رطبة وصدئة ولا يزيد حجمها عن حجم حبّة التفاح، عندما رآها ذلك المسوؤل قادمة من المخزن إلى المكتب بين الصناديق المملوءة ببرادة الحديد. كانت عينا القّطة مغلقتين، وقد وضعها المسؤول فوق حذائه الجلدي وأخذها إلى البوّاب ووضعها بجوار البوابة.

أما البّواب فقد وضع القطة فوق قبّعة من الفراء.

أما البّوابة فقالت إنها ظلت تمدّها بالحليب مدة شهر كامل من خلال مصّاصة من القش، ونظراً لأن أحداً لم يُرِدْ رعايتها تكفلتْ برعايتها. وبعد أسبوع، قال البّواب، استطاعت القطة أن تفتح عينيها، وقد أصبتُ بالذعر، لأنني رأيت مدير المخزن موجوداً في عيني القطة الاثنتين. وما يزال المدير إلى اليوم يظهر في عينها عندما تموء.

يبدو المصنع للقّطة كبيراً كحجم أنفها، فالقطة تشمّ كل شيء إنّها تشّم القاعات والزوايا الخلفيّة حيث يتم نزول العَرَق ويتجمد كل

شيء ويقع البكاء والسرقة. وهي تستطيع أن تَشُمّ الشقوق الموجودة بين لفات الأسلاك، التي ينبت العشبُ بينها، والتي تجري عمليات الضمّ والشدّ والجنس بينها. ويجيء الحمل بعد ذلك كسرقة ضئيلة وخفيّة.

في البوابة الخلفيّة لا تسير إلّا سيارات النقل الكبيرة، حيث يتكون السقف من الزفت والمزاريب من المطّاط الرخيص والسياج من أبواب السيارات المنبعجة وفي الأسفل ثمة شارع معوج يُسمّى: شارع النّصر. يصّب ماء المزاريب في شارع النصر. النافذة الصغيرة الواقية إلى جوار البوابة الخلفية هي نافذة المخزن. وهناك يجلس المدير المسؤول، ويدعى غريغوري.

في المخزن تصنع الملابس الوقائية جبلاً يتكوّن من جاكيتات رمادية مبطنّة ومن المرايل الجلدية والقفّازات الجلدية والأحذية الطويلة الساق المطاطية ذات اللون الرمادي. أمام هذا الجبل الرمادي هناك صندوق مقلوب هو بمثابة طاولة وصندوق صغير آخر مقلوب هو بمثابة الكرسي. وفوق الطاولة قائمة بأسماء العاملين جميعهم. وفوق الكرسي يجلس غريغوري.

تقول البّوابة إن غريغوري يبيع قلائد ذهبيّة وخواتم زواج، يشتريها من عجوز غجري فقد ساقه في الحرب. يسكن هذا العجوز في طرف المدينة إلى جوار مقبرة الأبطال وهو يشتري الذهب من شاب صربي يسكن في قرية تقع بالقرب من الحدود على الحافة بين هنغاريا وصربيا. للرجل أقرباء في صربيا وهو يسافر إلى هناك بوسيلة نقل حدودية

صغيرة، وصهره يعمل في جمارك الحدود.

يكون لدى غريغوري، أحياناً، بضائع من روسيا. فالقلائد الذهبيّة السميكة تأتي من روسيا أما الأخرى الرقيقة فمصدرها صربيا. وفي حين تتكون القلائد السميكة من عقود على شكل قلب، تتكون الأخرى الرقيقة من المكعبّات.

وعندما يقوم غريغوري بإغلاق يده ويقوم بفتح أصبعه في تلك اليد المغلقة بالتدريج، تبدأ العقود بالزحف من خلال أصابعه وكأنها أسلاك ذهبية، ثم يدعها تسترخي في نهايات يده ويعرضها أمام الضوء مقابل النافذة الصغيرة.

بقي السلك الصدئ يمرّ من خلال الأيدي مدة ستة أشهر، بعدها يتم إحضار حقيبة الأجور لغريغوري وعندها يجري تعليق قلادة ذهبية في العنق: وبعد ذلك ببضعة أيام، وفي وقت متأخر من المساء، عندما يكون العقد يتلألأ في ثياب النوم والقدمان تسيران حافيتين فوق السّجادة، يتم طرق الباب. فيقف خلف الباب رجل يرتدي بدلة ووراءه آخر يرتدي الزي الرسمي، ويكون النور في الممّر خافتاً والهراوة تتّدلى من رجل البنطال. تكون الجمل قصيرة وتلمع الوجنات الغريبة وتعلو بقعة ضوئية وتنخفض. تبقى الأصوات سخيفة وشبه مسطّحة، لكنّها باردة. تقف الأحذية الغريبة على حافة السجادة، ويتم مصادرة العقد ونزعه من العنق.

يصطحب غريغوري القلادة في صباح اليوم وهو يركب المترو الأوّل، عندما تكون العربة فارغة والضوء يُنير وينطفئ نظراً

لاهتزاز المترو. في تلك اللحظات يصعد الرجل الذي يرتدي البدلة في المحطة القريبة من مصنع البيرة ويعطيه دونما كلمة علبة كبريت.

يكون غريغوري أول الواصلين إلى الشركة في الأيام التي يكون الماء فيها راكداً تحت الجسر والسماء تتموّج من شدة الظلام. يرتجف غريغوري من البرد ويشرع بالتدخين. يكون مكبر الصوت ما يزال صامتاً عندما يسير غريغوري بين الأسلاك ودخان سيجارته يملأ الأجواء ومعه عقده الذهبي. بعد ذلك ببضع ساعات يدع النهايات تسترخي وتجري فوق يديه أمام النافذة الصغيرة المواجهة لشارع النصر. ثم تعود من جديد نقود أخرى متشابهة، تماماً كاللوحات المتشابهة أمام عيني القطة.

يقول البّواب إن مسؤول المخزن اعتاد أن يبلغ الشرطة عند المساء بأسماء الذين اشتروا عقوداً ذهبية منه عند الصباح. لكنّ غريغوري لا يبلغهم بأسماء الذي اشتروا خواتم الزواج.

يحترم غريغوري المسؤول عن المخزن، لأن غريغوري يؤمن بما لديه من مال.

تبقى البضائع التي تباع في السوق السوداء، سوداء أيضاً. هكذا تقول البوّابة، لذا فإنه لا ينبغي للمرء أن يقدم على شرائها. كما أنّ ما يباع في السوق السوداء غير مضمون أما البواب فيقول: إنّ أحداً ما يمتلك وآخر يحتاج إلى ما يملكه الأول والعالم يتحرك معنا، وكل واحد يفعل ما بوسعه أن يفعله.

تشّم القطّةُ كذلك عندما يحشرُ مسؤولُ المخزن النساءَ في زاوية المخزن الكبرى، حيث يكون لحبل الملابس حوض ومسار. فوق المسار تقع النافذة. وعندما يفتح غريغوري بنطاله تضع النساء سيقانهن فوق رأسه. وترى النساء أنّ القطّة تجلس هناك لأن الأحذية المطاطية العالية في سيقان النساء تكون أعلى من العينين وتستقر فوق الرأس. تتجّه عيون النساء صوب عيني القطة ويخاطبن غريغوري قائلات: اطردها، اطردها بعيداً. فلا يكترث غريغوري ويقول: إنها غير مهّمة وهي لا ترى دعوها، فتصّك القطة أذنيها وتبدأ بالنظر.

تنهض النساء بعد ذلك وهن يتصبّبن عرقاً، ويضعَن جاكيت القطن الرمادي فوق أذرعهن ويقفن أمام الطاولة ويبحثن في قائمة مسؤول المخزن عن أسمائهن من أجل التوقيع. ولا تنتظر القطة حتى ينتهي التوقيع، فتتسلق نحو السقف وتهرول بين اللّفات السلكية في الساحة وبين الصالات.

في عينيْ القطة ترتسم صورة. فالجميع يشاهد ما يحدث والكّل يتحدث عما رآه مؤخّراً في أثناء الوقوف أو الاستلقاء وعن العلاقات الجنسية السريعة في المصنع، يضع الجميع أيديهم على الأسلاك وتكون أصابعهم في الموضع الذي تجلس القطة فيه. فالصورة لا تتقادم، لأن الصورة القادمة سرعان ما تتشكّل في عيني القطة. وفي الصور القادمة ثمة ما يدركه الحسّاد وتعرفه البقع الزيتية في وجه كل امرأة، وما يستقرّ في عيني القطة. ففي بداية العام أو في الخريف، عندما تغدو الجاكيتات القطنية رثّة وممزّقة عند الأكمام وتغدو الرياح باردة أو حارة

عند السقوف المصنوعة من الزفت وتهب إلى جوار السياج القريب من شارع النصر وتأتي جارحة، ترى الآخرين ينظرون ويتأملون، لأنّ القطة ستحمل الساق الموجودة الآن تحت الصندوق الخاص بها أمام النول، ستحملها عارية وعريضة وأعلى من الوجه في أرجاء المصنع.

ثمّة أسبوع واحد في السّنة لا تنقل القطة فيه الصور عبر عينيها، وهو الأسبوع الذي تشعر فيه القطة بالحزن على صغارها. وصاحبة الحظ السعيد، كما تقول النساء، هي من يتم إقامة علاقة سريعة معها في هذا الأسبوع الأعمى، فلا يدري بها أحدٌ.

ويستطيع من يرشو البوّابة أن يعرف موعد هذا الأسبوع. والكثيرون يقدمون لها الرشوة. بل الجميع، كما تقول البوّابة، فأنا املأُ التقويم السنوي وأحدّد لكلّ واحد الموعد الذي أُريد.

تحتشد النساء ويتدافعن في أسبوع الحزن الكاذب. ونظراً لأن العلاقة الجنسية في أسبوع الحزن الحقيقي تجري بين الصالات والساحة وغرفة الاستحمام والمكاتب تربك الصلات القائمة، فإنّ الرجال والنساء الذين يقيمون العلاقات فيما بينهم يكونون تحت أعين البواب وعاملة النظافة ورئيس العمال ومن يتولى موقد النار. لكنّ ثمة فرقاً بسيطاً هو أنّ العلاقات الجنسية في أسبوع الحزن الصادق لا تظهر صورها في عيني القطة، فتبقى لذلك في إطار الإشاعة.

تقول البوّابة إن أطفال هؤلاء النسوة يشبهون غريغوري، وأنا أحمد الله أن هؤلاء النسوة لا يحضرن أطفالهن إلى المصنع. فلم يسبق لي أن رأيت هؤلاء الأطفال معاً، بل إنني أراهم واحداً عقب الآخر. وسواء

أكان هؤلاء الأطفال كباراً أم صغاراً، هُزالى أم سمينين، سُمْراً أم شُقراً، إناثاً أو ذكوراً، فإنهم عندما يقفون إلى جوار بعضهم بعضاً لا بد أن يلحظ المرء، أنهم إخوان وأخوات. صحيح أنهم مختلفون تماماً، كما تقول البوّابة، لكنّ في كل وجه من وجوه هؤلاء الأطفال نصيباً وافراً يعود إلى غريغوري.

يعاني أطفال هؤلاء النسوة عندما يولدون من انعدام النوم. ويرى الأطباء أن ذلك يرجع إلى زيت المحركّات. لكنّ الأطفال يكبرون عدة سنوات بعيداً عن المصنع.

لكنّ هؤلاء الأطفال، كما تقول البّوابة، يجيئون إلى منزل البّواب، باحثين عن أمهاتهم. ونادراً ما تكون الحالات التي يجيئون فيها حالات اضطرارية، وفي الغالب لا يكون ثمة سبب يدعو لهذا المجيء.

يقف الأطفال باكتظاظ أمام منزل البّواب ويعلنون عن أسمائهم كي يتم استدعاء أمهاتهم. وفي أثناء الانتظار يضعون أناملهم بخوف فوق وجناتهم ولا ينظرون نحو البّواب أو البّوابة، وعندما يعلنون عن أسمائهم تتوجه أعينهم الشاردة صوب الأسلاك أو صوب ساحة المصنع الشبيهة بالمقبرة. وتبدو سمات غريغوري واضحة فوق وجوه أولئك الأطفال، كلّما طال وقوفهم هناك.

ففي القمصان صغيرة كانت أم كبيرة وفي الملابس، صغيرة كانت أم كبيرة. وفي الجوارب التي تغطي الساقين ترى البوابة لمسة الصدأ. وسواء أكان هؤلاء الأطفال صغاراً أم كباراً، أو شبه ناضجين، يقفون بكثافة أمام منزل البواب وينتظرون، فإنّ البّوابة ترى لمسة الصدأ المسنّنة

على وجوههم -فكلّ طفل من هؤلاء يحمل على ملابسه بقعة خفيفة من الصدأ.

صدأ يعود إلى أيدي الأمّهات وهي الأيدي ذاتها التي وضعتْ عصير البطيخ في الحساء الذي يشربه الرجال قبل تناول الطعام. تختفي الحواف السود للأظافر في أثناء الاستحمام ولا يظهر الصدأ في الماء أو في الرغوة بعد الاستحمام. بل يبدو على القماش. ولا ينفع مع هذا الصدأ التنشيف في الريح أو الكوي أو الأملاح الخاصة بالبقع كما تقول البّوابة.

تستطيع البوابة أن تعرف هؤلاء الأخوة الأطفال الذين لا يعرفون بالأمر، حتى بعد مرور عشر سنوات. بعد ذلك يتم نقل براميل الصدأ ولفات الأسلاك عبر البوابة. ثم يجري إعادة تصنيع تلك البراميل والأسلاك وتكديسها في المكان ذاته، قبل أن يستطيع العشب أن ينمو تحت الشمس الطالعة. ثم يأتي أولئك الأطفال إلى المصنع للعمل، مع أنّ الرغبة للعمل فيه لم تكن لديهم على الإطلاق، لكنّهم يأتون لأنهم لا يعرفون شيئاً. ولا يستطيعون من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم أن يجدوا الطريق، لأنّ الطريق غير مفتوحة. لكنهم لا يجدون إلا حافة هذا الجدار جراء انسداد الآفاق أمامهم وجراء القرف المتوارث من الأم إلى أطفالها ومن ثمّ إلى أحفادها. فهم يجيئون يحوطهم نوع من الإجبار الخالي من الآمال، ويكونون في البداية غاضبين وكثيري الصّراخ. لكنهم يصبحون، بعد ذلك، أكثر طراوة وصمتاً وتسكّعاً. فزيت الآلات ما يزال لاذعاً، وما تزال آثار السّواد على حواف أيديهم

باقية وهم متزوجون، ويصطدمون ببعضهم بعضاً بلطف في النهار وفي ساعات العمل المتأخرة ويخفون الودّ في أعماقهم. ثم يكون لهم أطفال، ينامون في أقمطتهم ويقع الصدأ عليها. ثم يكبر هؤلاء الأطفال ويرتدون قمصاناً صغيرة وكبيرة وملابس وجوارب، ويقفون ببقع صدأ خفيفة ومتكسرة أمام منزل البواب ينتظرون دون أن يعلموا أنهم لن يصلوا في المستقبل إلى أي طريق، لأنه لن يحدث لهم أي شيء في ما بعد.

وهذا يسري على غريغوري أيضاً، فقد كانت أمه عاملة في المصنع، كما يسري على البّوابة التي كانت عاملة هي الأخرى.

إبر الحياكة ملقاة فوق الطاولة وساحة المصنع هادئة. والريح تحمل معها رائحة الشعير المخمّر، فخلف السقوف البعيدة يقع برج التبريد التابع لمصنع البيرة. ومن برج التبريد هذا يمتد الأنبوب، لكنه يتشظّى في النهار بسبب حركة المترو. أما في الليل فإنه يبدو بمثابة ستارة بيضاء. يقول البعض إن هذا البُخار يصل إلى الفئران، ففي مصنع البيرة ثمة حاويات للتبريد، تفوق بيت البواب في الحجم، وهناك تحتسي فئران النهر البيرة حتى تصل إلى درجة السكر ثم تغرق في شراب البيرة.

يقول البواب إن الله قد أبقى من آدم وحواء خصلة شعر، وصنع منها الطيور: أما في اليوم التاسع، فإنّ فراغ العالم قد تشكل ومن هذا الفراغ تشكلت البيرة.

تمدّدتْ الظلال الخاصّة بمنزل الحارس، وبدأتْ الشمس تبحث بين شارع النصّر ولفّات الأسلاك عن الطريق الأقصر. تبدو الشمس حادّة

الحواف، مندفعة الأطراف وفي وسطها بقعة رمادية.

ثمة أيام في أواخر فصل الصيف يصدر فيها عن مكبّر الصوت أزيز يعلو سطح منزل البوّاب. عندها يتأمل البواب السماء ويقول: الشمس تعلو فوق الحديد المموّج وتعلو فوق سطوح المدينة وفوق برج التبريد الخاص بمصنع البيرة، حيث ثمّة صنبور مياه صدئة.

أمام البواب هناك مطبّ، حيث تتغبّر العصافير بالتراب، وبين تلك العصافير هناك مسمار.

يقيم البواب والبّوابة في منزل البّواب، يلعبان الورق. المكوى موجود على حافة الطاولة. أبلغ البواب الإدارة عن الرجل المجروح في إبهامه، وقام البواب بمصادرة المكوى. في الصباح وصل إلى الرجل المجروح في إبهامه توبيخ خطيّ.

تتقافز العصافير في القاعة. أصابعهن ومناقيرهن سوداء جرّاء زيت المحرّكات. وهي تنقر بذور زهر عباد الشمس وبذور البطيخ ولب الخبز. وعندما تكون القاعة فارغة تبدو حروف الشعارات في أضخم حالاتها. **العمل والشرف والحزب** ويكون للضوء عنق طويل يمتد من الباب إلى الستارة. القزم ذو القميص الأحمر والفقرات العالية يمشط الأرض الزيتية بمكنسة زيتية. وإلى جوار النول الموجود إلى جواره هناك بطيّخة، أكبر من رأسه، وقشرتها غامقة ومُخطّطة بلون فاتح.

يجيء الضوء في الباب الموصل إلى ساحة المصنع عَرْضياً، حيث تجلس القطة إلى جوار الباب وتلتهم قشرة من لحم الخنزير المقدّد، بينما ينظر القزّم عبر الباب إلى الساحة حيث يطير الغبار دونما سبب والباب يصّر.

جَوْز

تبصق المرأة ذات اليدين المملوءتين بالعُقَد على قطعة القماش وتمسح حبّات التفاح التي غدت تلمع، تضع المرأة حبات التفاح إلى جوار بعضها بعضاً، بحيث يبدو الجزء الأحمر من التفاحة وتغيب الندوب في الخلف. التفاحات صغيرة ومعوّجة والميزان فارغ. تزن المرأة باستخدام رأسي عصفورين حديديّينْ، يتقاطع منقاراهما وينخفضان نحو الأسفل، حتى يتساوى التفاح والأوزان. بعدها تقف المرأة هادئة. ثم تبدأ المرأة العجوز تحسِبُ بصوت عالٍ، حتى تغدو عيناها متجاورتين كالمنقارين، تغدو صلبة وهادئة لأنها تعلم كلفة التفاحات.

الباعة في الصالة التي يوجد فيها السوق أناس متقدمّون في السن. فهم يقفون فوق أرض أسمنتية، بين جدران أسمنتية، تحت سقف أسمنتي، ووراء هذا الأسمنت يعلّق القرويون وجوههم. الحدائق المملوءة بعشب الغزال تزحف نحو الأمام.

يحكي ليفيو عن تلك القرى منذ أن صار يَعْمَلُ مُعلماً في المناطق المنخفضة جنوباً، حيث يشطر نهر الدانوب تلك البلاد. وهو يحكي عن أماسي الصيف التي تأتي بعد نهار مليء بالعمل، حتى يسقط منهكاً تحت الأنظار، حيث يسقط الرأس في النوم، قبل أن يتمكّن الجسد من الحصول على الراحة. كما يحكي ليفيو عن النوم المملوء باليقظة بين الشباب والنوم المليء بالملل بين كبار السن. وفي حالتي اليقظة والملل تصطدم خطوات النهار بالأصابع وترتجف تلك الأصابع ليلاً جراء ما

تلقاه من كدح وإرهاق. ويحكي أنّ الآذانَ تخلِطُ في أثناء النوم بين شخيرها وأصوات الشرطة القروية ورئيس البلدية. وأنها تكرّر لهم في الحلم وجوب زراعة كل بقعة من بقاع الحديقة. فلدى شرطة القرية ورئيس البلدية دفتر الحساب الخاصّ بهم ولديهم قوائمهم الذاتية. وهم ينتظرون المحصول حتى لو التهمت البراغيث والفطريات والدود والحلزون كلَّ شيء. وحتى عندما تنسى الأمطارُ القريةَ، وتحرق الشمسُ كلَّ شيء، وتغدو القرية سطحاً يابساً، يأتي أولئك إلى القرية ليلاً دون اكتراث بالنهايات.

يأتي ليفيو ثلاث مرات في السنة صوب المدينة للزيارة، ولا يجد مكانه سواء في شقة باول التي سبق له، أن أقام فيها ذات مرة، ولا في المدينة التي عاش فيها طويلاً. وقد اعتاد أن يشرب العرق في الصباح ويسميه **حليب البرقوق**.

يقول باول إن ليفيو يتحرك في الشقة مثل كلب مقيّد، أما في المدينة فهو يتحرك مثل كلب هارب. ويضيف باول بأن ليفيو معلّق بخيط وأنّ هذا الخيط يكاد يتمزق، وأنه يعرف ذلك ويحكي حتى يغدو صوته أكثر سخونة.

يحكي ليفيو عن ليالي القرية التي لا يضاء فيها إلا زاويتا منزليْن، منزل رئيس البلدية ومنزل الشرطة. فليس ثمّة إلا ساحتان ودرجان وحديقتان تضاءان وصولاً إلى الأوراق. فالمنزلان مُميّزان وهادئان. أما ما سوى ذلك فهو مقبور. فالكلاب تركض في الظلام ولا تنبح إلا فيه، بعيداً عن أي مصباح كهربائي، حيث تعتمد حياة الأشجار الموجودة

أمام المنازل على نهر الدانوب.

ويقول ليفيو إن المرء لا يرى الماء ولا يسمعه في القرية. إنه يصغي إلى صوته قادماً من رأسه، فالمرء هناك بلا أقدام. والحياة ضاغطة، وبوسع المرء، كما يقول، أن يغرق في تلك الأرض اليابسة حتى أذنيه.

يُصغي المرء في بعض الأحيان، كما يقول ليفيو، إلى صوت إطلاق رصاص، لكنّ الصوت لا يكون عالياً، بحيث يبدو كأنّ ثمة غُصْناً قد انكسر. لكنّ الصوتَ مختلف مع ذلك بل مختلف تماماً. بعد ذلك تصمت الكلاب، قبل أن تشرع في النباح بصوت عالٍ، ثم يحاول أحدهم أنّ يعبر الحدود ليلاً، فيقطع الدانوب سباحة، لكنّ عليه أن يقرأ السلام على نفسه، لأن في ذلك، كما يعرف، نهايته.

يرى المرء حافّة الطاولة، لكنه يضغط على مسند الكرسي بيديه ويُغلق عينيه مدّة من الزمن. لكنني ألجأ للشراب، يقول ليفيو، فحليب البرقوق يشتعل وتتوتر العينان لدرجة أنها ترى ضوء المصباح الكهربائي يسبح، فإذا كانت الكهرباء مقطوعة، فإنّ الشمعة هي التي تسبح. فأنا أستمر في الشراب إلى الحدّ الذي أنسى فيه أن العيار الناري قد أُطلق. وأبقى أشرب حتى يغدو لحليب البرقوق موجات في ساقي وأنسى كل شيء إلى الحدّ الذي لا أعود فيه قادراً على التفكير حتى يبدو بالنسبة لي أن الدانوب الذي يفصل القرية عن العالم هو قدر حتمي لا مَهرب منه.

قال باول لليفيو أنت مدنيّ في الريف وفلّاح في المدينة، فَعُدْ إلى المدينة، فهي تعرفك مثلما تعرفني، ففي المدينة بضعة آلاف من الشرطة القرويين يتوزعون بين بضع مئات من البقع الإسفلتية.

شَرَعَ باول الغناء، أما ليفيو فقد لاذ بالصمت:

وجه بلا وجه
وجبين من رمل
وصوت بلا صوت
ما الذي بوسعي أن أتبادله معكم
فهل أبادل واحداً من إخوتي
مقابل سيجارة؟

جلس ليفيو على الكرسي وشرع يضرب بيده مظّلة المصباح الكهربائي، التي تدحرجت يمنة ويسرة، كما تدحرج ظلّها معها:

إنّ ما أملك لا يزيد على فكرة
فماذا أستطيع أن أبيعكم
فالسترة المجعّدة
ليس لها سوى زرّ واحد.

كانت عينا باول نصف مغلقتين، أما عينا ليفيو فكانتا قد خرجتا من جبهته وأخذتا، جرّاء الغناء، تسبحان في الخارج، ولم تكن عيناه هما اللتان تسبحان، بل فمه المبتل.

يخيط الليلُ حبلاً
من الظلام

أمسك ليفيو غطاء المصباح بيده وتوقّف عن الغناء، فازداد قرع باول على الطاولة علّواً:

العشب الزائف المُرّ
في محطة القطارات، يعلو صوتُ صفير قطار البضائع
طفل صغير وحيد ليس معه كبار
يقف فوق الإسفلت حافي القدمين

نظر باول عبر النافذة إلى الهوائيات الموجودة فوق سطوح الوحدات السكنية القريبة، ثم نهض وأزاح الكرسي وقرّبه من الطاولة ورفع رأسه وتطلّع صوب ليفيو الذي كان يضحك بلا صوت. لا تتدلى من السماء حبال مصابيح كهربائية، قال ليفيو، وإلا لصار بوسع المرء في كل مكان أن يشنق نفسه.

لا تنظر إليّ على هذه الشاكلة، قال ليفيو لباول. فارتطمت الجملة بوجه باول وغادر باول الغرفة وقام ليفيو عن الكرسي. وعندما وقف على الأرض وقال مخاطباً أدينا وكأنه يتحدّث مع نفسه: بالنسبة لي فإنّ باول ليس طبيباً.

جلس باول وحيداً مع صوته في المطبخ وأخذ يتحدث مع الاثنين الآخرينْ بصوت عال وكأنه يتحدث إلى نفسه، فقال:

قدم الليلة إلى المستشفى امرأة ورجل. كان على رأس الرجل مطرقة خشبية صغيرة، وكان مقبض تلك المطرقة موضوعاً على رأسه وكأنه نما مع شعره. ولم تكن ثمة قطرة دم واحدة فوق رأسه. تجمّعَ الأطباء حول الرجل، فقالت المرأة إن هذا الأمر قد وقع منذ أسبوع. ضحك الرجل وقال إنه يشعر أنه بصحة جيّدة. فقالت إحدى الطبيبات، إن من المسموح فقط قصّ المقبض أما المطرقة فلا يجوز إبعادها وإزاحتها

كلها، لأنّ الدماغ قد اعتاد عليها. بعدها قام الأطباء باستئصال المطرقة فمات الرجل في أثناء العملية.

تبادل ليفيو وأدينا النظرات سريعاً.

الجزر فوق الطاولة الخشبية والبصل منكمش. وخلف حبات الجوز يقف السمكري، لكنّه لا يرتدي مريوله الجلدي ولا يتدلّى حبل من عنقه وهو يضع خاتم الزواج في إصبعه. يقبض الرجل على حبّات الجوز التي تدوّي كالحصى. للرجل أصابع يدين كاملة في كل يد. فالرجل صاحب الجوز يختلف عن السمكري صاحب الفواكه الملفوفة داخل ورقات الجريدة. وهو لا يقول: كلي ببطء كي تتمكني من تذوق كل لقمة.

لكنّه لو كان هو، لكان ذلك ممكناً.

للرجل عينا السمكري وهو يتأمل الميزان ومنقار العصفور يعلو ويهبط في إحدى كفتيّه. تبقى المناقير هادئة، في حين تحسب العينان الثمن. فَتَحتْ أدينا حقيبتها، فتدحرجتْ حبّاتُ الجوز منها. وقعتْ حبتّان فوق الأرض، فانحنت أدينا صوبهما.

انحنى صوبَ الحبتين رجلٌ يرتدي ربطة عنق منقّطة تجمع بين الزرقة والحمرة. اصطدمت أدينا بكتفي الرجل الذي أمسك الحبات الشاردة بيده، فشاهدت أدينا على عنقه بقعة بحجم عقلة الإصبع. رمى الرجل الحبتين إلى داخل حقيبتها وقال:

إنهما لا تريدان أن تذهبا معك، ولم يكن عبثاً أن يُقال: جَوْز غبي، أتسمحين لي أن آخذ واحدة؟ أحنت أدينا رأسها، فتناول حبتين من

الحقيبة وأغلق يده، وضرب وهو يمشي، حبّة جوز بالأخرى، فتحطّمت القشرة وفتح الرجل يده. كانت إحدى الحبّات سليمة، في حين كانت الأخرى قد تكسّرت. رأت أدينا لب الجوزة في يد الرجل. ترك الرجل القشرة تقع على الأرض وبدأ يأكل. كانت البقعة الموجودة على عنقه تتراقص وكان جبينه يلمع، بعدها أخفى الرجل حبة الجوز الأخرى في جيب جاكيته. سألها الرجل والحليب ما يزال على أسنانه، وحبة الجوز الأخرى تتحرك داخل الجاكيت عند كل خطوة يخطوها: ما اسمك؟ فوضعت أدينا حقيبتها تحت ذراعها وسألت: ما علاقة اسمي بحبّات الجوز؟ ردّ الرجل: ماذا نفعل الآن؟ لا شيء. أجابت أدينا. وسارت في الاتجاه المعاكس.

يقف باؤل على الجانب الأيسر من باب الصالة الخاصة بالسوق ويفتش بعينيه عن أدينا، في حين ينسج الضوء حبالاً من الغبار أمام عينيه. تتحرك وجنتاه ويعثرُ لسانه على قطع من حبة الجوز في الفجوات بين أسنانه، لكنّ البقعة على عنقه لا تتحرك. يتناول باؤل حبة الجوز من جيب جاكيته ويضعها فوق الإسفلت ويضع حذاءه فوقها ويحركها لتكون تحت باطن قدمه وأسفل الكعب، ويضع الحبة على حافتها ويلقي بثقله فوقها، فتتصدع الحبّة. ينحني باؤل ويتناول ما بداخلها ويبدأ بالمضغ والبلع.

في الجانب الأيمن من السوق تقف سيارة سوداء ذات لوحة صفراء عليها أرقام قليلة. في داخل السيارة يجلس رجل يضع رأسه على المِقْود وينظر بشرود نحو الصالة. يشاهد امرأةً عجوزاً، يخفي الحاجزُ الإسمنتيُّ

نصفَ جسدها. تختار المرأة العجوز حبّات من الفلفل الأحمر. تسقط الحبات مثلما تتساقط خيوط العنكبوت من خلال الغربال وتقع الحبات في المكان نفسه. يتنامى الجبل تحت الغربال بسرعة.

قال باؤل: المرأة غير قابلة للمحادثة، فردّ الرجل الجالس داخل السيارة: لا يهم، لا يهم. أفرغت المرأةُ العجوز الغربال، وأخذت تمسحُ قمة الجبل بيديها بكل نعومة، وكانت يداها وحذاؤها حمراوين مثل الفلفل الأحمر.

بقي لسان باؤل يُفَتِّشُ عن قطع الجوز التي جرى مضغها، بين أسنانه، عندما سمع صوتَ الرجل الجالس داخل السيارة يقول: اصعدي، فسنسافر. كانت الشمس ساطعة فوق صناديق البريد الموجودة في بيت الدرج، والزهور تلقي بظلالها فوق الحائط. الزهور قليلة وتنمو في النتوءات، على نحو يمكن أن يتم القبض عليها باليد.

فتحة صندوق البريد ليست سوداء بل فارغة وبيضاء. وفتحة صندوق البريد البيضاء تعني وجود رسالة عسكرية من إيلّي: لم يكن اسم أدينا، كما كان الحال قبل أسبوع، مكتوباً على المغلف، كما أن الرسالة تخلو من الطوابع والختم واسم المرسل. تحتوي الرسالة على الجملة البذيئة ذاتها التي كتبت فوق أوراق الجداول بحروف كبيرة ومنفصلة.

كورّت أدينا الورقة والمغلّف في يدها وأحسّت كأنَّ الورقة الجافة في حلقها. بقي المصعد مظلماً، ولم تشتعل أي عين خضراء. إنّه ليس التيار الكهربائي. تفوح رائحة الملفوف من بيت الدّرج. تقرقع حبات الجوز أثناء المشي. بدأت أدينا العدّ بصوت مرتفع، وبدلاً من أن تعد

الدرجات. أحصت يدها اليسرى وحذاءها الأيمن. وحذاؤها شأنه شأن أي حذاء ينخفض ويرتفع ويتحرك إلى الأمام. كان صوتها الخاص يظهر عندما تبلغ مرحلة العدو، ليظهر صوت غريب بعد ذلك. وفي الصوت الغريب بدأت ملامح جبينها تظهر.

الحقيبة التي تحتوي حبّات الجوز موضوعة إلى جوار طاولة المطبخ. فوق حبات الجوز تتكوّر الرسالة المجعدّة، وإلى جوار الحقيبة ثمة طبق فارغ. الجارور نصف مفتوح، سكاكين، شوك، سكاكين، شوك، شوك، شوك، تبدو متساوية كأسنان المشط. فتحت أدينا الجارور كلّه، فبدت سكّينة كبيرة وإلى جوارها مطرقة.

وضعت حبة جوز على الطاولة وضربتها بالمطرقة بلطف. تصدّعت حبة الجوز، فأعادت ضرب حبة الجوز ثلاث مرات بقوة فتكسّرت الحبة، وبقي لُبّها فيها.

فوق الموقد تزحف مجموعة من الصراصير سبعة منها ضخمة. يمتزج فيها اللون الأحمر والبنيّ وأربعة متوسطة الحجم بنية غامقة، وتسعة صغيرة سوداء مثل بذور حبة التفاح، إن تلك الصراصير لا تزحف في واقع الأمر، لكنّها تمشي في طابور عسكري. إنّها جنود الصيف فيما يخص إيلّي، لكنها لا تحمل رسالة لأدينا. على الجدار المقابل في الغرفة ثمة صورة تسقط عليها كلّ صباح أنوار صباحية متقاطعة –يرتدي إيلّي الزيّ العسكري، وشعره كشعر القنفذ وفي فمه ساق عشبة ما، وعلى وجنته ظلال وفوق حذائه أعشاب. في كل صباح يبقى النهار معلقاً فوق ذلك الساق العشبي.

يقيم إيلّي مثل ليفيو في السهول الجنوبية. على مسافة واحدة من نهر الدانوب من حيث القرب والبعد، لكنهما يقيمان في منطقتين مختلفتين. يجري نهر الدانوب في منطقة من تلك المناطق على نحو مستقيم ويشق البلاد إلى قسمين أما في المنطقة الثانية فإنّ نهر الدانوب يجري بتّعرج لكنه يقسم البلاد مع ذلك. مع أنّ زخات الرصاص تنطلق في القسمين وكأنها غصن ينكسر، لكنها تظل مختلفة تماماً.

ثمة أيام في شهر آب في هذه المدينة تكون الشمس فيها مثل حبة اليقطين المقشّرة. في تلك الأيام يسخن الإسفلت من الأسفل، أما من الأعلى فيسخن إسفلت الوحدات السكنية. في تلك الأيام يتحرك الرأس، بجمجمة تكاد تكون منفصلة نظراً لشدّة الحر. وعند الظهيرة تنكمش الأفكار في الرأس ولا يدري المرء إلى أين تتجه ويغدو التنفس صعباً في الفم، فلا يملك الناس لحظتها إلا أيديهم الضائعة. لهذا تقوم تلك الأيادي بوضع الملاءات على شاشات التلفزيون من أجل أن يبرد، لكنها سرعان ما تجف قبل أن يرفع الناس أيديهم عن الزجاج.

في مثل هذا اليوم من شهر آب يقف إيلّي عند الموقد ويبدأ بسحق الصراصير وقد يرجع ذلك إلى اللامبالاة التي صنعها القيظُ في رأسه، وقد يعود إلى أسباب أخرى، عندما تموت الصراصير الكبيرة تتمزق وأما الصغيرة منها فيحل الموت فيها بصمت. ولم يُحْصِ إيلّي سوى الصراصير التي تتشقّق في أثناء الموت.

قال إيلّي عنها إنّها عندما تكبر، تغدو حمراء. وستكون القرى والمدن قادرة على النجاة والبقاء على قيد الحياة، وسينجو الحقل المحروث

الذي لا نهاية له ولا شجر فيه ولا طريق. وستنجو كذلك حقول الذرة البائسة وسلسلة جبال الكاربات والريح فوق الحجارة والماعز والكلاب والبشر. وسيفترسون جميعاً هذه الاشتراكية ويجرونها ببطونها المتخمة صوب نهر الدانوب. وهناك، على الشاطئ الآخر، سيقف المذعورون تحت الحر الشديد ملوّحين ويصيحون فوق الماء هؤلاء هم الرومانيون، إنهم جديرون بذلك.

سحبت أدينا إيلّي من المطبخ عندما بكى وأمسكت وجهه بيديها اللتين تفوح منها رائحة الخشخاش. ناولته كأساً من الماء، فأخذها منها وأبقاها في يده، من غير أن يشربها. وقد شعر بالقرف من نفسه، لأنه كان يتصبّب عرقاً بارداً ويرتجف في أثناء الحر الشديد. كان إيلّي بعيداً عن ذاته إلى الحد الذي شعر فيه أنه ابتلع لسانه عندما قال إن العالم ما يزال محفوظاً لأن فيه نهر الدانوب.

نظرت أدينا خارج النافذة وهي تمضغ حبة الجوز، السماء فارغة ومذاق الجوز، مرّ فوق اللسان وحلو بعد ذلك. تتطلّع السماء نحو الأعلى ولا تنظر إلى الأسفل إنه يمسك بفراغه الكبير في البقع البيضاء الصغيرة وفي الرسائل التي سبق له أن قرأها، وفي اللحظات التي يغادر فيها المدينة وعندما يهرب –لاجئاً صوب الدانوب في أعالي المدينة.

يصرخ طفل في الشارع، ولسان أدينا يفتش عن قطع الجوز بين أسنانها، التي سبق لها أن مضغتها، أما قشور الجوز المكسّرة، فكانت تتوزّع تحت الطاولة.

أين الصراصير؟ سأل المدير. طارت عثّة بنيّة اللون من ياقة قميصه واتجهت صوب النافذة. بحث المدير في الساحة الواقعة خلف الزجاج. فلم يعثر فيها على ما هو أكبر من الذباب. قالت مارا: الصراصير مطلوبة. وراء زهور إبرة الراعي، وخلف ستارة نافذة المدير تتحرك الأحذية. شَعْرٌ بنيّ يمرّ مروراً عابراً. بين كلّ خطوة وأخرى تعلو أصص زهور إبرة الراعي الحمراء فوق أطراف ذلك الشعر. لا يحرك المدير زهوره الحمراء تلك ويحتفظ بأوراقها ساكنة دونما حركة، فوق ذلك الشعر في ساحة المصنع وفي الصدأ المفترس وفي الأسلاك.

لا يستطيع المدير أن يرى رؤوس القادمين لكنه يرى أطراف شعورهم. كما أنه يرى العثّ فوق زجاج النافذة. ولكن أين توجد الصراصير، إذا كانت مطلوبة؟ سأل المدير الذي حشر نفسه أمام زجاج النافذة حتى مسّت السيارة جبينه ومسّتْ زهورُ إبرة الراعي ركبتَه. تدحرج العث وطار فوق عظام صدغية الخاليَيْن من الشعر ووصل إلى طاولات الاجتماعات. قالت مارا: الصراصير في الطريق إلينا، أيها الرفيق المدير.

أخذ المدير بالحسبان وجود العث وسحب وجهه بسرعة كبيرة لأنه اعتاد أن ينظر نحو الأسلاك، لكنه لم يأخذ بالحسبان وجود كعوب الأحذية ذات الوطأة القاسية والعالية فوق الإسفلت، التي تشبه الطوب المكسور. كما لم يأخذ بالحسبان أقدام الأقزام التي تتمايل كرأسي قزم

لأن كعوبها عالية. ولم يتوقع وجود السيقان القصيرة التي تعجز عن الانحناء أثناء المشي ولا وجود الظهر الذي يحافظ على استقامته وكأن أسلاكاً لُفّت حوله.

هذه الأحذية وهذه السيقان وهذا الظهر كلّها تزعج النظرة التي تريد أن تبقى فارغة. وعندما تمر سنوات في المصنع، فإنّ العين لا ترى القزم إلا بعد أن تُحسّ به وبعد أن يتوقف في طريقها.

يجذب المديرُ الأعناق. الضجيج من وراء القزم، تلك العادة المتخلّفة تشبه التجمد بسبب شدّة البرد.

قال المدير: إنّه قزم هو وكل ما يصدر عنه. ولعل واحداً مثله في أرض أخرى، سيكون واقفاً عند حافة الشارع، يتسّول. أشار المدير إلى صورة الديكتاتور، التي بدت كبيرة الحجم على الجدار وصغيرة فوق المكتب. ثم أشار إلى الصورة الصغيرة الواقفة. الصورتان تكشفان معاً عن السواد في العين. بين الجَدار والطاولة وأمام الستارة البيضاء تتلاقى الصورة المعلّقة، بالأخرى الواقفة. كل هذه الصور تتولّد من منطقته يقول المدير، ذات العزيمة الصارمة؛ إنه يعني الجنوب، حيث يشطر نهرُ الدانوب البلادَ هناك. وحيث تتوزع السهول الواسعة بين الصيف الذي تنمو فيه الذرة وتجف لتغدو كالحجارة والشتاء الذي تتجمدّ فيه تلك الذرة المسنّة لتصبح كالحجارة. وحيث تزهر أكياس الشوك فوق الماء وحيث يَعُدُّ الناسُ تلك الأكياسَ التي تطفو فوق الماء، ويعرفون أن الدانوب يحمل لكل من يُقتل جراء إطلاق النار عليه كيساً يبقى ثلاثة أيام فوق أمواجه، وثلاث ليال يلمع تحت أمواجه ويضيء كأنها

الشموع. يعرف الناس في الجنوب أعداد الموتى وأسماء هؤلاء الموتى، لكنهم لا يعرفون وجوههم.

قال المدير: أكتبي إنذاراً، فردّت مارا بأنّ الصراصير في الطريق إلينا. حرك المدير قميصه من الداخل، فخدش الياقة. أحياناً، يقول المدير، يقوم بطرق الباب. بصوت خفيض لا أكاد أسمعه، وعندما أقوم بفتح الباب، لا أرى أحداً، إذا لم انظر على الفور إلى الأسفل . وهذا يعني أنّ مسؤول العمل قام بإرسال القزم وهو يحمل ورقة في يده ولا يتحدّث بكلمة، ويمضي قبل أن أتمكن من أن أقول شيئاً. يختفي القزم. وأنا لا أناديه بالمقابل، لأنني نسيتُ اسمه، وأنا لا أستطيع أن أناديه: يا قزم! تضحك مارا، فيقول لها المدير: ساقاك جميلتان. تتأرجح زهور إبرة الراعي. ينحني المدير فوق السّجادة، ويجيء صوته عميقاً تحت سترة مارا، وتكون يداه قاسيتين. فخذاها ساخنتان، وأسنانه فوق فخذها اليمنى مبعثرة ورطبة وحادة، والصورة الموضوعة فوق الطاولة، والسواد في العين، يشاهد ما يجري. ثم تغيم الرؤية. وقد يكون العث قد عاد إلى الهواء، حيث تبدو إحدى الأيدي أمام عيني مارا. آه، هذا مؤلم، أيها الرفيق المدير، قالت مارا.

يجيء المدير كلّ أسبوع إلى البوابة. قالت البوابة لكلارا، لكنّ الرجل لا يدخل إلى منزل البواب ولا يتخطى عتبة المنزل، بل يكتفي بأن يمدّ رأسه عبر الباب ثم يقوم بإغلاقه على الفور، ثم ينظر إلى الأسلاك ويستفسر عن اسم القزم. ينظر البواب كذلك نحو الأسلاك، لأن عيني المدير تجتذب عينيه ولأن البوّاب يعني، أن المدير برأسه، فوق الأسلاك،

فمن ينظر صوب الأسلاك، لا بد أن ينظر إلى هناك برأسه كلّه، ومن ينظر إلى هناك، لا يصغي إلى شيء، فضلاً عن أنني أنا والبّواب، تقول البّوابة، ننظر إلى هناك ولا نراه. وقد اعتاد البواب أن يجيب كل مرة: أيها الرفيق المدير: إنّ القزم يدعى قسطنطين. وينطق البواب الاسم بصوت مرتفع، لدرجة أنني أسمعه حتى لو كان البوّاب والمدير يقفان في الساحة، كما تقول البّوابة. وفي كل مرة يكون فيها البوّاب في الساحة، تطير عثّة من ياقة قميصه، ويقول المدير في كلّ مرة، لا بُدّ لي أن أتذكر هذا الاسم، لكنّني أنساه على الفور، إنني أتذكر كلّ شيء، لكنّ الغريب أنني أنسى اسم القزم فوراً. فيّرد البوّاب، إن القزم شيطان، وإلا لما كان قزماً. ويقول البوّاب إن المدير كان في شبابه مديراً لمصنع القبّعات الذي يقع وراء جبال الكاربات. ومن هنا جاء العثّ إلى هذا المكان. ومن ذلك الوقت، كان الرجل مديراً لمحطات المياه في الجنوب ومديراً للإسكان وتعمير المنازل هنا في المدينة، لكنّ العث الذي جاء من مصنع القبعات لم يفارقه على الإطلاق. سحب المدير من الحقيبة قلماً وقصاصة ورق ودّون عليها اسم القزم. وقد كتب الاسم على امتداد الورقة، وسطّره بحروف كبيرة على يده، كما قالت البّوابة. وعندما أعاد المدير القلم وقصاصة الورق إلى الحقيبة وقال: الآن عرفت الاسم. طارت العثة بعيداً في أرجاء الساحة وضلّت الطريق بين الأسلاك.

بعد ذلك بأسبوع أدخل المدير رأسه داخل الباب وسأل مجدّداً عن اسم القزم، وقال أريد أن أحفظ اسمه، لكنّني أنساه على الفور. ثم تناول قصاصة الورق ذاتها من الحقيبة نفسها، فطارت العثة نفسها

من ياقته، فدوّن المدير الاسم نفسه ثانية، فطارت العثة بعيداً في أرجاء الساحة ودخلت بين الأسلاك.

وقد قال لي المدير ذات مرة، كما روت البّوابة، إنّ الحال مع قصاصة الورق، يشبه الحال مع اسم القزم، إنني أفقدهما معاً.

إنّ كل من في الشركة يعرف اسم القزم، لأنّ اسمه غير مناسب له، كما قالت البّوابة. لكنّ المدير وحده هو الذي لا يعرف الاسم. كان الكل يعجب، لأنّ اسم القزم **قسطنطين**، ويقولون باستمرار، إن الاسم غير مناسب لصاحبه. من هنا عرفت أنّ اسم **قسطنطين** لا يناسب القزم، وقبل ذلك لم يخطر لي ذلك على بال. وقد أضافت البوابّة بأن المدير كان يلحظ ذلك ويتنبه له في كل مرّة. وقد كان عليه أن يحفظ الاسم، لأنه استطاع أن يلفت نظره وأن يدرك أن **قسطنطين** لا يناسب القزم.

قالت البّوابة لكلارا إنّ ابني يدعى **قسطنطين**، لكنني لن أربط مطلقاً بين اسم ابني واسم القزم؛ لأن ابني ليس قزماً، ولأن الاسم الذي يطلق على قزم ليس هو الاسم نفسه. وقد منعت ابني أن يبحث عني في المصنع، فأنا لن أدع ابني بين هذه الأسلاك أبداً، لأنني أدرك أنّه إذا قُدّر لابني أن يرى تلك الأسلاك، فإنه لن يُصغي إليّ أبداً بعد ذلك. ولن ادعه يشتغل عاملاً في المصنع، ولو ليوم واحد.

ركع المدير على السجادة أمام ركبتي مارا الذهبيتّين، فرأى ساقي طاولة الاجتماعات. تنفّس الرجل بعمق يفوق قدرته على الاحتمال، فشعر بأنه يتنفسّها. هنا شعر المدير بأن جبينه مالح تماماً ورطب وكأنّ فمه مرّ مرتين على وجهه. وكان يشعر في المرة الأخرى، أنه ساخن

وضائع، ولا سيما في المنطقة التي يتصل فيها الجبين بالشعر.

تجلس القطة –شبيهة النمر– تحت طاولة الاجتماعات. للقطة وجه كالفرو وهي تتثاءب. يجري النوم في جميع أرجاء جسدها من خلال الخيوط السوداء وفي الظهر والبطن ويصل إلى المخالب. أنف القطة أسود، بسبب زيت الآلات وهي بليدة وعجوز، لكنّ أسنانها حادة وبيضاء وفتّية. أما عيناها فتبدوان يقظتين في ذلك الوجه الذي يشبه الفراء. في تلك العينين، تتّبدى صورة فخذي مارا حتى ركبتيها وفي باطن الفخذ عضة كبيرة كالفم.

ينهض المدير، وتجلس العثّة فوق مسند الكرسي. يقف المدير أمام المرآة ولا يدري لماذا يقوم بتمشيط شعره.

في القاعة يتمدّد أحد العمال فوق الأرض المملوءة بالزيت: عيناه نصف مغلقتين وأشجار الحور تنزلق فوق جبهته. إلى جوار المكبس ثمة بركة دم، لم تتخثّر، فالزيت لا يمتصها. شمّت القطة رائحة الدم، فتحرك شارباها، لكنها لم تلعق منه قطرة واحدة. تحت كُمّ العامل المملوء بالزيت هناك ذراع لا يد لها، فاليد عالقة داخل المكبس وقد ربط المسؤول عن العمل الكُمّ بقطعة قماش متّسخة.

رفع القزم رأس الضحيّة. كان الرأس بين يدي القزم حاراً وفاقداً للوعي. لم يحرك القزم اليدين. كان الشعر فوق الرأس يشعر بالموت، شأنه شأن الشعر الموجود في أسفل الرأس، وشأنه شأن الدماغ تحت الجمجمة، وقد بدت مقلة العين بين الرموش، تحت شجر الحور الذي بدأ ينأى بعيداً، مثل حافّة فنجان أبيض. تحت العينين كان ثمة تجعيد.

وقد ظل القزم يُحدّق في تلك التجعيدة حتى تشظّى ذلك الوجه الفاقد للوعي، وتشظّى وجه القطة ووجه القزم أيضاً، فالموت الذي كان القزم يستشعره في يديه، بدأ بالزحف نحوه حتى وصل إلى العنق. أما القطة فقد بدأت تشم يدي الضحيّة، لتنتقل إلى ذقنه المضطربة. صار لون شاربي القطة أحمر، لكنّ عينيها ظلّتا هادئتين وواسعتين. ولم تقم بمحو الصورة الخاصة بفخذ مارا وما عليها من عضّة بحجم الفم الكبير.

بعد ذلك اتصل أحدهم هاتفياً، فجاء المدير، وجاء بعده غريغوري ورجل آخر. سأل الرجل عن اسم المصاب. لم يعرف أحد من هو هذا الرجل الغريب، فيداه نظيفتان، وهو لا يعمل في المصنع. ذكر المسؤول عن العمل بأن الرجل يدعى كريزو.

ركل الرجل الغريب القطة فأبعدها، في حين أبعد غريغوري القزم بالصراخ. وضع القزم يديه الفارغتين في جيبه. ووقف حيث يستلقي الرجل المصاب وأخذ ينظر، ووقف حول الرجل بقية العمال، كما وقف غريغوري والغريب وشرعا ينظران. حمل غريغوري والغريب الرجل الفاقد الوعي. إلى آخر القاعة حيث خزانة الملابس. كان الجسد طرياً وثقيلاً وكان معطفه منتفخاً ونصف مفتوح ويتدلى نحو الأسفل.

بعد ذلك دخل المدير إلى القاعة من خلال الباب المفتوح. سار المدير بخط مستقيم كحبل ممدودة فوق الأرض الزلقة وصولاً إلى خزانة الملابس. كان يصرخ أثناء المشي ويطلب من العمال أن لا يتجمعوا حول المكان وأن يذهب كل واحد إلى عمله. في تلك الأثناء طارت عثة من ياقة قميصه واختفت في النافذة، حيث الأكاسيا يحاول أن يحتفظ

بالضوء، لأنه يحاول أن يطرد عند الجذر الخشب الرقيق والأدوات المتوحشّة. قام المدير بإغلاق باب خزانة الملابس من الداخل.

كان الغريب يمسك بوجه المصاب، أما غريغوري فقد فتح فمه على وسعه. تناول المدير زجاجة مفلطحة من سترته تتناسب مع يده ثم سكب الخمر في الفم المفتوح، بعدها غسل يديه وضغط على المزلاج ودفع باب خزانة الملابس بقدمه. خرج المدير مع الغريب من القاعة واختارا أقصر الطرق للخروج والذهاب إلى الساحة والأسلاك.

سار غريغوري خلف المدير، وبقي واقفاً عند الباب ليصطدم بالقزم وقال في القاعة: لقد شرب كريزو الخمر منذ الصباح المبكر، وجاء إلى مكان العمل ثَمِلاً.

اتكأ القزم على الباب وأخذ يتأمل الأسلاك وأكل حبة كمثّرى. كانت عيناه فارغتين ورأسه كبيراً. وكان فمه يردد بأن كريزو لا يشرب الخمرة. وكان العصير يقطر من فمه. أما الشمس فقد سحبت نحو بطنه غيمة شفافة. عضّ القزم حبّة الكمثرى بعمق وأخذ يمضغها. مضغ القشرة، والفاكهة واللبّ. كانت أصابعه لزجة وحذاؤه يقطر، ويده فارغة. لكنّه لم يبتلع شيئاً، فقد كانت وجنتاه مملوءتين بحبة الكمثرى الممضوغة، وكان ممتلئاً إلى ما تحت عينيه.

غير مهم –غير مهم– صاح أحدهم بصوت مرتفع في القاعة، خذوا رأسه صوب النافذة وقولوا: ما باليد حيلة.

إنّ من يقول هذا، يُعلّق المصيبة بالفم، كما تتعلّق الأوراق الموجودة أمام النافذة بالشجرة. في الصيف تكون خضراء أو صفراء في الخريف،

لكنّ المصيبة تظل غُصناً في وجهه. اللون هنا حاضر، لكنّ الأوراق غائبة. لأنّ المصيبة دائماً عارية، صلعاء على الدوام، مثلما سيكون خشب الشتاء في الخارج دائماً. هل يجب أن تبقى الحياة العارية حاضرة أمام الأعين؟ هل يجب أن يحتفظ الفم بالخطبة العارية، قبل أن تكون فكرة في الرأس؟ هل يجب أن يكون الصمت والشكوى معاً؟ كما يجب أن يمضغ القزم وأن لا يبتلع ما سبق له أن مضغه. كما أنّ كريزو لا يجوز له أن يأكل ويشرب.

وعندما يأتي الطبيب ويشم رائحة الخمرة، يكون كريزو قد خسر حقوقه وهو غير واع وثمل.

ثم يطير سرب العصافير خلال الساحة كالمظلّة. يبتعد أحد العصافير عن الشرب ويجلس فوق الأسلاك ثم على الأرض. ويقفز حتى يتوزع ريشه ويتحول جناحاه إلى الريش. بعد ذلك يدخل العصفور إلى القاعة من خلال الباب. ثم يمشي باستقامة فوق أرض القاعة اللزجة، كأنه الحَبْل. يقف العمال ويتأملونه، دون أن يتفوّه أحدهم بكلمة، باستثناء رئيسهم الذي يقف على المكبس وينحني وينظر صوب موضع آخر. فهو يفتش عن اليد الممزّقة.

أما القزم فقد كان يقف فوق طوبة مكسّرة في الساحة ويمضغ حبة كمثّرى في الفراغ.

وضعت أنكا جميع أقلام الرصاص في علبة الكولا الفارغة، ومسحت الغبار عن علبة البيرة الفارغة. أما ماريا فقد وضعت أقلام الحبر في علبة البيرة الفارغة وعلّقت أوراقها ذات البقع البيضاء حول

إطارات الصور الموجودة على الجدار. في الصورة ثمّة خشخاش يتفتح. تناول ديفيد قلم رصاص من علبة الكولا، أما أنكا فقالت إن النباتات المتسلقة ذات البقع البيضاء تدعى **لسان الحماة**. وقد افتتح ديفيد الدفتر بلغز الكلمات المتقاطعة، في حين وضعت كلارا قلم الرصاص القصير فوق طاولة العمل ونفخت فوق أصبعها الذي قامت بطلائه حديثاً. وعبّر ديڤيد عن شعوره بعد تناول الطعام من خلال أربعة حروف هجائية، فقالت أنكا، **شرّير**، وصاحت إيفا: **مُتْخَم**، في حين قالت مارا: **تُخْمَة**.

بعد ذلك انفتح الباب وكان غريغوري جالساً في مكتبه، ومارا ترفع ساقيها للمرة الثالثة فوق الكرسي وتسحب التنورة وتُري غريغوري فخذيها، الذي يمسك بركبتها ويتأمل عنقها، حيث تتدّلى قلادتها. قالت مارا، إنه يوم مجنون، فقد عضنّي المدير فيه.

التهاب طبلة الأذن

وجه بلا وجه
وجبين من الرمل
وصوت بلا صوت
ما الذي بقي إذن
الوقت هو الذي بقي

لم ير باول في القاعة سوى الأعين. النور مطفأ والعيون كلّها متشابهة، وما يزيد على مائة عين هي عيون رجال الشرطة.

الوقت بلا وقت
فما الذي بوسع المرء أن يُغيّره؟

الرؤوس التي تتمايل على إيقاع الأغنية، تختلف عن الرؤوس اليقظة. الأيدي المتحركة التي تحمل المصابيح اليدوية المضاءة. تضيء تلك المصابيح رؤوس الذين يغنّون. إنها تتأمل الوجوه التي تنتقل من الغناء إلى الصراخ. تجلس أنّا في الصف الأول وترى الدوائر التي تصنعها المصابيح اليدوية على الجدار.

ليستْ لدي سوى فكرة واحدة
فما الذي أستطيع أن أتبادله معكم
إنني أبادل أخي
مقابل سيجارة واحدة.

فُتح الباب الجانبي من الداخل، وجاءت بقعة ضوئية من القاعة

شطرت الصالة. نبحت الكلاب.

لقد صرتُ مجنوناً
فقد وقعتُ في الحب
وأحببتُ امرأة تحبّني
لكنّ من أُفضّلها غبيّة
لأنها في الواقع
لا تحبّني حقّاً

ومن خلال البقعة الضوئية برز رجل محدودب الظهر وشرع يقول:

ليست لدي سوى فكرة واحدة
فما الذي أستطيع أن أبيعه لكم
فالسترة الكثيرة التجعيد
ليس لها سوى زرّ واحد

أخذ المغني بالدوران وجعل ينظر إلى باول في تلك الأثناء. وباول ينظر إلى سورين، الذين رفع الطبل ولمس ذراع أبي.

ينسج الليل كيساً
من خيوط الظلام

انفتح الباب الجانبي من الداخل وبدت في بقعة الضوء رؤوس قائمة ترتدي قبّعات واقية زرقاء. تجلس أدينا في وسط القاعة وترى الآذان عارية تحت القبّعات.

العشب الزائف المر
في محطة القطار يَصُفرُ قطار الشحن

تصغي الآذان في القاعة، فالكلاب تنبح. يصدر الغناء عن فم باول، بينما تهتز جمجمته وأصابع رجليه. تضيء المصابيح اليدوية. بعدها تُشرّع الأبواب وتتصادم الأحذية. يحلّ الظلام فوق خشبة المسرح وتضاء القاعة، فتقف الوجوه التي تصرخُ مكشوفة في دائرة الضوء. البوليس والكلاب ورجل يرتدي بدلة يقفون في الصالة. تمسكُ يدُ باول بالأوتار، فيصمت الغيتار ولا يصدر أيّ إيقاع عن الطبل الموجود مع سورين، فالرجل الذي يرتدي البدلة، يقف إلى جواره على خشبة المسرح، يرفع الرجل يديه إلى الأعلى ويصرخ: الحفل الموسيقي انتهى، غادروا القاعة بهدوء.

المغني وباول وسورين يغنوّن ولا يستمعون إلى غنائهم. فالأغنية جافة، فقد صار الجو عابقاً بالخوف، الذي صار كبيراً كالفم والنظرة، وواسعاً كالقاعة. بدأ البوليس تحت الأضواء يدفع المغنين ويسوقهم نحو الأبواب كي يخرجوا

طفل صغير ليس معه كبار

يقف، فوق الإسفلت، حافي القدمين

الهراوات تبحث عن الظهور والرؤوس والسيقان على نحو عشوائي. من الأحزمة الجلدية تتّدلى المسدسات والأسلحة الآلية. تتكئ أدينا على الجدار. صفوف الكراسي في القاعة بدأت تصبح فارغة. شبعت الشرطة من الضرب، وشبعت الكلاب من النباح. لكنّ أحذية الشرطة هي التي بقيت عالية الصوت والناس يتجّهون صوب المخرج، تجلس أدينا بين المقاعد الفارغة في الصف الأول. وتلحق الكلاب بتلك

الأحذية، بسيقانها الطويلة البائسة.

يقف الرجل الذي يرتدي البدلة على المسرح ويقول: غداً في الثامنة تماماً في الغرفة رقم 2. ينظر باول نحوه ويقول: مفهوم. يتساءل زميله أبي عن الأسباب، يسحب سورين أحد الحبال، تجلس أدينا إلى جوار سورين وتراقب كيف يلتفّ الحبل على ذراعه. تجلس أنّا على خشبة المسرح وتمسك بيديها الاثنتين بقوة وتنظر في القاعة الفارغة. أما الرجل الذي يرتدي البدلة فيقول: نحن الذين نوجّه الأسئلة. ويقول باول: عندي مناوبة ليليّة، فيقفز الرجل الذي يرتدي البدلة من على المسرح إلى جانب الدرج ويتمشى خلال القاعة ويصيح: بعد ذلك مباشرة، ثم يغلق الباب وراءه. تُقبِّلُ أنا باول فيقول لها: اذهبي إلى المنزل وسآتي غداً إليك.

تضغط أنّا على شفتيها وتنظر نحو أرضية القاعة وتضغط عليها بقدمها، فيقول باول سآتي إليك بعد انتهاء التحقيق، سآتي بالتأكيد.

تمّر أنّا بأدينا دون أن تَنْظُرَ إليها. لأنّا وجه نحيف ووجنتان كالِحتان من الغيرة، لأنها عرفت أن أدينا تعيش مع باول منذ ثلاثة سنوات. ذراعاها عاجزتان، إلى الحد الذي يتوجب عليها فيه أن تشبك أصابعها لتستطيع الذهاب، كما أنها كانت مضطرة لترفع ساقيها إلى الأعلى عند كل خطوة تمشيها عندما تصعد الدرج. بعد ذلك سارت ببطء وهي تجر ساقيها عبر الكراسي الفارغة داخل القاعة. وقد حاولت أن تبدو طبيعية في مشيتها وأن تُخفي مظاهر الحدّة عن وجهها قبل أن تجد نفسها بين باول وأدينا. سمعت أدينا وقع الخطوات في القاعة ونظرت إلى وجه

باول، الذي انتزع نظرة الوداع انتزاعاً. ذهبتُ أنّا، دون أن تنظر إلى الوراء، وغادرتْ القاعة من خلال باب جانبيّ.

تدور زجاجةُ العرق من يد إلى أخرى، الأصوات تتداخل. أمسية جميلة، في بلدة جميل. نستطيع أن نشنق أنفسنا جميعاً. الموت الجماعي ممنوع. إذا متنا، فسنغادر هذه القاعة بهدوء. سأقوم باستخراج شهادة وفاة جماعية لنا، قال باول. رفع سورين الزجاجة إلى فمه وهو يقول في عنق الزجاجة، والخمر يترقرق من بين أسنانه، أعطني لطفاً وصفتي الطبيّة المفضلة التهاب في طبلة الأذن.

يهبط باول الدرجات، بينما تقفز أدينا بالقرب من درجات خشبة المسرح. يتمشى باول بين الطرق الكثيرة الموجودة بين الكراسي الفارغة في القاعة، ويسلك الطريق ذاتها التي سلكتها آنا من قبل. تمشي أدينا خلفه.

تُحِسُّ أدينا بأضلاع باول، فسترته رقيقة. الشارع مظلم وليس ثمة ما يهدر سوى السماء. فليس في وسع الماشي أن يرى الأشجار، أو السيارات أو البشر. الإسفلت بارد ونعال الأحذية رقيقة. يرتجف عنق أدينا. لكنّ الطريق حاضرة والأحذية تتحرك فوقها. تزحف حركة الأحذية تلك إلى الوجنات إلى جوار باول يوجد الملعب، وهو هادئ ومرتفع. إنه جبلٌ، يصعب أن تطير فيه الكرة، لكن القمر يجري فيه ليلاً.

تتميّز الطريق إلى المستشفى بطولها المظلم وارتفاعها. بعض نوافذ المستشفى مضاءة. لكنّ نورها لا يكاد يكفيها، لهذا فهي لا تستطيع أن

تنشر نورها بعيداً.

قال باول: تأملي المشهد. فقد سبق لي ذات مرة أن أحصيت عدد النوافذ، فبلغت مائة وأربعاً وخمسين نافذة. في الصيف رمى أربعة مرضى أنفسهم من النوافذ، ولو لم يفعلوا ذلك لقضوا نحبهم فوق أسرّتهم. إنّ الأمر لا يتعلق بالأغنية، فمنذ شهور ليس لدينا قطن ولا ضمّادات، فنحن نستخدم بقايا مصانع الجوارب.

قبّل باول أدينا، وبقي يضع فمه على فمها. يداه دافئتان، أغمضت أدينا وأحست مقدار ما لدى باول من اندفاع جنسي. أبعدتْ فمها. ووضعت جبينها على عنقه. ظلّت أدينا تنتعل حذاءها وتقف بين قدميه في وسط تقاطع الطرق الذي يقسم الشارع نهاراً. أصابت ياقة قميصه أذنها. أذنا أدينا بعيدة عن رأسها، إنهما في الخلف، حيث تعوي الكلاب. أما عيناها فهما في الأعلى حيث يسبح القمر ويفتش عن الفجوات بين الغيوم.

أذهب حالاً، قالت أدينا

بعد ذلك سارت أدينا بخطى قصيرة فوق الشارع، فوق الإسفلت، الذي لم تَجِدْ فوقه شيئاً. لكنّ إيقاع الأحذية يبقى كثيفاً والجبهة ساخنة. كي تستطيع أن تستمر في السير فوق الشارع. أدارت أدينا رأسها عند حجر الرصيف. أما باول فلم يتحرك وظل واقفاً وكأنه ظل. وجهه كان بمثابة بقعة مشرقة. يقف باول على مُفْترق الطرق وينظر نحو أدينا. يحّرك الريح شعر باول فتهب رائحة كرائحة الأرض المبلّلة والعشب المقصوص حديثاً.

خلف المستشفى هناك غابة. إنّها ليست كذلك، فهي مشاتل تركت كلّ شيء ينمو على نحو بريّ وهي أقدم عمراً من مجموعة الوحدات السكنية الموجودة في طرف المدينة ومن المستشفى. وفي الأسفل عند الجذور، حيث توجد بعض الجذوع، يمكن التعرّف على بعض المجموعات. أما في الأعلى فتتداخل الإبر مع الأوراق وتتغير على نحو يومي. وقد ظل معروفاً على امتداد السنوات، أنه ليس ثمة شجرة هنا تناسب الأخرى، أي أنّ ما هو خلف المستشفى أرض فيها أشجار لا ملامح لها. يرى المرضى في الطوابق العلوية الأشجار بوضوح ويشعرون بالانزعاج. يعرف باول أنّ المرضى يقفون ساعات وهم يحملون المناظير ويتأملون ذلك المكان، ويصبحون أقرب إلى حرّاس الغابة.

بدأ تأمل المكان بواحد من حُراسّ الغابات القادم من جبال الكاربات الغربية ولم يتوقف بعد ذلك. كان حارس الغابات هذا في الطابق العاشر، وقد زاره ذات يوم زميل له يعمل في الغابة ذاتها، فأحضر له المنظار، كما قال، ليملأ به وقت فراغه. صار حارس الغابات المقيم في الطابق العاشر، ينظر هو والمرضى إلى الغابة على امتداد النهار. وعندما جاء حارس الغابات، زميله، للمرة الثانية مع أرملته والتابوت، أخذ معه طقم أسنانه ونظارته ومقص أظافره وأبقى المنظار للرجال المرضى. بعدها صار الجميع، حتى الطابق الثالث، حراساً للغابة، لأنهم تعلّقوا بالمنظار. وثمة قوائم تربط بين الطابقين العاشر والثالث. وفي القائمة تُوجد الأسماء والأيام والساعات، وتبيّن القائمة الوقت والمدة التي يُسمح

فيها للمريض بتأمل الغابة.

نظر باول ذات مرة إلى الغابة بالمنظار، لأنه رغب أن يعرف ما يراه حُرّاس الغابة من المرضى. فهو يعرف الغابة وقد اعتاد أن يتمشى فيها بعد أن ينهي عمله، في كثير من الأحيان. لكن باول ذُعر بعد أن رأى بالمنظار الأكوام الضخمة من الإبر والورق. كما أخافته الأشجار المتشابكة التي ينمو العنق فيها فوق الرأس. أما الخشب فيعرف باول كيف ينمو هناك. فالبرّي يطرد الأليف والضوء يقصّ الأليف من الأعلى والتربة تقصّه من الأسفل. أما الأعشاب فتبدو قريبة من خلال المنظار، إذا ما قورنت بالقدم عندما تطأها.

يقول حراس الغابات من المرضى إنهم يرون الكلاب والقطط، كما يرون الرجال والنساء الذين يقفون في الظلام في رابعة النهار، أو يلتقون عند بدايات الظلمة في المساء، كما يرون قبل الظهر الأطفال الذين يختبئون عن الأطفال الآخرين، حيث يُقيّد طفلٌ طفلاً آخر ويربطه بالأعشاب. وعندما لا يقوم أحد بالبحث عنه، ينسى لعبة الاختبار تلك.

يسمع باول الأطفال لأنهم في أثناء بحثهم عن الألم، يتسلّقون ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة في الساحة الخلفية للمستشفى، للوصول إلى عربات المرضى الصدئة التي لا نوافذ لها.

الرجل الأصغر يذهب
صوب الطابق الأكبر

فوق الزجاج الأمامي للسيارة تراب كثيف.

مرفقه يتكئ على شعرها. فمه يهلث وبطنه يهتز. كانت تضغطُ وجههَا على المسند الخلفي. أصغت إلى صوت دقات الساعة على المعصم. للدّقات رائحة سيارة تسير على عجل بعد استراحة الظهيرة وتعبئتها بالبنزين. ملابسه الداخلية ملقاة فوق أرض السيارة وبنطاله معلّق فوق المقود. خلف الزجاج تبدو سيقان الذرة تميل إلى الأمام وتنحني صوب وجهها. أما ملابسها الداخلية فتحت حذائه.

الشَّعرُ الذي يتّدلى فوق أكواز الذرة مفكّك وهشّ. أوراق الذرة تجّف بسرعة، فالجفاف يصيب الساق وتنمو فوق الذرى العلوية لحقل الذرة سماء بلا لون.

تُغلق عينيها. السماء التي لا لون لها فوق حقل الذرة. تتكسر فوق جبينها.

جلبةٌ في الخارج

ترفع عينيها. درّاجة هوائية تتكئ على سيقان الذرة في الحقل ورجل يحمل كيساً فوق ظهره ويسير نحو الدّراجة. تقول: جاء أحدهم. صدمت سيقانُ الذرة الرّجلَ الذي يحمل الكيس فأصابت رأسه.

فوق ملابس كلارا الداخلية آثار حذاء. ارتدت كلارا ملابسها الداخلية، لن يأتي الرجل إلى هنا، فهو مشغول بالذرة التي سرقها. قال

باؤل. نظرت كلارا إلى ساعتها. جرّ الرجل الدّراجة الهوائية عبر سيقان الذرة الجافة.

تقول كلارا إن عليها أن تعود إلى المصنع. سحب باؤل بنطاله من على مقود السيارة، فسقطت من جيوب البنطال بذور حبات زهرة عباد الشمس فوق ساقيه العاريتين، فسألته كلارا عن المدة التي يسمح له فيها بالغياب عن المحكمة.

محرك السيارة يأز ويملأ الترابَ بلون رمادي. ردّ باؤل أنا لا أعمل في المحكمة.

ملابس كلارا تجعّدت وظهرها يتصبّب عرقاً. سألته كلارا: هل أنت محام؟ فقال: نعم، لكنني لا أعمل في المحكمة. السماء تصبح واسعة، لأنّ الذرة تبحث عن المدى الواسع وتسير في اتجاه مغاير. أما الحقل الذي يسير مع الأفق فيمشي بسرعة منخفضة وبائسة. قالت كلارا، لقد سبق لي أن رأيتك في سيارة أخرى. فتساءل باؤل، أين؟ نظرتْ كلارا إلى حبات بذور عباد الشمس التي تساقطت تحت حذائه وقالت: في الكاتدرائية في الشارع القريب من الحديقة. أدار باؤل مقود السيارة بهدوء، وكأنّ يديه لا تقومان بأية حركة وقال: السيارات السوداء موجودة في كل المصانع. تأملت كلارا عقارب الثواني في الساعة وقالت، لكنّك لا تعمل في أي مصنع.

صمت باؤل وهزّ منكبيه. وصمتتْ كلارا ونظرتْ في الاتجاه المغاير.

هناك زاوية، تضّم السماءُ فيها المشهدَ. هناك يكون تَعَبٌ شاحبٌ ينتظرنا ويعلو كلَّ يوم في فضاء المدينة، في أثناء استراحات الغداء وفي

فترات ما بعد الظهر الفارغة في المصنع، وفي اللعب الذي يغلق العينين بين الأسلاك والصدأ الذي يضغط على العنق، لأنّ يد البواب تذهب عميقاً في التفتيش داخل الجيوب. إنّه التعب الذي يتكرّر بين محطات المترو المتشابهة ويظهر في المقارنة بين الوجوه التي غدت قديمة، التعب الذي يتخطى النظر وينبع من الرأس ويذهب إلى المنزل. ويبقى فيه بين النافذة والباب طيلة النهار إلى نهاية اليوم.

وعندما أفكر بالأسوأ، تقول كلارا، وتنظر إلى صدغيه. تتحرك البقعة السوداء على عنق باول أمام الزجاج، سوداء مثل التراب الذي يحفره الخلد إلى جوار النافذة، بالقرب من العشب.

تبحث السيارة عن الحفر الموجودة في الشارع، باول يسحب ربطة عنقه المنقّطة ذات اللونين الأزرق والأحمر، ثمة شعر فوق ياقة قميصه، أبعدته كلارا بأطراف أصابعها. ضغط باول عنقه على يدها وسألها ما هذا، فردّت لا شيء، مجرّد شعر. ولكن ماذا ستقول لزوجتك؟ تحيط أشجار الحور بالطريق من الجانبيْن. بقي باؤل صامتاً ولم يقل شيئاً. سألته: ما عمر ابنتك؟ ثماني سنوات. كانت أوراق أشجار الحور الصفراء تتساقط على حافتي الطريق. ارتبكت أصابع كلارا وتركت الشعر يسقط. قال باؤل.

أنا أدري ما أدريه
غُرابٌ يجلسُ فوق العشب ويتلألأ

إلى جوار الغرفة الخاصة بمكبّر الصوت، هناك سلّم لإطفاء الحريق، يقود السلّم إلى الغرفة الواقعة تحت السطح مباشرة. للغرفة درج حديدي

رقيق. صعدت كلارا في أعقاب إيفا. النافذة الصغيرة غير مغلقة، بل مفتوحة جزئياً. دفعت إيفا إطار النافذة.

في الساحة الواقعة في الأسفل. على الجهة المقابلة، ثمة ثلاثة أدراج وباب مفتوح وفي الممّر خلف الباب، هناك غرفة لتغيير الملابس، وعلى اليمين غرفة استحمام الرجال.

شعر مارا يتدلى أمام وجه إيفا، ضغطت أنكا بذراعها على ظهر ماريا. أحسّت كلارا بمشابك شعر ماريا على أذنها.

يصعد الرّجالُ الدَّرجَ، كالعادة، يومياً وهم يرتدون أثواب العمل ويتجهون إلى الممرّ الواقع على الباب الأيسر. بعد مدة من الزمن يعودون عراة من الباب الأيسر ويقطعون الممرّ ويذهبون صوب الباب الأيمن إلى دوشّات المياه. يملأ الماءُ الساخنُ الممرَّ بالبخار. وفي المدّة الواقعة بين أيار وأيلول، أي عندما تكون الشمس عند العصر على الجهة المقابلة لساحة المصنع، وتكون أشعتها على الأسلاك مائلة، فإن الضوء يتوقف فوق الدرج ويضيء الممر. ويكون الضوء لامعاً إلى الحد الذي يكسر فيه البخار، ويكون من الممكن أن ترى الرجال العراة وهم يتنقلون بين باب وآخر.

يَحْني هؤلاء الرجالُ العراةُ باطنَ أقدامهم وهم يطأون الأرض الإسمنتية الرطبة والباردة والزلقة بخطى متردّدة، لهؤلاء الرجال بطون ضخمة وظهور يابسة أما أكتافهم فيجرّونها جرّاً، بطونهم ملأى بالشعر وأفخاذهم ضامرة.

قالت مارا: إنّ للشّقر أذيالاً بيضاء. أتكأت إيفا على ظهرها وقالت

إنّ لكلّ المولداڤيين أذيالاً بيضاء. كلّا أجابت ماريا، فهذا الأمر لا ينطبق على غيورغ. فقالت كلارا: أنا لم أر حتى اليوم ذيله. كان شعرها يتحرك فوق عينيها، فقامت بإبعاده وأمسكت بشعر كوز الذرة بيدها. قالت إيفا، بأن غيورغ قد صعد الدرج قبل قليل. سيأتي إلى هنا في الحال. رفعت مارا وجهها فوق شعر إيفا، بدت عيناها كبيرتين، أما كلارا فقد تركت شعر كوز الذرة يقع.

قالت ماريا، يا إلهي، إنّ للقزم أكبر الأعضاء. فالرجل الأصغر يذهب إلى الطابق الأكبر.

وقفت كلارا على أطراف أصابعها.

العشب في الفم

على النافذة المقابلة هناك امرأة تسقي أزهار البيتونيا. المرأة ليست في سن الشباب ولا هي متقدّمة في العمر، كما سبق لباول أن قال منذ سنوات. كان للمرأة آنذاك شعر مموّج، كستنائي اللون. عندما كان باول يقيم في أدينا وكان لزجاج النافذة يومها فتحة مائلة. مرّت خمس سنوات منذ ذلك اليوم، لم تؤثر في وجه المرأة شيئاً. لكنّ شعرها لم يعد ناعماً، ولم يصبح باهتاً. أما زهور البيتونيا البيضاء فهي تتغيّر كل عام، لكنها تبقى تحتفظ بشكلها.

كانت البيتونيا البيضاء تتّدلى نحو الأسفل، ولم يكن منظر المرأة وهي تسقي تلك الزهور شبيهاً بالجذع المقوّس. أما الزهور التي كانت تتخذ شكل القِمْع فلم تكن تراها على الإطلاق.

وعندما كان أحدهم يقف في الشارع ويرفع رأسه إلى الأعلى، كانت الزهور تبدو على ارتفاع شاهق، لتؤكد لمن يتطلع إليها أنّ هذه البقعة البيضاء هي زهور البيتونيا، وتظل جوارب الأطفال ومناديلهم تطير إليها منذ الرياح التي تهب في الصيف إلى الخريف.

تقف أدينا فوق فراء الثعلب أمام الخزانة نصف المفتوحة وهي تبحث عن السترة القماشية الرمادية. فالستر القماشية الصيفية الخفيفة معلقة في الخارج، أما الأخرى الشتوية فهي معلّقة فوق المشجب في الداخل. وعندما تتغيّر البرودة والحرارة، يتغير موضع الملابس في الخزانة. عندها تدرك أدينا مقدار المدّة التي غابها إيلّي، فملابسه لا تتغيّر مشاجبها، ولا

جواريرها ولا القسم الخاص بها، وهي ملقاة وكأنّ صاحبها غير حي. هنا تظهر صورته على الجدار وهو يطأ العشب. لكنّ العشب لا يخصّه كما أنّ الحذاء لا يخصّه أيضاً، ولا يخصّه البنطال والجاكيت والقبّعة.

قبل فصلين من فصول الصيف، نودي على أدينا بصوت عال، اتجهت أدينا صوب النافذة. كان إيلّي يقف على الجهة المقابلة في الوحدة السكنية، قريباً من زهور البيتونيا. رفع إيلّي رأسه وصاح:

لمن تتفتح هذه الزهور؟ فصاحت أدينا: تتفتح لنفسها.

تتحرّك أدينا وهي ترتدي سترتها الرمادية. قدمها تَنْزلق فوق فراء الثعلب. يتنحّى ذيل الثعلب عن الفراء. إنّه موجود حيث تكون خطوط الفراء ضيّقة على الظهر ومسحوقة تحت وطأة قدميها. تضع أدينا الثعلب والفراء الأسفل، تتأمّل الوجه الخلفي، فيبدو الجلد أبيض متجعّداً كالعجين القديم. الفراء في الأعلى والجلد في الأسفل أكثر سخونة من الأرضيّة ومن يديها.

إنه فاسد وعصري، هكذا فكرّت أدينا. جرّت أدينا ذيل الثعلب صوب الفراء حتى بدا وكأنه نما ثانية. يبدو إيلّي في إطار الصور يرتدي ملابس ليست له ويمتلك عينين ليستا له، وهو يتأمل يديها. إنه يضع حفنة عشب في فمه.

الفساد والعَصْرية مبللتّان. فكرّت أدينا. والفراء قادر على تجفيفهما، مثلما يذبُل العشب. في هذه الصورة يتبدى العشب بوصفه الشيء الوحيد الذي يخصّ إيلّي. فالعشب يجعل الوجه متقدّماً في السّن. تذهب أدينا إلى جوار المطبخ، فترى أن المرأة تسقي زهور البيتونيا

البيضاء من نافذة المطبخ.

تتفتح هذه الزهور صباحاً، عندما يبزغ الضوء وتنغلق في المساء عندما تُصبح الأجواء رمادية. كما أن زهورها ذات الشكل القِمْعي تدور كل يوم، وتستدير تماماً في تشرين الأول. إنّ لهذه الزهور ساعة عمل كالظلام والنور.

هناك سكيّن ملقاة على طاولة المطبخ، قشور السفرجل ونصف حبة السفرجل. جفّ جزء الحبّة في الهواء، مثل جلد الثعلب في الأسفل، لكنه ظل بنيّاً كشعر الثعلب، ثمة صرصور يأكل من قشرة حبة السفرجل.

يتوجب على المرء، كما ترى أدينا، أن تكون لديه قشرة سفرجل وسكّين، وأن يقوم بتقشير قشرة السفرجل الطويلة وأن يأكل تلك القشرة التي تضغط في العادة على اللثّة. وعلى الإنسان أن يعض ويمضغ ويغمض عينيه، حتى تنتقل القشرة من اليد إلى المعدة.

وضعت أدينا يدها فوق طاولة المطبخ ووضعت وجهها بين راحتيها، واستردّتْ أنفاسها.

إنّ على المرء أن يعتقد، بأن عليه أن لا يدع نصف حبّة سفرجل، لأنها ستجفّ كالفراء، وتذبل كما يذبل العشب. وعندما يفرغ الإنسان من تناول القشرة كاملة، وتغدو كلها في معدته، تقول أدينا وهي تضع يديها فوق الطاولة، فإنّ عليه أنْ يفتحَ عينيه ويكونَ شخصاً مختلفاً.

أن يكون شخصاً لا يأكل القشور.

وجه بلا وجه

جهاز التسجيل يدور. صوت عميق صادر من جهاز التسجيل الموضوع فوق طاولة المكتب يقول، إذن أنت **كاشول**. كيف يتهجى المرء كلمة **كاراكزولني**؟ سأل صوت خفيض. اسم هنغاري، ردّ صوت عميق، ولكن هل للاسم معنى بالهنغارية؟ أجاب الصوت الخفيض إنها تعني أعياد الميلاد. ضحك الصوت العميق.

تصفّح باؤل أحد الملفّات، ووضع إحدى الصور في الضوء على نحو مائل وضحك مطولاً على نحو يعلو على الصوت العميق.

الاسم الأول، سأل الصوت العميق. **ألبرت**، ردّ الصوت الخفيض. وماذا عن **أبي** ABI. هكذا اعتاد أصدقائي أن يسمّوني. وماذا عن أبيك؟ سأل الصوت العميق. كان يناديني هو الآخر **أبي**. لكنّه متوّفى. أوضح الصوت الخفيض. صار الصوت العميق مشابهاً للصوت الخفيض عندما قال، هكذا إذن، ولكن متى توفي أبوك؟ صار الصوت الخفيض مشابهاً للصوت العميق عندما أجاب: أنت تعرف ذلك على وجه التحديد. ردّ الصوت العميق: كيف؟ فأجاب الصوت الخفيض، لأنك تسألني. على العكس من ذلك. قال الصوت العميق، فنحن لا نسأل عما نعرفه. صوت القّداحة يطقطق في مكبّر الصوت. كنتُ يومها في روضة الأطفال، قال الصوت العميق، مثلك تماماً. أبوك يدعى **ألبرت**، مثلك أيضاً. هل ما تزال تتذكرّ أباك؟ كلّا، ردّ الصوت الخفيض –لقد سبق أن قلت، قال الصوت العميق، بأنّ أباك قد سمّاك **أبي** ثم قلت بعد

ذلك، بأنك لا تستطيع أن تتذكره. هذا لون من التناقض بالتأكيد. ليس هذا تناقضاً، ردّ الصوت الخفيض. لقد سمتني أمّي أبي. ما الذي تريده مني؟

لقد قلت في البداية إن أصدقاءك يدعونك أبي، قالت الصوت العميق، هذا تناقض. ثم إنني، كما تلحظ يا كاشول، لا أُحسن أن ألفظ اسم عائلتك. هنا صار الصوت العميق مشابهاً للصوت الخفيض وهو يقول: ألا تلحظ يا ألبرت بأنّ التناقضات تتلاقى، وهل بوسعي أن أناديك، كما يفعل أصدقاؤك باسم أبي؟ كلّا. ردّ الصوت الخفيض. كان الأمر واضحاً لي. قال الصوت العميق عندها سأل الصوت الخفيض: ماذا تريد مني؟

أبقى باؤل الصورة تحت المصباح الكهربائي. الصورة قديمة ولا تلمع باستثناء بعض خطوط الضوء التي تتلاشى في السماء التي يبدو كلّ ما فيها فارغاً. في المكان الذي توقف باؤل عنده، جدار، يتكئ عليه رجل ذو وجنتين عريضتين وأذنين كبيرتين. خلف الصورة دوّن باؤل تاريخاً معيّناً.

الصوت العميق يسعُل، صوت حفيف بعض الأوراق في مكبّر الصوت. كما يجري هنا. قال الصوت العميق الذي صار مشابهاً للصوت الخفيض، لقد صرتُ مجنوناً، فقد عشقت امرأة تحبّني هي الأخرى، لكنّ المحبوبة غبيّة، لأنّها في الواقع والحقيقة لا تحبّني. هذا تناقض أيضاً والتناقضات تترابط وتتلاقى. قال الصوت الخفيض، هذه أغنية أيضاً.

نظر باؤل في الساعة، ووضع في الملف الصورة التي تحتوي على الوجه. بعد ذلك أغلقَ مكبّرَ الصوت ودفعَ الجارور إلى الأمام. رفع سماعة الهاتف، كانت إحدى شجرات الحور تقف أمام النافذة. نظر صوب الخارج، عيناه صغيرتان، ونظرته مبللّة كشجر الحور. اخترقت نظراته أغصان شجرة الحور، دون أن يكون قادراً على رؤية الأغصان. اختار رقماً معيّناً لكي يتصّل به، لكن سماعة الهاتف تحركّت مرتين، فقال لنفسه، إن هذا الأمر لا يصح، فالساعة الآن هي الرابعة.

صمت باؤل، ونظر صوب أشجار الحور، الهواء يهب والأوراق مبتّلة وقداحتّه تشتعل. تحمّر السيارة، فينفخ الدخان ويُغلق الباب.

اكتب! قال الصوت. العينان في الجبهة بُنيّتان فاتحتان. تدور العينان في محجريهما، وتصبحان مظلمتين. المحفظة غليظة مثل إصبع وملقاة فوق الورقة التي تطالع فيها العينيْن. تتحرك شجرة الحور في الخارج، ويتحرك الفم بين الهاتف ومصباح طاولة المكتب. أما عينا أبي فمعلّقتان بزجاج النافذة، فيما المطر يهطل في الخارج، دون أن يتمكن أحد من رؤية المطر وهو يتساقط فوق أشجار الحور، وكأن هذه الأشجار غير موجودة، ولا يرى المرء آثار هذه الأمطار، إلّا عندما يرى المرء قطرات الماء تتساقط عن أوراق الشجر. ضَغَط أبي بأصابعه على قلم الحبر، وفوق السطح يضيء المصباح الكهربائي إلى الحدّ الذي تهتز فيه خيوط الضوء. يتأمل أبي الطاولة العارية. قلم الحبر ليس خاصاً به، كما أنّ الأوراق الفارغة لا تخصه. الصوت يصرخ ويهتز، كما تهتّز خيوط الضوء. تحت الصوت الموجود أسفل الذقن، ثمة جُرحٌ مقطعي صغير يعود إلى بضعه أيام خلت.

ينفتح الباب بالتدريج. العيون الموجودة إلى جوار المصباح الكهربائي نصف مفتوحة. ولا ترفع نظرها نحو الأعلى، لأنها تعرف الشخص القادم.

تأمّل أبي الورقة الفارغة الواقعة خلف حافة الطاولة، ولم يضع قلم الحبر الموجود بيده فوق الطاولة. عاد الرجل الذي يرتدي ربطة العنق المنقّطة والتي يمتزج فيها اللون الأحمر بالأزرق إلى الطاولة ومدّ يده وتأمّل الورقة الفارغة. يتأمل أبي البقعة السوداء الموجودة بين ياقة القميص والأذن ومدّ يده وقلم الحبر موجود بين أصابعه، فقال الرجل: **باڤل مورغو** وضغط على يد أبي وعلى قلم الحبر.

وجه بلا وجه، فقد فَقَد وجهه، يقول الجرح المَقْطعي، وهو يرفع يده إلى جبينه. جبين من الرمل، أي أن رأسه يخلو من القدرة على التفكير. صوت بلا صوت، أي أن أحداً لا يُصغي له، كما تقول. تتجاور البقعة السوداء والجرح المقطعي وينظران معاً عبر الزجاج.

لعلّ الرجل صاحب البقعة السوداء ينظر إلى أشجار الحور، فهو يستطيع أن يحتمل ذلك، وأن يتّجول بأفكاره حيث يشاء. هكذا فكّر أبي. فالعينان نصف البّنيتين، مفتوحتان على وسعهما، وقاسيتان. وهما تلمعان وتتأملان أبي. العينان نصف البنيتين موجودتان فوق خديه اللذين لا يخّصانه وموجودتان في أطراف أصابعه وفي وجهه وفي أنفاسه الصغيرة التي تلهث أمام الضوء الساطع.

تناقض أن يموت المرء ولا يجد قبراً، يفكّر أبي، وأنّه توجّب عليه أن يُصرّح بذلك، وأنْ ينبض عنقه وأن لا يتحرك فمه. وتناقض، عندما

يسافر المرء بوصفه ابناً لأحد الموتى إلى إحدى المدن، التي يوجد فيها سجن، وعندما يبحث المرء بين كلّ من يقيمون هنا عن كل ما هو عاديّ ومكسور، فلا يجد سوى العادي. عيون عاديّة وخطوات عادية وأيد عادية وجيوب عاديّة. في واجهة العرض صور حفل زفاف عادية، خِمار العروس في الحديقة، يشبه الزبد الموجود على الماء الموجود فوق العشب. وإلى الجوار يبدو القميص الأبيض داخل البدلة السوداء كالثلج فوق صخور الأردواز الرمادية اللون وهناك صوره اعتيادية للخريجين مع الممرّضات.

تناقض أيضاً أن يلتقي الرجال العاديون والنساء في شوارع المدينة، وأن يدخلن الرعب إلى قلب ابن المتّوفى لأنّهن يقلن بدلاً من **كيف الحال**، سؤالاً آخر: **كيف أنت والحياة.**

وجه بلا وجه، يتساءل الرجل ذو البقعة السوداء عن المقصود بذلك.

تناقض كذلك، يفكرّ أبي، عندما يضطر السجناء وهم بين الجوع والصدمة، وعلى إيقاع الألم، إلى تحويل ديونهم إلى أثاث لمصنع الأثاث، وأن لا تكون لديهم أسرّة خاصة بهم، باستثناء الأخشاب الضامرة والأصابع الضامرة، وأن يقوم الزوجان الشابان، بعلم أو بغير علم، بشراء الكراسي والخزائن التي صنعتها أيدي هؤلاء. كما أنّ ارتفاع السماء فوق السجن الذي يصيب الناظر إليه بالدوار هو من التناقضات في هذه المدينة، كما أنّ الوجود القديم للسماء ورؤيتها لما يحدث، ووقوع المدينة في طريق أشعة الشمس المباشرة والباردة، حيث الغربان

تتبّدل ببطء وهدوء فوق السطوح؛ هو من بين التناقضات.

ليس ثمة أحد مقصود، فهي مجرّد أغنية. قال أبي. يقول صاحب الجرح المقطعي، حسناً فلماذا تغنونها إذا كانت لا تقصد أحداً؟ لأنها ليست أكثر من أغنية، يردّ أبي.

يقول صاحب البقعة السوداء، المقصود بالأغنية هو رئيس البلاد. كلّا، يرّد أبي.

الجدران مملوءة بأباريز الكهرباء. ولديهم مِطْرقة. عند قدم المصباح الكهربائي هناك أعداد صفراء وقائمة بالمحتويات.

قال لصاحب البقعة السوداء، يبدو أنه ليس لديك علم، فصديقك باول اعترف بأنه هو الذي كتب الأغنية.

على طرف الطاولة وباب الخزانة توجد قائمة المحتويات الصفراء. قال أبي. إنّ أبي لا يستطيع أن يعترف، لأن ذلك غير صحيح. ضحك ذو البقعة السوداء، ورنّ جرس الهاتف. وضع صاحب الجرح المقطعي سماعة الهاتف على خدّه وقال: لا، نعم، ماذا، كيف، حسناً. همس الفم في أذن صاحب البقعة السوداء. فبان في وجهه أثر الضوء الساطع، دون أية أمطار.

قال صاحب البقعة السوداء، كما ترى، فإن صديقك باول لا يقول لك كلّ شيء.

يسود الظلام خلف النافذة، وتختفي أشجار الحور.

تنعكس آثار المصباح الكهربائي على الشقوق والخزانة والجدار وأباريز الكهرباء والباب. غرفة مثل نصف نافذة ذليلة ومنكمشة، ولا أحد فيها.

يقول ذو البقعة السوداء. حسناً، أكتب إذن من هو المقصود. أما صاحب الجرح المقطعي فيقول، عندما نقتنع، يكون بوسعك أن تغادر، ويضيف ذو البقعة السوداء، أما إذا لم نقتنع، فستبقى وتفكرّ في الأمر.

وضع ذو الجرح المقطعي الملّف تحت ذراعه، في حين وقف ذو البقعة السوداء عند الباب ونفخ الدخان من منخريه. قال ذو الجرح المقطعي: عندما يكون المرء وحيداً، فإنه يفكرّ على نحو أفضل. ثم بلّل أنامل أصابعه بريقه وأحصى خمس ورقات. العينان البنيّتان الفاتحتان مدوّرتان وسعيدتان وقد قالتا: ثمة ما يكفي من الورق.

يقول صاحب البقعة الجلدية، إنّ هذا يعجبني، ترى ما الذي تقولونه في أغنيتكم التي لا تقصدون فيها أحداً: يخيط الليل حبلاً من الظلام.

أغلق الباب من الخارج، وصرّ الباب في المفتاح. تمدّدت الأرضية في الضوء. ينجذب دخان السجائر صوب النافذة المعتمة. وسوى ذلك فإنّ شيئاً لم يتحرك، فالطاولة الفارغة بقيت والكرسي بقي وبقيتْ الخزانة والأوراق الفارغة، كما بقيت النافذة.

إنّه لتناقض، يفكرّ أبي، أن تكون هذه النافذة في الخارج. فوق الشارع المبتل، مجرّد نافذة لا أكثر. وأن ينقسم اليوم والليلة والعالم إلى قسميْن، الذين يسمعون ويطيعون والذين يصمتون ويصمتون. وإنه لتناقض كذلك أن ينمو الطفل أمام حوض الاستحمام الصدئ. في حقل يموج بإبرة الراعي. إلى جوار خليّة النحل وأن يسأل في الساحة الخاصة بأمه، عن أبيه. وعندما ترفع الأم ذراع أحد الأطفال إلى الأعلى. فإنها تضع يده في يدها، وتحني أصابعها على تلك اليد الصغيرة وتمد

أصبعها السّبابة وترفعها إلى الأعلى. وعندما تسحب الأم يدها وهي تقول: ألا ترى، ذلك الشيء في الأعالي، وعندما يرفع الطفل رأسه قليلاً وينظر نحو السماء وتكون الأم فوق إبرة الراعي وتنظر نحو حوض الاستحمام. وعندما يُدخل الطفل أصبعَ السّبابة الممدود داخل الفتحات الضيقة لخلية النحل، حتى تقول له الأم، ابتعد، فأنت توقظ الملكة. وعندما يسأل الطفل لماذا تنام الملكة فترد عليه الأم، بأنّ الملكة متعبة. إنه لتناقض، عندما يسحب الطفل أصبعه لأنه لا يريد أن يوقظ الملكة المتعبة ويسأل عن اسم، فترد عليه الأم بأنه يُدعى: **ألبرت**.

كتب أبي فوق الورقة الفارغة:

كاراكزولني ألبرت
الأم ماجدة واسمها عند الولادة فوراك
الأب كاراكزولني ألبرت

لا تُحسّ اليد بذاتها. ففي داخل زجاج النافذة، المظلم ونصف المكتمل توجد الغرفة رقم 2. المصباح يضيء، ليس ثمة أحد هنا، باستثناء ثلاثة أسماء فوق ورقة.

يفتح باؤل الباب وراء الطاولة عينان لإحدى النساء تنظران. تحمل المرأة قلم حبر بيدها. فوق الطاولة ورقة، عليها ثلاثة أسماء قصيرة ومائلة.

دعنا نرى، يقول باؤل، وهو يلتقط الورقة ويشرع بالقراءة.

تطير يداه والكرسي يهتّز. يسقط رأس المرأة فوق الخزانة وتبقى عيناها جامدتين وواسعتين. الرموش السفلى مضطربة ومبلّلة أما الأخرى العليا فهي كثيفة وجافّة وترتفع كالعشب نحو الأعلى. الباب يُغلق، تبدو الخزانة مقبّبة في مقلتي المرأة. الوضع يبدو ساكناً إلى الحد الذي تظهر فيه الأشياء واضحة في الضوء. تستلقي المرأة أمام الخزانة على الأرض وحذاؤها تحت الكرسي.

تبدو الغرفة رقم 9 مضاءة عبر الزجاج المظلم للنافذة، وليس فيها أحد. يفتح باؤل بوّابة الحديقة. جذوع أشجار البيتولا تضيء العشب الأسود. المفاتيح تصلصل قبل الوصول إلى السكن. تفتح زوجة باؤل الباب من الداخل، قبل أن يتمكن باؤل من أن يدير مفتاحه.

تفوح من الزوجة روائح المطبخ، يُقبّل باؤل خدّها. تحمل الزوجة حقيبته نحو المطبخ. جبهة ابنته تبلغ حزامه أو أطراف ربطة عنقه. يرفعها باؤل إلى الأعلى، فتقول له: بابا شعرك مبلول ثم تنزلق نحو الأسفل.

يفتح باؤل الحقيبة، حزامها بارد ورطب. يضع باؤل عُبْوةَ قهوة وعلبة من الزبدة الخاصة بالإفطار، وكأساً من النوتلا إلى جوار التلفزيون وفوق رف المطبخ. جوقة عُماليّة تُنشد. فيغلق الأب الصوت. يبدأ بالعد ويقول: اثنا عشر ويضع اثنتي عشرة علبة صغيرة من السجائر فوق الثلّاجة إلى جوار الكلب الأبيض المصنوع من الخزف. ويقول إن مدير مبيعات اللحوم المبرّدة في رحلة وسيعود غداً وعندها سأرسل البواب ليحضر لحم العجل. يضع الشوكلاته فوق حبات التفاح في صحن الفاكهة، تسقط الشوكلاته من جوار الفواكه فيلتقطها باؤل، تمد ابنته يدها نحو ألواح الشوكولاته، فيسألها الأب عن وضعها في المدرسة، فتردّ الأمّ وهي تحرّك الحساء. غير مسموح بتناول الشوكولاته الآن فستتناول الغداء في الحال. ثم تنظر نحو الأب وهي ترفع المعلقة إلى فمها لتتذوق الحساء وتقول، لم يتحسن وضعها في المدرسة على الرغم من الشوكلاته.

ينظر الأب صوب شاشة التلفزيون. بقي من جوقة العمال امرأة ورجل يحنون رؤوسهم نحو الخارج ويحركون أقدامهم ويحنون رؤوسهم نحو الداخل ويحرّكون أقدامهم.

قلت لك منذ شهر، تقول الأم، إن عليك أن تذهب إلى المدرسة

وأنْ تتّحدث مع المعلمة، فالجميع يحضرون لها القهوة باستثنائنا، وهذا ما يظهر جليّاً في العلامات. ترشف الأم بعض الحساء. على الشاشة يتحرك الرجل يساراً في حين تتحرك المرأة نحو اليمين فوق خشبة المسرح. يُعلّق الأب جاكيته على مسند الكرسي.

يقول الأب، إن المعلمة لن تحصل منا على القهوة، بل ربما تحصل على صفعة فوق عينيها، وإذا ما تحدثت معها، فسنحصل نحن على القهوة منها.

سقطت قطرات من الحساء فوق المائدة. لم يكن ذلك لحم العجل، قالت الأم، أمّا قبل سبع سنوات فقد كان كذلك. أما الآن فإنني أطبخ هذا اللحم عدة ساعات ويظل مع ذلك قاسياً. فهذا اللّحم، لحم بقرة عجوز. تضحك الابنة وتُحرّك ملعقتها داخل صحن الحساء. تَعلْق ورقة بقدونس على ذقنها، تستخرج الأم ورقة غار من صحنها وتضعها على حافّة الصحن، تقول إن حذائها لن يكون جاهزاً حتى عيد الميلاد. إنّه جاهز لكنه لن يكون لي. فاليوم كان مفتش المدرسة مع زوجته في المصنع. اختارت زوجتُه زوجيْ أحذية. كان الزوجُ الأوّل من الأحذية رمادياً، بعد أن كانت تريد، في البداية، حذاءً بنيّاً. ثم كانت الأحذية السوداء غير جيدة، ثم أرادت حذاء أبيض له شبك. أما الحذاء الأسود المصنوع من الجلد اللامع فكان لي، وهو ما يزال مناسباً.

صنعت الابنة من قطعة اللحم شارباً. لعق الأب ورقة البقدونس الموجودة على أطراف أصبعه وهو يسأل الأم: المفتش؟ فترّد الزوجة وهي تتأمل الشارب الموجود فوق شفتي ابنتها. لقد حكى المفتش

للجميع عن وجود ندبتين واحدة فوق أصبعه الصغير وأخرى فوق الأصبع الأوسط.

يسير رئيسُ البلاد عبر صالة في أحد المصانع، وعاملتان تعطيانه باقاتٍ من القرنفل. العمال ينشدون، تتفتح شفاههم وتنغلق مع إيقاع الأيدي. سمع باۆل صوته وهو يقول: السيارات السوداء موجودة في كل مصنع، وسمع كلارا تقول: لكنك لا تعمل في أي مصنع. مد باۆل ذراعيه إلى الوراء وأغلق التلفزيون.

ركع مدير الشركة، تقول الأم، إلى جوار كرسيّ زوجة المفتش ثلاث ساعات. كانت عيناه متورمتين وفمه ملتوياً وضعيفاً. كانت يداه بمثابة نعلين، حاولا على امتداد ثلاث ساعات أن يكون النعل مناسباً لقدم زوجة المفتش. ولم يستطع بعد ذلك أن يمد أصابعه باستقامة. ولم يكتف بذلك بل إنه قبّل يدها في أثناء البروفات الخاصة بالحذاء. إنّ عليك أن ترى عضلتي ساقيها. سحب الأب قطعة لحم صغيرة من بين أسنانه. تجلس الابنة أمام الثلاجة وتعبث في حقيبة والدها. رشّت على يدها ثلاث قطرات عطر كثيفة من زجاجة عطر. إنّ لساقيها عضلات، قالت الأم، تشبه الخنازير التي يجري تسمينها، ولهذا فالحذاء المصنوع من الجلد اللامع لا يُفيدها. إنّ عليها أن تنتعل الحذاء العالي المصنوع من المطّاط. استنشقت الأم رائحة يد ابنتها، وأمسكت بالكلب الأبيض المصنوع من الخزف الأبيض والموجود على الثلاجة. بعد ذلك بدأت تحكي أنّ العمال ظلّوا يقلّدون دور المدير والمدام ويرفعون بناطيلهم إلى الأعلى، وصولاً إلى الركبتين، وصاروا يسيرون جيئة وذهاباً وهم

ينتعلون أحذية ذات كعوب عالية، ويمثّلون البروفات الخاصة بحذاء المدام.

يَعلقُ اللحم بالشوكة، بدأ التعب يظهر على عيني الأب والأم، أما وجه الابنة فيبدو ملطخاً بالشوكولاته وعلى الفم دائرة تشبه الأرض. تبكي الابنة. يتكئ الأب برأسه على يديه وتصبح جبهته ثقيلة، استمع إلى صوت الأم وهي تحكي عن حشو ساقي البنطال وصولاً إلى عضلات الساقين بالمناديل، والصعود فوق الطاولة ومكوث الستائر فوق الشعر. لكنه لم يعد يصغي. استمع إلى حقول الذرة وهي تتحرك بسرعة فوق جبهته، وإلى صوت كلارا وهو يقول: وعندما أفكرّ بالأسوأ.

فتح المدير الباب بقوة، تقول الأم، وأخبر الجميع بأنّهم سيخضعون لإجراءات تأديبية، بما في ذلك النساء اللواتي شاهدن ما جرى وضحكن، بما في ذلك أنّا. أصغى باؤل إلى ضحكة كلارا في وسط جبهته. أمسك بيد زوجته، فضغطت بفمها على أذنه، فوصلت القبلة إلى عنقه ووجنتيه وجبهته. وسمع صوته وهو يقول لكلارا، أنا لا أعمل في المحكمة.

كانت إذن زوجته موجودة إلى جوار فمه وكأنها ورقة غضّة ملفوفة. كنت أريد أن أعطيك هذا العطر هذه الليلة، قال باؤل ولم يستمع إلى صوته وهو يقول ذلك.

استمع إلى صوته يقول لكلارا، أنا أعرف، أنا أعرف.

شفرة الحلاقة

الملعبُ مُغْلَقٌ بسّد تُرابي. العشب منذ الخريف مُمزّق على نحو يسمح للمرء أن يشاهد من خلاله التراب والحجارة. بعيداً تقف الوحدات السكنيّة متلاصقة خلف موقف السّيارات الفارغ، وهي ليست أعلى من الأجمة التي تعلو السّد الترابي. الليّلك والياسمين والكركديه والنباتات الخشبيّة لم تُقَصّ، لأنها لا تنمو فوق السّد الترابي. صحيح أنها تفتّحت في بداية العام الماضي في غفلة من الزمن وفي بداية الصيف السريعة، لكنها تقف اليوم عارية فوق السّد الترابي، تهّز قضبانها ولا تستطيع أن تختبئ من الريح الذي يهب على الخشب بقوة.

عدّاء المسافات الطويلة، ليس سوى لوحة في الأعلى مصنوعة من الحجارة. لكنّ هذا العدّاء لم يعرف في المواسم العجاف أيّة حوافز. فعندما كان الخشب يخلو من الأوراق، يُعَدّ العدّاء فائزاً، فالوجوه الصارخة والملابس الكثيفة تقف ضمن طوابير الخبز، في حين تقف الشمس بعيداً عن الملعب غير قادرة على أن تبعث الدفء إلّا عند أصحاب الياقات البيضاء. كما أنّ العدّاء لا يشعر بالبرد الشديد، فهو يعدو وعضلات ساقيه عاريتان مارّاً بالناس الصغار في المدينة.

في موقف السّيارات تتوقف سيّارة ويخرج منها رجلان، أحدهما شاب والآخر أكبر منه سنّاً، وكلاهما يرتديان سترة واقية وينظران بسرعة نحو الشمس العمياء، ويسيران بخطى حثيثة وساقا بنطاليهما يتأرجحان وأحذيتهما تلمعان ويرميان قشوراً سوداء فوق الطريق،

فهما يأكلان بذور زهرة عبّاد الشمس.

يفتش الرجلان عن الطريق المتشعبّة ويسيران خلف بعضهما بعضاً، فيتبع الشابُ الرجلَ الأكبر سنّاً، بين أطنان القمامة وجبال من الصناديق الفارغة على جانبي الوحدات السكنية.

يجلس الرجل الأكبر سناً فوق المقعد وينظر نحو النوافذ ويأكل بذور زهرة عباد الشمس. وراء رأسه يوجد جدار زهور البيتونيا، في المنطقة العالية، قال الشاب، لا يزيد ارتفاعُ الوحدات السكينة على ارتفاع رأسه. تتكون تلك الوحدات السكنية من غرفة ومطبخ، أما الغرفة فتوجد في المقدّمة، حيث يوجد الثعلب، كما يقول ذلك الشاب، وإلى جوارها يوجد المطبخ.

تهّب الرياح على المقعد، يدلّك الرجل ساقيه ويرفع ياقته إلى أذنيه.

يغلق الشابُّ الباب، لكنّ مفتاحه لا يتحرك ولا يصدر صوتاً، فهو يغلقه من الداخل. وهو لا يصطدم بالحذاء، لأنه يعلم المكان الموجود فيه، فالصندل الذي تظهر عليه علامات الأصابع السوداء موجود بوضوح عند باب الغرفة. السرير مفتوح ولباس النوم ملقى فوق المخّدة.

يذهب نحو النافذة. تقف المرأة ذات الشعر الكستنائي المموّج وراء زهور البيتونيا. يُشير لها بيده. يسير نحو الخزانة ويثني ركبتيه. يتناول شفرة حلاقة من الجيب الداخلي لسترته، يفتحها ويضع الورقة التي تغلفها إلى جوار ركبته. يقطع الرِجْلَ الخلفيّة اليمنى للثعلب. يُبلّل أصبع السبّابة بطرف لسانه ويمسحُ الشعرَ المقصوصَ الملقى فوق الأرض. يكوّر الشعر المقصوص بين إبهامه وسبّابته ويصنع منه كرة صلبة يضعها

في جيب سترته. يلتقط الشفرة عن الأرض ويضعها في جيب سترته الداخلي ويضع الرِجْل المقطوعة فوق بطن الثعلب.

ينهض الرجل وينظر إلى الأعلى ليرى إن كان قد شاهد أحد ما جرى. يذهب إلى الحمام ويغلق مزلاج الباب ويبصق ويتبوّل دون أن يفتح ماء النياغرا ثم يفتح الباب. يتجّهُ نحو باب الشقة ويفتحُ الباب ويمد رأسه داخل الممر ويخرج ويغلق الباب خلفه. زهور البيتونيا أكثر بياضاً من الياقات البيضاء في الشمس، التي ستصاب التجّمد. المقعد الموجود قبالة زهور البيتونيا فارغ. أمام المقعد قشور البذور الخاصة بزهور عباد الشمس.

رجلان يسيران في الطريق المتشّعبة بين أطنان القمامة وجبال من الصناديق، خلف بعضهما، يسبق الأكبرُ سنّاً الرجلَ الشاب. يمران بموقف السيارات. الأجمة الموجودة فوق السّد الترابي أكثر ارتفاعاً على الدوام في المواسم العجاف.

الثعالب تسقط في الشّرك

يتمشى البّواب أمام البّوابة جيئة وذهاباً ومعطفه معلّق على كتفه. لأشعّة الشمس وقعٌ باردٌ على وجهه، فهو ينتظر الجيوبَ ليقومَ بتفتيشها ويأكل بذور زهرة عباد الشمس، بينما تجرجرُ ذيول معطفه فوق الأرض. تجيء مارا من الصالة ومعها ثلاثة سكاكين خاصّة بديفيد جرى حديثاً شحذها. يقطع ديفيد بالسكين الأول طبقة سميكة من الشحم ولا ينظف حد تلك السكين، حتى لا يلحظ البّواب أن السكين شحذت حديثاً، ثم يضع السّكين في جيبه. أما السكينان الآخران فيضعهما في الجارور، كي يأخذ الأول غداً والثاني بعد غد، كما قال.

تغسل إيفا كؤوس الماء وصرير أصابعها يعلو فوق الزجاج المبتل. فالقزم، كما تقول مارا، لن يكون موجوداً في الصالة يُسّرح شعره، بل سيكون في غرفة الاستحمام أولاً، لهذا كان لا بد من السرعة في الإنجاز. لا تغلق إنكا أزرار معاطفها، وتكتفي بأن تضع الحقيبة في كتفها، أما ديفيد فيغلق أزرار معطفه ويتناول حقيبته.

يتوجه ديفيد بسكينّه المملوء بالدهن، الموضوع داخل الحقيبة صوب البّوابة، في حين تمشي مارا وإيفا وكلارا خلال لفّات الأسلاك في الجزء الخلفي من الساحة، فيفرّ سرب العصافير من بين تلك الأسلاك. نافذة الغرفة العلوية الواقعة تحت السطح مفتوحة على نحو جزئي.

تحس كلارا بعقدة في حَلْقها ويرتفع لسانها تحت عينيها وتختنق وتغيم نظراتها. وعندما ترفع رأسها تبدو نافذة الغرفة العلوية الواقعة

تحت السطح وكأنّها معلّقة في الريح. مارا وإيفا تقفان بعيداً بين الأسلاك ولعلهما كانتا تقفان على درجات السلّم الحديدي.

بقيْت عيون النساء الثلاثة بضعة أيام معلّقة على النافذة الخاصة بالغرفة العلوية الواقعة تحت السطح، عند الرابعة عصراً، حين تكون أشعة الشمس باردة وسريعة فوق الدرّج. بعد ذلك مرت شهور لم تلامس أشعة الشمس فيها ذلك الدّرج. كانت الشمس تدور على نحو جاف وشاحب في دائرة ضيّقة جداً فوق الجدار متخطيّة الدرج، بعدها صار البخار في الممرّ الموجود قرب غرفة الاستحمام كثيفاً ويحول دون الرؤية ولا تستطيع العين اختراقه. لم يهدأ الفضول، بل بقي عدة أيام في الرأس، وصعدت النساء عدة أيام الدرج الحديدي. كان انتظارهن لوناً من العبث الذي لا طائل وراءه. وكانت الشمس في كل مرة يأتي فيها الرجال صوب غرفة الاستحمام تمر بالحائط كما يمر السارق. تتأمّل النساء وجوه بعضهم، ويستدرن وكأنّه لا أيدي لهن. لم يستسلمن، أغلقت مارا نافذة الغرفة العلوية الواقعة تحت السطح دون ضجيج، ودفعت المزلاج الصغير الصدئ إلى الأمام، وبقيت مغلقة لعدة شهور.

إنها الأشهر التي اعتادت النسوة فيها أن يضحكن في الساعة نفسها. إنّه ضحك الشتاء الضعيف القادم من الذكريات؛ لأنّ البخار يبقى كثيفاً يحول بين المرء والرؤية حتى بداية العام.

تنحني كلارا وتميل برأسها نحو الأسلاك وتباعد بين فردتي الحذاء في الطريق الصدئ. وتتقيّأ دهن الخنزير والخُبْز. يداها باردتان، تمسحُ فمَها بالمنديل وترى على نحو غائم رأسيْ إيفا ومارا في نافذة الغرفة العلوية

الواقعة تحت السطح، لكنها تعجز عن رؤية وجهيهما. تجلس القطة التي تشبه النمر بين فردتي حذاء كلارا، وتأكل القيء وتلعق الأسلاك. والخطوط الموجودة عليها تسبح خارج الفراء.

تتكئ أدينا على الأكاسيا الخالية من الأوراق، تبدو لفات الأسلاك أعلى من السيّاج المحيط بالمصنع، يَصعد الدخان من مدخنة منزل البّواب، ولا يتمزّق فوق الشارع الممزّق، بل إنه يصعد بأمواجه الرمادية إلى الأعلى ويسقط فوق السقف. البخار الآتي من مصنع البيرة له رائحة العرق البارد، أما برج التبريد فإنّ الغيوم تشطره.

تلّقت ابنة الخادمة، قبل أسبوعين، من زوجة الضابط معطفاً له ياقة من الفراء. إنّه فراء الثعلب، على المعطف قدمان، يستطيع المرء أن يربطهما تحت ذقنه. للقدمين حوافر ومخالب بنيّة لامعة. يأتي البخار من مصنع البيرة شبيهاً بياقة الثعلب. وكان على أدينا جرّاء استنشاقها لتلك الرائحة أن تعطس. أوضحت ابنة الخادمة أنها رائحة النفتالين، لأنّه إذا لم يكن للفراء رائحة النفتالين، فإنْ الحبيبات تعلق صيفاً بالفراء وتقضي على الشعر الموجود فيه. وهذا الشعر لا يتساقط في خزانة الملابس بل إنه يبدو وكأنه يتزايد. فإذا أمسك المرء هذا الفراء بيده، يتساقط على شكل بقع كبيرة مثلما يتساقط الشعر. عندها لا يبقى إلا الجلد، وهذا الجلد مغمور بزوايا رملية شبيهة بالسميد. ضحكت ابنة الخادمة وداعبت بأصابعها حوافر الثعلب الموجودة حول الياقة.

تتجّه كلارا صوب باب المصنع. تضع البّوابةُ القطّةَ التي تشبه النمر في حجرها وتربّت على فرائها المخطط. سكيّن ديفيد فوق الطاولة،

وقد لاحظ البّواب أنه شُحذ حديثاً في المصنع. ينزلق معطف البّواب عن كتفه، وتدفع يده المنديل اللزِّج إلى جيب كلارا بسرعة. ضجيج سيارة نقل وهي تندفع من البّوابة صوب الشارع، وأزيز الدّراجات في الأسفل والأسلاك المكوّمة في الأعلى. وجه السائق يتأرجح في المرآة الخلفية. هناك تتكدس ستارة من البخار الصادر عن مصنع البيرة. سمعت كلارا اسمها في أثناء الضجيج. تجري أدينا عبر سحابة الغبار وتقبّل كلارا تحت عينيها، ويداها زرقاوتان بسبب الريح الباردة وأنفها رطب. نحن ذاهبات إلى منزلي، قالت أدينا، عليّ أن أريك شيئاً.

تنحني كلارا وترفع فراء الثعلب، فيسقط ضوء رمادي عبر النافذة. الطاولة الفارغة تلمع على نحو داكن. في المطبخ ثمة خبز وجميع ما يجب عليّ أن آكله كالسكر والطحين، تقول أدينا. تربّت كلارا بأطراف أصابعها فوق ذيل الثعلب وعلى الجزء المقطوع من رِجْله وأدينا تردد أنّ بوسعهم أن يسمموّني في كل يوم.

تضع كلارا قدمها فوق أرضية الغرفة وتجلس وهي ترتدي المعطف فوق السرير المفتوح، وتتأمل الفجوة بين بطن الثعلب والرِجْل. بدت لها الأرضية فارغة كيدها الواسعة. يستلقي الذيل باطمئنان فوق الفراء وكأنه يتنامى.

تبدو أصابع كلارا عبر أكمام المعطف رقيقة ومدبّبة ويلمع طلاء الأظافر الأحمر فوقها. تضع أدينا يديها على الطاولة وتنظّف الحذاء من آثار أصابعها، وعند تحريك كلارا لأصابعها، يرى المرء تلك الأصابع من الداخل حيث يظهر الصدأ.

تقول أدينا، كنت في العاشرة عندما ذهبت مع أمّي إلى القرية المجاورة لشراء الثعلب. سرنا فوق الجسر الذي لا ماء تحته، في أثناء الصباحات التي يتوجه فيها العمّال إلى المسلخ. لم تكن السماء في ذلك الصباح حمراء، كانت ثقيلة وفارغة. ولم يكن مع الرجال الذي يمشون فوق الجسر أيّ مشط أحمر. كان ذلك قبل أيام الاحتفالات بأعياد الميلاد، وكان كلّ شيء ناضجاً ولم يكن ثمة ثلج ما عدا بعض الطحين الذي يدور مع الريح وفي الأحواض الموجودة في الحقل. لم أستطع ليلتها أن أنام، فقد نفد صبري، فقد تمنيت منذ زمن طويل الحصول على هذا الثعلب، لدرجة أن السعادة التي كنت أستشعرها لأنني سأحصل عليه، جعلتني شبه خائفة. كان الصبّاح جليدياً إلى الحدّ الذي لم يكن في الحقل أيّة ماعز، ولم تظهر لنا أية قرية على الرغم من كون الحقل منبسطاً، باستثناء بعض التلال المهملة، فظننت أننا ضللنا الطريق. كانت السماء تنحدر نحونا بقوة، ولأنّ السماء نزلت حتى وصلت إلى منديل أميّ، فقد خفت أننا ضللنا الطريق. مشيت ثم واصلت المشي ولم أشعر بالتعب، قد أكون نَعِستُ لأنّي شعرتُ بالتّعب وهو يتسّرب إلى جبهتي، لكنّ التعب كان يدفعني. عندما وصلت القرية، لم يكن ثمة أحد في الشارع، وكانت أشجار أعياد الميلاد تنتصب إلى جوار النافذة، وكانت أغصانها كثيفة إلى الحد الذي كانت تضغط فيه على زجاج النوافذ، فتظهر إبر تلك الأشجار وكأنها معدّة للمارة في الشوارع وليس لأصحابها ولأمي. لم تنتبه أمي للأمر. وكنت أحمل الأشجار وأنقلها من نافذة إلى أخرى.

ثمّ بقينا واقفتيْن. دقّت أمّي على النافذة. كنت أعرف أنه لا توجد

على النافذة شجرة عيد الميلاد. سرنا في الساحة، لكنه يصعب أن يرى المرء في الممّر الطويل المفتوح فراء الثعلب.

وقفنا في غرفه كان فيها موقد حديدي وسرير ولم يكن فيها كراسٍ. جاء الصّياد من الخارج وقد أحضر معه هذا الثعلب، وقال: إن هذا الثعلب هو الأكبر. علّق الصيادُ الثعلبُ وكانت رجلاه تتدليان نحو الأسفل والصياد يحرّك ذراعيه. كانت رجلا الثعلب تتأرجحان وكأنهما تسيران. وبدا الذيل تحت القدمين وكأنه حيوان آخر صغير. فسألتُ إن كان بالإمكان أن أرى بندقية الصيد. مدّد الصيادُ الثعلب فوق الطاولة وربت على شعره بنعومة. وقال: لا أحد يطلق النار على الثعالب، فالثعالب تقع في الشَّرَك. كان شعر الصياد ولحيته وشعره الذي ينمو فوق يديه أحمر تماماً كالثعلب، كما كانت وجنتاه حمراوين. كان الثعلب يومها هو الصيّاد.

خَلَعتْ كلارا مِعْطفها وخرجتْ من الغرفة، وشعرتْ بالاختناق في الحمّام وتقيّأت. تأملَت أدينا المعطف وهو ملقى فوق السرير، وكان ملقى وكأنّ ذراعاً بداخله، وكأن يداً تمتد أسفل السقف، بينما يتدفق الماء في الحمّام.

عادت كلارا إلى الغرفة وهي ترتدي بلوزة مفتوحة. وجلست بسرعة فوق المعطف وقالت: إنني بحالة سيّئة فقد تقيّأت. كانت حقيبتها اليدوية ملقاة فوق الصندوق وفمها نصف مفتوح ولسانها جافّاً وأبيض كأنه قطعة خبز في اللحم.

أنت خائفة، قالت أدينا، فأنت تبدين كالميّتة. أصيبت كلارا بالفزع

وصارت نظراتها مباشرة وحادة. تأملت كلارا وجهاً غارباً، ورأت أنه وجه يعلوه قناع، فالوجنتان مستقلتان عما سواهما والشفتان كذلك، كما رأت أنه وجه بلا حياة وشره في الوقت نفسه. إنه وجه فارغ من الجانبين والجبهة الأمامية وهو يشبه لوحة خيالية من الرسومات.

بحثت كلارا في الوجه الفارغ عن طفلٍ يتمشى إلى جوار امرأة ويظل حيداً مع ذلك، لأنه يحمل الأشجار داخل رأسه وهو ينتقل من منزل إلى آخر. فوجود طفل وحيد مثل ذلك الطفل الذي في أحشائها هو طفل لم يعرفه أحد من قبل. هكذا قدّرت.

فكرّت كلارا بأن أدينا تريد أن تكون الصّياد.

أنت تخافين أكثر مني، قالت أدينا، فلا تنظري هناك، لا تنظري إلى الثعلب.

عينا كلارا زائغتان، أوعية دموية حمراء فوق قصبة الأنف. كانت تنظر وهي ذاهلة إلى الصورة المعلقة على الحائط، إلى الحذاء المكتنز فوق العشب، إلى اللباس الرسمي للجندي، إلى العشب الموجود في فم إيلّي. ثم قالت: من غير المسموح لك أن تخبري إيلّي بذلك، فهو لا يستطيع أن يحتمله.

أنت لا تقول شيئاً

ليس ثمة نافذة في بيت الدّرج ولا يُشرق فيه ضوء النّهار، كما أنه يخلو من الكهرباء. يَغْلق المصعد بين الطوابق في الأعلى. القّداحة تومض لكنّها لا تشتعل. يعثر المفتاح على الفتحة الموجودة في الباب، يصدر صريرٌ عن الباب ولا يصدر صوت عن مقبض الباب. يبقى باب الغرفة مفتوحاً وتصمت ماكينة الخياطة. يسقط مربع مضيء فوق أرضيّة الغرفة من خلال الباب المفتوح.

يخلع باؤل حذاءه ويمشي على أطراف أصابعه في المطبخ وهو يرتدي جواربه. تتّحرك سيقان بنطاله في الريح، لكنه لا يستطيع أن يميّز الخطوط فيه. أربطة حقيبته باردة. يضع باؤل عبوة من قهوة–ياكوب وعلبة من الزبدة المخصّصة للإفطار فوق الثلاجة، كما يعد اثنتي عشرة علبة من السجائر ويضعها إلى جانب القهوة. يفتح الثلاجة ويضع اللحم فيها. إلى جوار الثلاجة توجد مظّلة، يتناولها.

يسير باؤل على أطراف أصابعه إلى باب الغرفة. العجلة الصغيرة لماكينة الخياط تدور، الحزام يتحرك، لفائف من الخيوط الملتوية تزحف، وقدما كلارا تتحركان مع الإيقاع. يدع باؤل المظلّة مفتوحة ويقول، في الخارج عاصفة كبرى، فهل أستطيع النوم عندكم؟ تضحك عينا كلارا ويبقى فمها جاداً وهي تقول أجل يا سيدي. تفضل إلى هنا وأخلع ملابسك المبلولة.

تسقط المظلّة فوق أرضية الغرفة ويتعثر عمل عجلة ماكينة الخياطة.

يدا كلارا في ملابسه وشعرها يسقط فوق وجهه. يقول فمها له: أنت متجّمد من شدّة البرد يا سيدي.

عادت الثلّاجة تصدر ضجيجها، فقد عاد التيار الكهربائي. تفوح من كلارا رائحة الورق. تشعل النور وتضع حبة قهوة فوق البقعة السوداء وهي تسأله إن كان قادماً من العمل، لكنّ مطحنة القهوة شطرت صورتها. مسّت الشعلة الوعاء وبدأ الماء يشكل فقاعات، فوضعت ثلاث ملاعق بنّ في الماء، دون أن تدع الملعقة تبتل. دقّت على حافة الفرن بمقبض الملعقة وسألته إن كان بوسعه أن يساعد أدينا. صارت القهوة تغلي. فالتقطت الرغوة التي ارتفعت على وجهها بالملعقة، فسألها ماذا تقصدين، سكبت الرغوة في الفناجين، فأعاد سؤاله ثانية، فتبّدت الرغوة مشرقة كالرمل. سألته وهي ترفع الوعاء عن النار هل يمكن أن تقوم بتسميم أدينا؟

تسلّل خيط أسود من القهوة إلى الرغوة، كلّا. أجابها والرغوة تتصاعد لتصل إلى مقبض الفنجان، فأضافت، ألأنّها صديقتي؟ حمل الفنجان وسار به نحو الطاولة، بينما يتطاير ساقا البنطال أمام النافذة في مهب الريح. فأجاب وهو يضع مكعباً من السكر في القهوة، لهذا السبب أيضاً، ولكن ما الذي تريده أدينا يا ترى؟ إنها لا تدري أين تعيش. فردّت بأنها لا تريد شيئاً لكنها تتحدث بغضب. سقط مكعّب السكّر في القهوة ومزّق الرغوة التي تسبح على وجه الفنجان.

قال باؤل، لا أحد يستطيع أن يتشاجر مع والدي، فعندما يكون غاضباً يغدو أصمّ. فقد صمت عن الكلام عدة أيام ولم يقل كلمة

واحدة. غضبت أمي. لكنه قام ذات مرة بجرّها عن الطاولة وضغط وجهها أمام المرآة وشدّ شعرها. تأملي نفسك، صرخ على مسمعها، لكنه لم ينظر في عينيها، فهو لم يرها، لكنه اكتفى بالنظر إليها من خلال المرآة. صار وجهه كالحجر. وعندما تمكنت من إبعاد يديه عن شعرها، فإن رأسه سقط إلى الوراء. عندها لاحظ أبي أنني أقف أمام المرآة، فقال بصوت خفيض جداً، إنّ كل واحد يمتلك قطعة من الجمر في فمه، لهذا يتوجب على كل واحد أن ينظر إلى لسانه. وأضاف بأنّ كلمة غاضبة لا بد لها أن تظهر عند كل لحظة يستنشق فيها الإنسان الهواء، كما يظهر القدمان في جميع الأوقات على امتداد العمر. اصطدمت ملعقة باؤل بالفنجان.

قالت كلارا، أنتم تبحثون عن ضحيّة، فما يقولونه هو ما نفكرّ فيه كلّنا، بمن فيهم أنت. يحرك القهوة بالملعقة فتطفو الرغوة حتّى الحافّة، فيقول كلّنا ضحايا. ولاعّة السجائر تطقطق فيخبّئ باؤل الشعلة لتبقى متّقدة فتسحب كلارا المنفضة من على حافة الطاولة وتقرّبها من يدها. تقول كلارا: أنت تسألني عمّا تريده أدينا، إنّها لا تريد غير أنْ تحيا.

تلّفُ كلارا السيجارةَ بين أصابعها، بينما يحتسي باؤل فنجان القهوة وهو يتأمل عينيها من فوق حافة الفنجان، فتسأله وهي تبتلع الدخان ولا تنفثه من فمها: ماذا فعلتم بالرجل الذي أطلق النار على تشاوشيسكو؟

يشعر باؤل بغصّة في الحلق. وببقايا القهوة فوق لسانه فيرد على سؤالها: هذا يعتمد على عدة أشياء. فتسأل: ما هي يا ترى؟ فيصمت.

تقف كلارا على النافذة، وتتأمّلْ ساقيْ البنطال وهما يتحرّكان، وفي

الخارج تختبئ كرة بين الفروع المتشعّبة للشجرة، تلك الكرة الخضراء التي لم يرها أحد بين أوراق الشجر المتذبذبة طيلة أيام الصيف والتي بقيت من شتاءين مجدبين محشورة هناك، لأنّ طفلاً لم يجرؤ على أن يتسلّق ساق الشجرة الناعم للوصول إلى الغصن الرفيع.

وما الذي سيجري بعد ذلك؟ تساءلت كلارا وفمها يقترب من لوح الزجاج. فردّ باؤل وهو يداعب شعرها، بعد ذلك سأنفصل عن زوجتي ثم نتزوّج. أحسّ بنبضات صدغيها. فقال إن الرجل يعاني من السرطان ولن يُعمّر طويلاً. ثم مدّ يده في ثنايا شعرها وضغط على صدغها. بل سيعيش بعدنا ويُعمّر طويلاً. قالت كلارا. أدار باؤل رأسه، لأنه يريد أن يرى وجهها. فقال: إن الرجل يعاني من السرطان وهذا ما أعرفه من مصادر مؤكدّة، لكنه لم يستطع أن يَصْرف نظرها بعيداً عن الكرة الخضراء.

قالت كلارا، عليك أن تساعد أدينا، فمدّ يده في جيب البنطال وفتح زجاجة العطر وسكب قطرات منها على أسفل عنقها، حيث يمكنه أن يستنشقها، تاركاً غطاء الزجاجة يسقط داخل بلوزتها. وضع باؤل الزجاجة المفتوحة فوق الطاولة، فانتشرت الرائحة التي كان لها وقع ثقيل فوق عنق كلارا، في المطبخ.

نأتْ نظراتها عن الأغصان المتشابكة للشجرة، وعن تلك الكرة الصيفية المنبعجة الخرساء.

إنّ لهذا العطر رائحة أجهزة الأمن السّرية.

يدخل باؤل إلى الغرفة فيصطدم بالمظلّة. يقف في الممرّ ويخلع حذاءه

ويقول لكلارا: إنّ مفاتيح شقتك ملقاة فوق السرير، لكنّ أصابعه تعجز عن العثور على ربّاط حذائه.

تقول كلارا: إنّ بوسعكَ أن تحتفظ بمفتاحي، ولا تحتاج عندها إلى صناعة نسخة مكرّرة، كما أن مفاتيح أدينا معك، مع أنه لم يسبق لها أن أعطتك مفتاحها. حذاؤه ضاغط وضيّق وقاس. فوق المائدة صحنان تلتصق الشوكتان بهما، والسكاكين بعيدة عنهما. فوق الزبدة المخصّصة للإفطار فتات من الخبز، وفوق صحن باؤل قشرة من الخبز.

أنت لا تقولين شيئاً على الإطلاق. يقول باؤل.

تفتح كلارا الثلاجة وتضع الزبدة الخاصة بالإفطار فوق الطاولة، يسقط ضوء مُرّبع فوق قدميها فيقول: سأذهب. ترتجف وجنتاها. اللحم ملفوف بأوراق السولوفان وفوق تلك الأوراق صقيع متجمّد كما الحال في الحدائق الخارجية.

قدما باؤل حائرتان ويده واثقة. فهي تعثر على مقبض الباب وتغلقه خلفها بقوّة.

لم تلمس كلارا المظلّة المفتوحة في الصباح، فالمظلة تخص باؤل، كما أن الملابس الموجودة في ماكينة الخياطة تخصّه والإبرة الموجودة في منتصف غرزة الخياطة تخصه وباقة الورود الموجودة في المزهرية منه.

تشاهدُ الكرةُ الخضراء الموجودةُ بين أغصان الشجرة المتشابكة أنَّ ماءَ القهوة يغلي في المطبخ، والقهوة من باؤل، كما أن مكعّبات السكّر والسجائر التي تدخنها كلارا والكنزة الصوفية التي ترتديها والبنطال والجوارب كلّها منه، إضافة إلى أقراط الأذن والظلال التي توضع فوق

العينين وأحمر الشفاه، والعطر الذي أحضر أمس مساءً.

لدخان السجائر البارد مذاق مالح على اللّسان، كما أنّ للأنفاس الباردة التي تنتشر في الأجواء كالدّخان مذاقاً مالحاً في الفم. كما أنّ لموجات الغبار الباردة التي تتطاير خلف سيارات النقل رائحة مختلفة في الشوارع مقارنة بغبار الصيف. ورائحة الغيوم مختلفة في المدينة عن غيوم الصيف. تروح كلارا وتجيء أمام مبنى جهاز الشرّطة السّرية.

يهبط الدرجات رجل، ثمّ ثلاثة رجال وامرأة ترتدي سترة من فراء الخراف.

خلف رأس البّواب تقويم سنوي، تحيط الدوائر فيه ببداية العام والصيف والخريف وكل شهور السنة تقريباً. البواب موجود في منزله حتى النُخاع.

شعر كلارا مربوط وهي تشعل سيجارة. سألها البواب إن كان أحداً قد طلبها، لكنّ كلارا لم تخبئ ولاعة سجائرها، بل قدّمت للبواب علبة السجائر الخاصة بها. وضع البواب يده اليسرى على الهاتف وسحب بيده اليمنى سيجارتين، وضع واحدة منهما في فمه وأدخل الأخرى في الجيب العلوي لزيّه الرسمي وهو يقول: سيجارة لفمي والأخرى لقلبي. أشعل ولاعة السجائر وهو ينظر إلى كلارا ويسألها وهو ينفخ الدخان إلى الأعلى: مع من تريدين أن تتكلمي. أجابت كلارا: بال مورغو. ضغط البواب على أحد الأزرار وقال:

إنه موجود ثم اختار البواب وهو يضع السيجارة في يده رقماً معيّناً وسأل كلارا: من الذي يريد التحدث معه؟ كلارا. أجابت. كانت

السيجارة تقف في جيبه العلوي كإصبع. فواصل البواب سؤاله: وما الاسم الذي يلي **كلارا**؟ فقالتْ: الرفيق **مورغو** يعرف.

في الخارج ضجيج سيّارات النقل، الجو بارد وغائم لكنّ الثلج لا يتساقط. الأشجار ترمي بالغبار فوق الطريق، يسألها البواب: هل تعرفين الرفيق الكولونيل من زمن طويل؟ أطرقت كلارا. لكنني لم أرك هنا من قبل على الإطلاق. قال البّواب. الذي كان يصغي بعنقه وذقنه، وكان يرّدد أجل، أجل عندما سقط رماد السيجارة على الأرض. كانت السيجارة الأخرى الموجودة في الجيب العلوي قد انزلقت خارجها تماماً، عندما قال لها: انتظري في المقهى هناك، فالرفيق الكولونيل سيأتي بعد خمس عشرة دقيقة.

تضع النادلة طوقاً أبيض فوق رأسها. شعرها رمادي، وهي تدندن بأغنية في أثناء مشيها بين الدخان والطاولات الفارغة. ضجيج سيارات النقل يأتي عبر زجاج النوافذ، حيث يستطيع المرء أن يرى حمولة تلك السيارات التي تتكون من الخشب والأكياس من الأعلى. تحمل النادلة صينية عليها خمسة كؤوس للمائدة التي يلتف حولها خمسة من رجال الشرطة. في الطاولة المجاورة ستّة رجال يرتدون البَدلات وامرأة ترتدي سترة من فراء الخراف.

في سقف المقهى بقعة ماء بنّية اللون. ومصباح كهربائي له خمسة أذرع، أربعة مسنّنات منها فارغة ومصباح كهربائي. والمصباح لا يضيء إلا في البقعة التي يرتفع فيها دخان السجائر إلى السقف. نادت المرأة التي ترتدي السترة المصنوعة من فراء الخراف: **ميتسي**، فوضعت النادلة

صينيتها فوق الطاولة، فطلب أحد الرجال الذي يرتدون البدلات: سبعة من مشروب الروم جامايكا. مرّت سيارة نقل فاهتز زجاج النافذة. إنّها تنقل البراميل والأنابيب، ولكن من يدري من أين تأتي تلك السيارات. فكرت كلارا، كان الثلج يعلو المواسير والأنابيب.

يجلس في زاوية المقهى وبالقرب من الباب، رجلان عجوزان، كل واحد منهما بذقن ينبت الشعر فوقها وفم يخلو من الأسنان، وهما يلعبان الورق. يضع الأول خاتماً أخضر اللون، صدئاً في إصبعه. كانت أوراق اللعب مجعّدة ومستهلكة. قال الرجل صاحب الخاتم: بلوط. لكنْ ما كان على ورقة اللعب لم يكن بلوطاً، بل بقع رمادية.

صاح الرجل الذي يضع الخاتم في إصبعه: **الرفيق مورغو**.

صافحه باؤل وهزّ يده وسأله: كيف تبدو الحياة معك؟ ضحك الرجل صاحب الخاتم بفمه الخالي من الأسنان وقال: أنا متنازل عنها **رفيق مورغو**. أطرق باؤل فصاح صاحب الخاتم الذي كان يضحك ونادى: **ميتسي**.

وضع الآخر أوراق اللعب فوق الطاولة وقال: لقد كانت **ميتسي** هذه مغنيّة عظيمة ذات يوم. النادلة تدندن، كأسين من مشروب الروم جامايكا قال صاحب الخاتم. فقال الرجل الآخر إن **ميتسي** من الطبقة العاملة من الأطفال، لكنّها ملاك. كان ذلك منذ مدة، فقد كانت **ميتسي** يومها شابة ومشهورة في جميع أنحاء المدينة. وكان ذلك عند **شاري نيني**، حيث كان يُقدّم هناك أجمل الغناء وأفضل الشراب.

نظر باؤل إلى كلارا، بينما كانت كلارا ترى وتصغي إلى سيارة النقل

في الخارج وهي تسير في الغبار الشتوي، كانت سيارة النقل تنقل الرمل والحجارة.

قال الرجل صاحب الخاتم الأخضر الصدئ، كان العلماء يومها يحتسون الشراب مع فقراء الناس، وقد رسم أحد الأساتذة معي عود كبريت يشتعل فوق قطعة من الورق، ما أرق الروح الإنسانية وكانت عيون كاتبة العدل الملكي لا تفارق صاحبتنا **ميتسي**. فقد كان لها فم يشبه الوردة، قال صاحب الخاتم، وصوت يشبه تغريد البلابل.

ضحك الرجل الآخر بشفتيه الذابلتين وقال: وكان لها نهدان من الخزف الأبيض، أما حلمتا الثدييْن فكانتا تبدوان أجمل من عيون الآخرين.

ضحك الرجال الذي يرتدون البدلات، رفع أحد رجال الشرطة القبّعة عن رأسه ودّق بها الطاولة، ربتّت المرأة التي ترتدي سترة مصنوعة من فراء الخراف على الشعر المجعّد الموجود فوق رقبتها، أحنى باڤل رأسه لها ومسّ كتف الرجل الجالس إلى جوارها مسّاً خفيفاً.

حملت النادلة الصينية ولم تدندن في أثناء الذهاب. بدا وجهها طريّاً وذابلاً، وعيناها غائمتين. وضعت أمام الرجلين الأدردين ما طلباه، فوق ورق اللعب، ضحكت وتنّهدت وربّتت على شعر صاحب الخاتم الأخضر الصدئ.

يجلس باڤل على الكرسي ويقول لكلارا: أنا مسرور وسنحتسي الشراب الآن، ثم ينظر إلى سقف المقهى وما عليه من بقعة مائية. يطلب من النادلة أن تحضر لهما كأسين من الروم جامايكا. يمس باڤل يد كلارا،

ويقول: هنا نحن محط الأنظار، هنا يصغي الجميع، ويتأملنا الجميع.

تسأل كلارا: أيعجبك هذا المكان؟ يعيد باؤل ترتيب ربطة عنقه، ويقول: كما يعجبك الحال في المصنع.

رأسي مظلم

تجيء أدينا من المدرسة بعد الظهر، وتغسل يديها لأنّ الطباشيرَ تفترسُ الأصابع. في حوض المرحاض تطفو قشرتان من بذور زهرة عباد الشمس، وأدينا تعلم، قبل أن تستطيع التفكير بالأمر: بأنّه الثعلب.

الرِّجْل الخلَفْية الثانية للثعلب مقطوعة وهي ملقاة فوق البطن وكأنّها شيء ينمو. ما عدا ذلك بقي كل شيء على حاله، الغرفة والطاولة والسرير والمطبخ والخبز والسّكر والطحين. هواء أعمى في الخارج يضغط على النافذة، رياح عمياء تتجاوز المنزل. تتساءل أدينا عن السبب الذي يجعل الغرفة والطاولة والسرير توافق على ما يحدث هنا.

تُجهّز أدينا المنبّه ليكون جاهزاً في الصباح الباكر. يحرّك المؤشر العشب في فم إيلّي، الذي تسافر أدينا إليه.

لا يكفي النور الصادر عن المصباح الكهربائي للرؤية، أما الضغط على العينيْن، فيكفي أن تقوم به الدائرة المضيئة الموجودة أمام الأحذية. تذهب الملابس الفارغة إلى موقف الانتظار وتجيء منه. وتحمل الحقائب منذ الصباح الباكر.

صفير السكّة الحديدية والمترو يعلو ضجيجه تحت البيوت. بعد ذلك تمر النوافذ المضيئة، فيعرف الجميع، أين ستنفتح الأبواب، عندما تتوقف النوافذ، تبدأ الأكواع بالضغط، ويسافر النعاس مع الركاب، لرائحة العرق الشتوي رائحة مرّة، يضيء النور وينطفئ عند المنعطف، يبدو النور أصفر ضعيفاً ويقفز إلى منتصف الوجه. دجاجتان تتأملان من

خلال سلّة تحملها إحدى النساء. تحني الدجاجتان عنقيهما، وتبقيان منقاريهما نصف مفتوحين، وكأنه يتوجب عليهما قبل أن تتنفسا أن تبحثا في حلقيهما عن القصبة الهوائية. أعينها مسطّحة، بنية غامقة كلون الريش. لكنّهما عندما يحنيان حلقيهما يلمع في عيني كل منهما رأس الدبّوس.

اشترت الخياطّة التي تقيم في الضاحية في بداية العام عشرة كتاكيت من السوق. ولم يكن عندها دجاجة. وقد قالت إنها تجلس هنا وتخيط والكتاكيت تكبر تلقائياً. بقيتْ الكتاكيت في الورشة والزّغبُ عليها. كانت تتجول أو تأكل بقايا الطعام أو تقوم بتدفئة ذاتها. وعندما كَبُرتْ، كانت الكتاكيت تمضي اليوم من الصباح إلى المساء في الساحة، باستثناء كتكوت منها أصّر على أن يبقى في الورشة. كان ذلك الكتكوت يقفز برجل واحدة فوق بقايا الطعام، أما رجله الأخرى فقد كانت مشلولة. كما كان يجثم طيلة النهار يتأمّل الخيّاطة وهي تؤدّي عملها. وعندما تنهض يمشي ويسير خلفها برجل واحدة. كانت الخياطة تتكلم معه عندما تكون وحدها. كان للكتكوت ريش أحمر داكن وعينان حمراوان وداكنتان. ونظراً لأنه كان الكتكوت الأقلّ حركة، فقد كان الأكثر سمنة. لهذا كان أول من ذُبح قبل أن يحل الصيف، بينما ظلت الكتاكيت الأخرى تنبش في الساحة.

ظلّت الخيّاطة تحكي طيلة الصيف عن ذلك الكتكوت المشلول وقالت: كان ينبغي عليّ أن أذبحه، فقد كان كالطفل.

للرجل الموجود فوق رصيف المحطة لحية سوداء في وجهه وقبّعة

مخملية فوق رأسه وموقد صفيحي ذو ثلاثة أرجل أمام بطنه. أما المرأة الموجودة إلى جواره. فترتدي غطاء رأس وردياً وسترة وردية وتضع تحت إبطها أنبوب الفرن والكوع الخاص به. وإلى جوارها طفل يحمل قبّعة ذات شراشيب وباباً لأحد الأفران.

في الحجرة الصغيرة يجلس رجل عجوز قِبالة أمّ وأب وبينهما طفل ملفوف.

الليل يتمزّق. ترى أدينا الجسر في الأعلى، فوق السكّة الحديدية وترى الدرّج في الأسفل. ملابس سوداء كبيرة تصعد الدرج. وأخرى سوداء صغيرة تصعد السماء، وكأنّ من يصل إلى الأعلى هناك هو النصف. في بداية النهار وقبل بداية العمل، طفل منكمش عجوز.

في الجهة المقابلة ينزل الدّرج نحو الأسفل ويصل إلى باب المصنع. وعندما يملأ ضجيج القطار الآذان، فإنْ المرء لا يستمع لغير صوت المصنع.

ثَمْ، تقوم الأم لطفلها وهو يتّكئ عليها، الوحدات السكنية تضغط على الناس في الظلام. في الجزء الخلفي من المدينة.يوجد سجن المدينة، يمرّ الحراس عبر الزجاج وكل حارس ينطوي على جندي متجمّد من شدة البرد وكأنه إيلّي آخر، كما تفكر أدينا، وهذا الجندي يثق بالليل والصقيع والسلاح والقوة حتى عندما يكون وحيداً.

على امتداد العام، كان على إيلّي أنْ يُسافر شهرياً في مهمّة رسمية إلى بوخارست، وكان عليه أن يسلك، في كل مرّة، الاتجاه نفسه من المدينة، مارّاً بالسجن. الزنازين موجودة في آخر الساحة. وقد قال إيلّي

إنه لا يراها من لم يكن له فيها أحد، أما من كان له فيها أحد، فإنه يكون قادراً من خلال ما يستشعره في رأسه، أين ينبغي له أن يرى، عندها يشعر المرء بالعينين اللتين تعرفان أين ينبغي أن تنظرا، على الرغم من كثرة العيون.

إنّ على المرء أن ينام كي لا يُحسّ بشيء على الإطلاق، قال الأب لطفله، أطرق الطفل. مرّت السيدة صاحبة الدجاجات الحمراء الداكنة بالغرفة الصغيرة.

في السابق، قال الرجل العجوز، كنت أنام في القطار وفي المترو. كنت أسافر صباحاً من القرية إلى المدينة وأعود عند المساء إلى منزلي. وكان عليّ أن أذهب إلى محطة السكة الحديدية في الخامسة، واستمر ذلك مدة سبع وعشرين سنة. كنت أعرف الطريق مثلما أحفظ أبانا الذي في السماء. وقد راهنتُ ذات مرة على شاةٍ بأنّني قادر على أن أعثر على الطريق وأنا أسير بعينين مغلقتين شريطة أن يحدث ذلك في الشتاء حيث الصقيع والثلج، مع أن طول الطريق يفوق الثلاثة آلاف خُطوة. يومها كنت أعرف كل صدع في الأرض وكنت أعرف مكان كلّ حفرة وأكمة، وأعرف أين ينبح الكلب وأين يصيح الديك. وكنت أعرف أنّ الديك إذا لم يصح يوم الاثنين، فإنه يكون قد ذُبح يوم الأحد. وقد اعتدت أن أنام في أثناء العمل. كنت أعمل خياطاً، وقد كان بوسعي أن أنام والإبرة في فمي.

قال الطفل: أريد حبة تفاح. وقالت الأم: نم الآن، فقال الأب: أعطيه تفاحة.

يقول الرجل: لقد صرتُ اليوم عجوزاً ولا أستطيع أن أنام، حتى في سريري. غير مهم، ظل يردّد، غير مهم.

يعض الطفل حبة التفاح، ويمضغها على مهل ويضع أصبعه حيث يعضّ. هل أنت سعيد، تسأله الأم، فيرد الطفل، بأنه يشعر بالبرد. أحضر والد أدينا في صباح يوم الاثنين، عندما عاد من المسلخ حقيبة مملوءة بالتفاح الصغير. كانت حبّات التفاح باردة إلى الحد الذي كان يعلو فيه غبشٌ أبيضُ فوق قشور تلك الحبات، كما يعلو ذلك الغبش زجاج النظارات. أكلت أدينا حبّةَ تفاح على الفور. آلمتها العضة الأولى، فقد كانت حبة التفاح باردة إلى الحدّ الذي جعل العضّةَ تُدير عضلات الصدغين، قبل أن تبتلعها. ملأت العضة الثانية الرأس كلّه بالصقيع، بعدها لم يعد العض مؤلماً لأن الدماغ بدأ يتجمد من شدّة البرودة.

وعندما كانت أدينا تنتهي من أكل حبة التفاح الباردة، كانت تحمل ثلاث حبّات إلى الساحة وتضعها في الخارج حتى تتجمّد في الليل. كانت تضع حبات التفاح متباعدات بمقدار عرض اليد فوق الحجارة، حتى يحيط الصقيع الليلي بالقشرة، وفي الصباح تقوم بإدخال الحبات إلى المطبخ. عندها تكون الحبات طرية وبنّية. فقد كانت أدينا، تحب بالدرجة الأولى، التفّاح المتجمّد.

غادر والد الطفل الغرفة الصغيرة، ووقف طويلاً في الممّر، وكان يتأمل الحقل المجدب الذي يمر القطار به. رأى ثلاثة غزلان، وكان ينادي على زوجته في كل مرة، وعند كلّ نداء كانت زوجته تحرك في أثناء النوم طفلها ورأسها ولا تذهب إليه.

يحتشد المسافرون الآن في الممر، بمن فيهم أدينا، وامرأة أخرى سمينة، ترتدي فراء الثعلب بأرجله المعقّدة، والرجل العجوز الجاف الذي كسب الرهان بخصوص الشاة.

يجري نهر الدانوب إلى جوار القطار، يرى المرء الشاطئ الآخر والشوارع، التي تبدو رفيعة كالخيط، كما يرى السيارات المسافرة والحقول. ليس ثمة أقدام تتحرّك في الممّر، فلا أحد يمشي ولا أحد يتحدث. عينا الرجل العجوز تبدوان كبيرتين وتدفعان بالتجاعيد بعيداً. تأتي زفرة من فم الأب، إنها لون من الزفير الممنوع. بعدها يغلق الأب فمَه ويتأمّلُ ويصرخُ في الغرفة الصغيرة، يوغوسلافيا، تبقى الأم جالسة في الغرفة الصغيرة. منذ ست سنوات قطع شقيقها المسافة إلى هناك سباحة وهو الآن يعيش في فيينا. كانت عينا الرجل تلمعان وكأنّهما تريدان أن تريا كل موجة من الموجات. سأل الرجل أدينا، هل لديك أطفال؟ لا. ردّت أدينا.

ليس ثمة مقعد في صالة الانتظار، باستثناء فرن حديدي بارد. فوق الأرض الأسمنتية المتصدعة ثمة بصاق طري وقشور بذور زهور عباد الشمس. فوق الفرن الحديدي هناك مجلة حائط تحوي ثلاث صور للديكتاتور، وقد كبر السواد في عينه حتى صار في حجم زر معطف أدينا. إنّه يلمع، مثلما يلمع البصاق فوق الأرض.

إنّ ما يلمع هو قابل للرؤية.

قبل محطة السكة الحديدية ثمة مقعد، هذا ما كتبه إيلّي في الصف وإلى جواره موقف الباص. الباص مخصّص للضبّاط الذاهبين من المدينة

الصغيرة إلى وحداتهم العسكرية. في بعض الأحيان يسمح السائق للجنود وللنساء الصغيرات السّن، بالركوب.

في الباص يجلس خمسة ضبّاط، يضعون على رؤوسهم قبّعات خضراء ذات فراء رمادي اللون خاص بالآذان وقد لُفّت برباط أخضر اللون حول الرأس. تبدو آذان الضباط تحت الفراء الخاص بها ذات حوافّ حمراء، جرّاء الصقيع في حين تبدو الأجزاء الخلفيّة من رؤوسهم حليقة.

يرتدي السائق بدلة تحت معطفه المفتوح الأزرار ويضع قبّعة فوق رأسه. تبدو من خلال أكمام المعطف أساور القميص البيضاء وعليها خطوط سوداء قذرة وأزرار زرقاء سميكة. وفي اليد اليسرى يلمع الخاتم. ثلاثة ضباط يصعدون إلى الباص.

سأل السائق: إلى أين؟ أجابت أدينا وهي ترفعُ الحقيبة فوق درجات الباص: إلى الوحدة. انحنى السائق، فبدا شال أزرق على يده اليمنى وهو يقول: النساء الجميلات هن المناسبات لجيشنا. يضحك الضباط، ويبدو شيء من التوتر في ضحكاتهم.

تجلس أدينا إلى جوار ضابط أشيب الفودين، تفوح منه رائحة الملابس الشتوية الرطبة. يسألها صوت من الخلف: إلى من ستسافر الآنسة؟ تدير أدينا رأسها وترى وراء المقعد الفارغ رجلاً ذا أسنان ذهبية. يبدو معطف أدينا محاطاً بالمعاطف الخضراء: أنا ذاهبة إلى أحد الجنود. رفع السائق يديه في الهواء، وصاح: لدينا الكثير منهم، وعندما تصل الآنسة إلى هناك يكون بوسعها أن تختار منهم من تشاء.

تبتعد الذرة عن الزجاج وتبدو مكسورة ومنسيّة في الصقيع. يتساءل ذو الأسنان الذهبية لماذا تذهبين إلى جندي بعينه؟ إنّ في الوطن ما يكفي من هؤلاء. اصطدم الضحك بإحدى الغابات، لكنّه كان ضحكاً كئيباً وأسود.

كتب إيلّي يقول إن كل شيء مُزيّف، فالمرء يجلس أو يستلقي في الخارج في اللاشيء. لكنّ النباتات الصغيرة تغطّي المنظر وتحجبه، ففي وسع المرء أن يقف دون أن يرى شيئاً.

تصطدم الريح بصفوف الأشجار في الخارج، دون أن يكون المرء قادراً على سماعه وهو في الداخل. هل تعرفين «ليلة الحب، الأخيرة، ليلة الحرب الأولى»[1]، سأل أحد الضباط الجالسين وراء السائق. إنّه كتاب يشبه ما يحدث في الحياة يا آنستي، إنّه كتاب جميل.

تتأملهم أدينا وترى أنّ رقابهم وأصداغهم عارية، وأنه جرى حلاقتها منذ سنوات، وأنه ليس بينهم شاب. إنهم يضحكون فجأة، وفي سيل الضحك الجارف، يلحظ كل واحد منهم أن الآخر ملأ أكياساً من هذا الشعر المقصوص وأن تلك الأكياس كأكياسه ثقيلة. ترتعش يدا إيلّي وتبدو أظافره قذرة وممزقة. تقول إدينا، أمضيت ساعة وأنا في المقصورة وحيدة. كانت المقصورة واسعة وضخمة وخالية من أشعة الشمس ومملوءة بالظلال، لهذا غفوت. لقد حلمت أنّ هناك ثعلباً فوق حقل فارغ، تمّت حراثته مؤخراً. أخذ الثعلب يأكل ويأكل كان حجمه

(1) الرواية من تأليف الروائي والشاعر الروماني كميل بيترسكو (1894–1957)، وقد صدرت الرواية عام 1930. (المترجم).

يزداد باستمرار.

إلى جوار الباب، هناك لوحُ حائط، عُلّقت فوقه صورة لدبابة على حافة الغابة، فوق الدبابة يجلس جنود، يظهر إيلّي بينهم، أما الضباط فيقفون فوق العشب.

ما تزالين بخير، قال إيلّي، فما زالت تخافين، أما أنا فرأسي مظلم ولهذا فلم أحلم منذ مدة طويلة. فوق الدبابة وتحتها توجد صورة الديكتاتور وذلك السواد في العينين. هنا يتوجب على المرء أن ينسى ذاته، فأنا، يضيف إيلّي، لا أعرف إلا شيئاً واحداً أنني لا أتوقف عن التفكير فيك. إلى جوار الصورة التي يوجد فيها السواد في العينين. عُلّقت شهادات الشرف الخاصة بالوحدة العسكرية.

يشير إيلّي إلى الدبابة ويقول: لقد كنا في شهر تشرين الأول على ظهر هذه الدبابة فوق الأرض. بعد ذلك قبّل إيلّي أصابع أدينا التي سألته: أية أرض، فكل شيء هنا غير صحيح. لقد غادرنا المعسكر، قال إيلّي، فكّل المناطق هنا أرض، فوراء الغابة هناك تلّة. كان علينا أن نصعد التلّة، وأن نقوم هناك برمي الحجارة خلف الجنازير وأن نهبط التلّة مروراً بالحجارة الموجودة في المقدّمة. وعندما وصلت الدبابات إلى حافة الغابة، تمدّدنا فوق العشب، ولم نقم طيلة النهار. وعند المساء عدنا مشياً على الأقدام إلى الثكنات.

يداه قاسيتان، وهو يضحك لكنه يبتلع ضحكته ويقول: ما تزال الدبابة موجودة في الخارج، بالقرب من الغابة، لنذهب إلى الساحة!

ترتجف ذراعه ويقول فمه: لو أنّ الروس انتظرونا، لما كانوا اليوم

موجودين في براغ.

يبقى إيلّي واقفاً أمام أكوام أكياس الرمل الرطبة ويقول، نحن نجرّها من الجدار إلى السّياج، ومن السّياج إلى الشارع ومن الشارع إلى الحائط. حذاؤه يطقطق عندما يريد أن يمشي. يشير إيلّي إلى حذائه الضخم ويقول: نحن في الصيف ولا أعرف طريقاً سوى الطريق الرطب، إنه الدانوب.

يمر جندي وهو يحمل دلواً يتصاعد منه بخار، تشدّ أدينا معطفها وتغلقه بذراعيها، حتى تكون عظامك في الصيف القادم، كما تقول، موجودة بين القمح. الشارع المشجّر بالحور صغير، وأدينا تسيرُ الهوينى فوق الشارع، لأن الظلام قد حلّ، أما وجه إيلّي فيبدو متوتراً وهو يقول، ستجيئين معي. كان عنقه طويلاً وبدا حليق الصدغين. انحنى نحوها فهزّت رأسها.

تقول أدينا وهي تنظر نحو الأرض، ستكون في السماء ملاكاً مجروحاً بطلقة نارية، أو على الأرض حيث يُوجد الرصيف. هناك ستعلو فوق المكنسة ليلاً وتقوم بكنس شوارع في فيينّا.

أما أنت فستبقين هنا، يقول إيلّي، وتنتظرين أن تقومي بتمزيق ثعلَبَك. ثّم.

الثعلب فوق الطاولة

منبّه الساعة يرنّ ويرنّ. إنّها الساعة الثالثة.

لعّل أقدام الثعلب نَمَتْ في الليل من جديد. هكذا فكرّت أدينا، التي تمدّ رجلها خارج السرير وتُبعد الأخرى الخلفيّة عن الفراء. تصطَك أسنانها خوفاً، لأن الذيل المقطوع طري وكثيف ولم ينكمش.

تحمل أدينا قدميْ الثعلب وتضعهما مع الذيل فوق الطاولة غير متباعدتين. هنا ثعلب كامل، زحف نصفه إلى الطاولة وشرع يحفر تحت سطحها مستخدماً الرأس والسيقان الأمامية، وَضَع الذيل والساقين الخلفيّيْن فوق سطح الطاولة ليحافظ عليهما.

القمر على نافذة المطبخ، يبدو مترهّلاً تماماً لأنه عاجز عن البقاء وهو يشعر بالغيظ منذ الصباح. إنها السادسة والقمر شاحب. ما يزال له ثلاثة أصابع صفراء، منها إصبع رمادي يضعه فوق جبينه. الباصات التي تسافر منذ الصباح الباكر يعلو ضجيجها، ولعلّ ذلك هي حدود الليل في المناطق العليا القريبة من القمر، الذي بقي معلقّاً وهو يغادر المدينة لأنه غير مستدير. الكلاب تعوي والظلام يبدو وكأنه استحال إلى شَرَك، وكأنّ فراغ الشوارع في الجماجم، وهو بمثابة الدماغ الهادئ. أو كأنّ كلاب الليل تخشى بزوغ النهار حيث يخشى الجوع المُنْتظرَ أن يلقى الجوع الذي يهيم على وجهه في الطرقات عندما تمر الناس بتلك الكلاب، وعندما يلتقي التثاؤب بالتثاؤب وتتبادل الكلاب النباح كما تتبادل الأنفاس.

للجوارب رائحة العَرَق الشتوي. تسحب أدينا تلك الجوارب كالأرجوحة في القطار فوق ساقها العاريتيْن وتسحب المعطف فوق لباس النوم. في المعطف توجد المعاطف السوداء الصغيرة الخاصة بالجسر والمعاطف الكبيرة الخضراء التي تخص الباص. في أزرار المعطف توجد محطة القطارات الصغيرة والسوداء الموجودة في حدقتيْ العينيْن. وفي جيب المعطف ما يزال المال الخاص بالرحلة والمصباح الكهربائي. المفتاح مُلقى فوق طاولة المطبخ وما تزال القاذورات الموجودة في ساحة الثكنات تلتصق بالحذاء، وتنزلق إلى داخله.

الدائرة المحيطة بالدائرة الكهربائية ناتئة والحاجز الحجري وسخ. قفزت إحدى القطط من خلال صندوق القمامة، أقدامها بيضاء وخلفها كأس مكسور.

موقف السيارات خالٍ والملعب محتفظ بالساتر الترابي في الظلام، والسماء هناك صارت رماديّة. وراء الملعب يعلو صوت الحديد، وهناك المصنع، لكنّ أحداً لا يستطيع أن يرى المداخن، فما يعلو هناك هو الدخان الأصفر. المترو يصدر ضجيجه، والنوافذ تضيء، والناس فيها يقظون، أما النوافذ الأخرى فهي معتمة والناس على الجدران في حالة نوم.

في شوارع الأقوياء الهادئة، يظهر الصباح متأخراً، حيث تكون النوافذ معتمة وأعمدة الكهرباء مزخرفة وتكون المصابيح الكهربائية معلّقة في الحدائق وفوق الأدراج. تضيء تماثيل الأسود والملائكة الحجرية. ودائرة الضوء على وجه التحديد هناك، ليست مِلْكاً للغادين

والرائحين الذي لا يقطنون هناك ولا ينتمون للمكان.

أشجار الحور سكاكين تخفي حوّافها الحّادة وتنام واقفة. هناك مقهى، أزيحت منه الكراسي البيضاء المصنوعة من الحديد، فالشتاء لا يحتاج إلى الكراسي، لأنه لا يجلس بل يمضي صوب النهر ويظل معلّقاً تحت الجسور. الماء يلمع ولا يرى شيئاً، إنّه يترك شجر الحور وحيداً.

يذهب أولئك الذين يصطادون السمك بالصّنارة إلى أسرّتهم مبكرّين، وينهضون في الصباح الباكر ويقفون أمام محلاتهم ويلتقون بعد الظهر في المقهى العابق برائحة السجائر، فيشربون ويتحدثون حتى يعود اللّمعان للماء. في برج الكاتدرائية تدق الساعة سبع مرّات في الضباب، وتبقى الأكاسيا ضعيفة في الأعلى. في هذه اللحظة يتم إدخال المفاتيح وإزاحة المزلاج وفتح أبواب المحلات التجارية. تقُشّر الأكاسيا الخشبَ في الأطراف العليا وتحولها إلى اللون الرمادي. في نهاية الموقف الخاص بالسيارات تبرز الأشواك من كل غصن، لكن الجذور لا ترى ذلك.

ليس ثمة أحد في المحل التجاري، فالإمبراطورة ترتدي السترة الواقية من الريح فوق سترة زرقاء فاتحة، وتكاد قبّعة الفراء تحجب عينيها البنيّتين. تتناول أدينا إحدى السلال. عبوات المربى مرتّبة في صفوف، ولتلك العبوات الحجم نفسه ويعلوها الغبار بالطريقة ذاتها وله أغطية صفيحية متشابهة ولها تجويف متشابه، وتُعرض كلها بالطريقة ذاتها. وعندما يمرّ ضباط إلى جوارها تفكرّ أدينا بأنهم سيزحفون. لكنّ الصدأ الذي يعلو تلك العبوات هو ما يُميّز بينها، إضافة إلى القطرات التي

تخرج من تلك العبوات وتلتصق بها.

وَضَعتْ أدينا في سلّة التّسوق زجاجةً من العرق. كان بخار القهوة يتصاعد في وجه الإمبراطورة التي قالت إن المشروبات لا تباع هنا قبل الساعة العاشرة، وكانت ترتشف فنجان القهوة رشفات تختلف في طولها وقصرها، وتمسح قطرات القهوة عن ذقنها. رفعت المرأة عينيها تحت القبّعة ونحتّ فنجان قهوتها ومدّت يدها في السلة فبدا الطلاء الأحمر فوق أظافرها، وكأنّ لها أنامل إضافية، بعدها وضعت زجاجة العرق تحت صندوق الحساب.

وضعت أدينا الورقة النقدية إلى جوار فنجان القهوة وقالت بصوت خفيض: لم يسبق لي أنْ سكرت في حياتي، ونحن في السابعة صباحاً. لم يسبق لي أن سكرت في حياتي على الإطلاق، والنهار ما يزال على الأبواب، ثمّ قالت بصوت مرتفع، نحن في السابعة وكل الأيام تحتوي على الساعة السابعة وتقف على الأبواب، ولم يسبق لي أن سكرت على الإطلاق، ثم بدأ صوتها يتكسّر ووجنتاها تسخنان ويعلوهما العرق. إنها السابعة هذه هي زجاجة العرق التي اشتريتها، وهذه هي نقودي وثمة يوم ما يزال أمام الباب. وأنا لم يسبق لي أن سكرت قط، ولا أريد أن انتظر طويلاً، أريد أن أشرب الآن وأسكر، ولا أريد الانتظار حتى العاشرة. وضعت المحاسبة الورقة النقدية في يد أدينا وقالت: هذا ما يريد كثيرون أن يفعلوه.

رجل يرتدي معطفاً أزرق فاتحاً، يجّر أدينا من كتفها ويقودها نحو الباب، ويقول من ورائها القانون والعَرَق والشرطة. تنزلق قدماها،

فتتكسّر الأوساخ الجافة التي علقت بالحذاء من الثكنات إلى قطع صغيرة في حين تتكسر القطع الكبيرة الرطبة التي علقت بالحذاء من موقف السيارات إلى أجزاء كبيرة. لباس النوم الذي ترتديه فوق الجوارب، ويظهر خارج المعطف بوضوح، تفتح المحاسبة الباب، فتصرخ أدينا، من أنتم، دعوني، اسمعوا، لا تمسكوا بي!

قرعت أدينا الجرس ثلاث مرّات، فُتح باب الشقّة، فأعشى بصرَها نورٌ مربّع ساطع. سارت في الممر وهي تحمل غصناً عارياً في يدها. فطلب باؤل أن تذهب إلى المطبخ، لأنّ أنّا ما تزال نائمة في الغرفة. أطرقت أدينا مرة وثانية وثالثة، تأملها باؤل فرأى قميص نومها يبرز من المعطف. ناولته الغصن العاري وهي تضحك بصوت مدّو وتقول: سيصبح هذا الغصن نبتة ليلك. جلست أدينا إلى جوار طاولة المطبخ وأمامها فنجان قهوة. وإلى جواره مفتاح.

نظرت أدينا إلى ساعة الحائط، ووضعت قطعة من النقود وتحسّست وجهها وهي تقول. هذه هي عيناي، وهذه هي جبهتي وهذا فمي، ثم فتحت أزرار المعطف وقالت: وهذا هو قميص نومي. وهناك ساعة الحائط، وهنا مفتاح ملقى على الطاولة، وفي الخارج هناك نهار يقف بالباب، أنا لست مجنونة والساعة الآن هي الثامنة، وفي كل يوم تتكرّر الساعة الثامنة، ولم يسبق لي أن سكرت على الإطلاق، لكنني أريد الآن أن أكون ثملة، ولن انتظر إلى العاشرة. ثم جرّت فنجان القهوة إلى حافة الطاولة.

أعاد باؤل النقود إلى جيب معطفها، ووضع كأساً أمام فمها، ثم

وضع زجاجة، بعدها صب الرجلُ العرقَ في الكأس ووضعه في يدها بقوة. لم تشرب أدينا ولم تبك، فعيناها تتحرّكان وفمها صامت. يمسك باؤل برأسها، بينما تقف أنّا بالباب، لم تستحم ولم تمشط شعرها، لكنّها ارتدت ملابسها. تتناول المفتاح عن الطاولة وتضع الحذاء في قدميها، وتمشي على أطراف أصابعها في الممر وتغلق الباب بقوّة.

يقول باؤل، يمكنك البقاء، عليّ أن أذهب الآن للعمل، ويُغلْق الباب بقوة

هنا حذاء أدينا في الممرّ. وهناك معطفها فوق الكرسي في الغرفة وهنا جواربها ملقاة على الأرض. الغصن العاري الذي سيصبح زهرة ليلك موضوع في المزهرية إلى جوار السرير، الذي ما يزال ساخناً من وجود أنّا فيه.

قبلة اليد

تسحب أدينا الجوارب، لكنّ ساقيها ليسا داخل الجوربين وتسحب المعطف، لكنّ ذراعيها ليسا داخله، وحده قميص النوم يبرز خارج المعطف. تحشر أدينا قميص نومها داخل الجوربين. المفتاح والنقود والمصباح الكهربائي كلها داخل جيب معطفها. الشمس في المطبخ فوق الطاولة وتحتها تتكوّم الأوساخ التي علقت بحذائها. وعلى الجدار تدّق الساعة وتستمع الساعةُ إلى دقاتّها الذاتية. الظهر سيحّل قريباً. تجرّ أدينا الحذاء، لكنّ أصابعها ليست داخله، إنّها في داخل الساعة. تسير أدينا على أطراف أصابعها خارج المطبخ، وقبل أن يحل الظهر ويتلاقى عقربا الساعة في المنتصف، ينفتح الباب وينغلق.

أنفاسن أدينا تسبق خطواتها، تمدّ يدَها صوب تلك الأنفاس، لكنّها تفشل في أن تمسك بها. تقف حاوية القمامة إلى جوار الطريق. وامرأة عجوز إلى جوارها، تحمل المرأة عكّازاً وكيساً من القماش نصف مليء. يخدش العكّاز وجه الإسفلت، فللعكاز مسمار يدّق باطن الأرض، تحني المرأة رأسها في الحاوية وتطعن بالمسمار قطعة من الخبز الجاف ملقاة فيها.

الزاوية مصنوعة من زجاج النوافذ، خلفها يجلس رجل تحت منديل أبيض. الرجل شاب ونحيل. تظن أدينا بأنّ كيس الشعر الخاص به لن يكون أثقل من كيس خبز مملوء عندما يموت. يتحرك المقص جيئة وذهاباً، فتسقط أطراف الشعر فوق المنديل. يقص الحلاق الشعر ولا

يكف عن الحديث، فالحديث يطيل الوقت شتاء، كما تطيل أدينا الطريق في الذهاب إلى منزلها، فالثعلب يحفر أسفل الطاولة والشجرة تنمو في منتصف الإسفلت وتقف أمام الزجاج حيث يتساقط الشعر، إضافة إلى أن الشجرة عارية من الأوراق.

يثني الباص الثاني أوكورديونه الأسود، وتبدأ أجزاؤه تنفتح وتنغلق والأبواب تبحث عن الطريق والسائق يأكل حبة تفاح. يقفز أحد الرجال، قبل أن يتمكن من رؤية الدّرج، وكان ساقا بنطاله يتحركان وحذاؤه يلمع ويرتدي سترة واقية.

كان الأوكورديون يُصدر أصواتاً وجذوع الأشجار تسافر عبر الزجاج. أما المعاطف فتسير ببطء، في حين تقترب عربة القيادة من الزجاج، ولم يحمل الباص معه سوى النعش الذي كان مربوطاً فوق سقف إحدى السيارات وسار به قليلاً. فالطريق أبعدَ جذوعَ الأشجار ودفع بالتابوت فوق كل شيء من خلال الأوكورديون وجعله يتنقل بين زجاج وآخر. بدأت الوحدات السكنيّة تتّحرك وبدا الرصيف الخاص بها كالجدار. مرّ النعش بزجاج النافذة الأخيرة، ورآه الرجل الذي يرتدي السترة الواقية. توجهّت أدينا صوب الباب الخلفي، فُفتُح الباب وقرص الرجل أدينا في ردفيها. وقفت أدينا على الدّرج ودفعت الرّجل جانباً وتعثّرت، فانغلق الباب وتصاعد الغبار.

مضى وجه الرجل بعيداً، فلّوح لها بقبضته، بعدها فتح راحة يده وبعث لها بقبلة عبر الهواء.

لم يحفر الثعلب تحت الطاولة، فالفراء ملقى على الأرض، مقابل

النافذة، تضع أدينا المفتاح فوق الطاولة وتقف في الغرفة، لكن الغرفة تظل تقف وحيدة. ساقا الثعلب الخلفيّة والذيل تستلقي بقوة فوق الفراء إلى الحد الذي تحجب فيه ذلك الجزء. تزيح أدينا بطرف حذائها الساق الخلفيّة اليسرى بعيداً والساق اليمنى الخلفيّة والذيل تباعاً. وتجرّ الساقُ الأمامية اليسرى البطنَ والرأسَ وهما مستلقيان. والسرير يبقى مفتوحاً.

المطبخ والتفاح والخبز.

تقف أدينا في الحمّام، والحمّام يبدو وحيداً، في حوض المرحاض تطفو بقية سيجارة في الماء منذ ساعات خلت، وقد تفتّحت.

تضع أدينا الأوراق النقدية والمصباح الكهربائي فوق الطاولة وتخلع المعطف والجوارب، وتستلقي فوق السرير. أصابعها وقميص نومها والسرير كلها باردة.

تصغي إلى دقات قلبها ورأسها فوق المخدّة، تُدير الطاولة والأوراق النقدية والمصباح الكهربائي بنظراتها، ظلّ المنبه يرنّ ويرنّ، حتى اختفى الضوء من النافذة، صوت جرس يرنّ. لم يكن ذلك صوت المنبّه. وجدت أدينا أصابعها وأرضية الغرفة على حافة السرير. أضاءت المصباح الكهربائي وفتحت الباب، فسقط على بيت الدرج ضوء رباعي، فضحكتْ وتحرّكتْ وجنتاها.

لباول فم بارد، كان يحمل غصناً عارياً في يده ويقول سيغدو هذا الغصن غصناً من الليلك. مدّت أدينا أصبع السبابة إلى جوار الغصن الذي تمسكه بيدها، وأشارت بالغصن إلى الثعلب. رفع الغصن السيقان

المقصوصة واحدة تلو الأخرى، فقالت أدينا: نحن ثلاثة ابتداءً من هذا اليوم، نظرت إلى باول وخلعت الشال عن رقبته. بدت رقبته حليقة فقال. كنت عند الحلاق هذا اليوم.

وضعت أدينا الشال فوق السرير. تقول أدينا: في كل غرفة أقمتُ فيها كان الثعلب يستلقّي أمام الخزانة حتى في سكن الطلبة، التي كانت غرفها ضيّقة وكل غرفة يسكنها أربعة. أذكر أنه كانت قطّة في ذلك السكن. وكانت القطة تتنقل بين الغرف من أوائل الدرج إلى نهايات الممرّ وتتابع قطع اللحم وتفترسها. ولم يسبق لها أن دخلت إلى غرفتنا، فقد كانت تشمّ رائحة الثعلب.

أدخلت أدينا إلى فمها طَرَف الغصن العاري، فقال باول لها: لا تنظري على هذه الشاكلة وإلّا فإنّ الغصن لن يكون زهرة ليلك. تدخل أدينا إلى المطبخ، فترى بأنه صار للمزهرية منذ زهور الأقحوان الأخيرة حافّة بنيّة. قال باول. لقد شاهدت كلارا يوم أمس في المستشفى، وكانت لها رائحة هذا الغُصن. كانت كلارا تنتظر في القسم الخاص بالإجهاض. صوت صنبور الماء يعلو. يقف باول بباب المطبخ، فيرى الفقاعات فوق الماء. ملأت أدينا المزهرية بالماء إلى الحافة البنّية ومرت به وهي تحملها، فسار خلفها.

قدم أخرى، يقول باول، ويكون لدينا ثعلب، يفقد المرء العقل أمامه. يضع باول الغصن في الماء ويقول، نحن لا نحتاج إلى منظار، هذا هو الثعلب. ونحن في وسط الغابة مع أننا بين السرير والكرسي، حيث يعكس الغصن العاري ظلّاً عارياً فوق وجنتيه. كان المنظار صباح هذا

اليوم لدى البّواب، الذي لم ينظر صوب الغابة بل استدار لينظر صوب المدخل في الأمام. وعندما وصلت ووقفت أمامه لم يضع المنظار جانباً، بل نظر نحوي وقال: أيها السيد إنّ لك عينين كبيرتَيْن كالباب. كان يمكن أن يكون الظل العاري فوق وجه باول كتجعيدة. بعدها يكمل باول. جاء أحدهم وأعطى البواب نقوداً لأن اليوم ليس يوم الزيارةِ. أعطى البّوابُ المنظار للرجل وتركه ينظر من خلاله، فخلعت معطفي ووضعته على ذراعي.

يضع باول أنامله على أنامل أدينا ويقول كيف يمكن لرجل أن يمنح البّواب نقوداً ويعود عند الصباح وهو يحمل معه الخبز الطازج ويصعد الدّرج، ليجد زوجته وقد توفيت في الليلة الماضية بحادث كهربائي. يضمّ باول أدينا ويقول: الإنسان يذهب ببطء، لأنّ للخبز الطازج رائحة. شعرت أدينا بذقن باول يتحرك فوق رأسها وبغضروفي أذنيه فوق شعره الحليق. كان من المأمول أيضاً، أن يُبعد المنظار ما يشعر به الرجل من رعب من خلال ما للمنظار من قدرة على التكبير، ولو لمدة يوم على الأقل.

تسحب أدينا ساقيها وتضعهما تحت قميص نومها وتمد قدميها صوب ذقن باول الذي يقول، لكنّ ما نأمله كان عبثاً، فقد كنا نأمل ونحن نستمع إلى وقع خطواته أن يفقد قواه العقلية.

تضع أدينا وجهها بين يديها وترى من خلال الفتحات الموجودة بين أصابعها ما تتحلّى به الغصون من إشراق والساق من إظلام.

أضاء باول المصباح الكهربائي وأطفأه. تناول الأوراق النقدية عن

الطاولة ولمسها بنعومة وقال: هذه هي التي كنت تريدين أن تعطيها لي صباح اليوم. فوق تلك الأوراق ثمة وجه قذر ومتغضن وطري. صنع باول بطرف الغصن حفرة في ذلك الوجه وأدخل الورقة النقدية عبر الغصن العاري، وقال: قدم واحدة وبعد ذلك.

المجرفة الضائعة

ترتفع الركبة اليسرى وتنخفض الركبة اليُمنى. العشب داست فوقه الأقدام، والأرض طرّية. تنزلقُ القاذورات بعيداً، والحذاء الضخم يضغط على الكاحل. رباط الحذاء ملطّخ بالطين، فهو يُربط ويُفّك مرتين في النهار. الجوارب مبتّلة والريح تهب فتنشف القاذورات والأيدي. تسقط القبّعة بين الأوساخ.

تتكسر السيجارة من الأوامر، وتغدو قذرة لانتقالها من يد إلى أخرى، حيث يتم إشعالها أربع مرات من الصباح إلى الظهيرة، يحلّق الدخان المتطاير من فم إلى فم على نحو خفيف، ويتم الضغط على السيجارة ثلاث مرات ويتّم رميها في المرّة الرابعة وهي مشتعلة.

الخنادق عميقة بما يكفي، وتصل إلى الرقبة، والضوء المسّلط على الأعشاب قوي تماماً كالدّبابة في الغابة وكالجبهة فوق العينين. والنهار يتم سحبه بين الوادي والتل فوق الأرض.

إنّه المساء، ترّف حواجب الجنود، والضابط ذو الأسنان الذهبيّة يذهب ليتبّول بعد إعطاء الأمر الأخير، فيبتعد قليلاً عن الدبابة ويصل إلى مسافة تبعد ثلاثة أشجار. يحرّك الجنود أحذيتهم، لكنهم لا يقومون بالتجريف. بل يصمتون ويصغون إلى شلال المياه المتدفق من الضابط وكيف يقع فوق الأرض. لكنّ الأغصان تتصّدع وتهرب الغربان إلى أعشاشها وهي تنعب، فهي تستشعر الضباب الذي يحجب الأشجار. ولعل تلك الطيور تحسّ بمْقدم الثلج الموجود وراء تضاريس المكان أو في

الصخور المنبسطة للنهار القادم. الثلج، ذلك القاسي والجاف والذي يبقى طويلاً الثلج، الناصع البياض الذي يجعل مخالب تلك الطيور مفتوحة على الدوام وباردة، لأنها لا تجد ما تأكله باستثناء حبات الذرة المتجمّدة.

لا أحد يستمع إلى الأشعة فوق أرض الغابة.

يزرّر الضابط بنطاله ويضغط بقوة على القبعّة الموجودة على رأسه، ويلف الشال حول عنقه، ويزيل القاذورات عن حذائه بغصن جاف. اصطفاف، تعداد، كلّ صوت يختلف إحساسه بالتعب عن الصوت الآخر، وكل شهيق يصدر عن الفم، هو حيوان مختلف يشعر بالعطش.

صفّان: الطّوال والقِصار.

يصيح الضابط، المجرفَة فوق الكتف، أين هي مجرفتك يا **دولغا؟** يرفع إيلّي يده ويؤدي التحيّة العسكرية، حاضر أيها الرفيق الضابط، لقد ضاعت مجرفتي. يرفع الضابط أصبع السبابة، وتبدو سنّه الذهبيّة أكثر إشراقاً من وجهه ويقول: ابحث عنها، فلن يُسمح لك بالعودة إلى الوحدة العسكرية بدون المجرفة.

إلى اليمين در، مُعتدل سِرْ، إلى اليسار در. يسير الجنود سيراً عسكرياً فوق آثار الدبابات ويصعدون إلى التلة. تبتلعهم أطراف التلّة من الأسفل. والسماء من الأعلى.

لم يعد إيلّي يستمع إلى صوت الخطوات العسكرية المتشابهة، فقد كان يسير على امتداد الخندق. كانت عيناه تفتشان عن المجرفة الأكثر سواداً من الأرض. لقد تألّمت يداه من المجرفة لأنّها لم تعد تحفر، ولأنّ

الأيدي لم تعد قادرة على الحفر أيضاً ولأنّ الجلد اللّين قد احترق. لم تعثر قدماه إلا على العشب والقاذورات،ولم تراه عيناه سوى التلّة. بقي طيلة الليل واقفاً، والغابة زاوية سوداء تخلو من الشجر.

يفكرّ إيلّي أنّ سهلاً منبسطاً يقع وراء التلة، وأن هذا السهل قد يصبح في الليل مليئاً بالماء، الماء الناعم الذي يستطيع أن يهرب من خلاله، وسيكون هذا الماء أسود كالشاطئ، بحيث لا يستطيع أحد أن يرى المكان الذي سينزل فيه، وسيحمله الماء إلى حيث يريد. وهو يعتقد بأنّ الإنسان، عندما يسبح لمدة طويلة، تعتاد عيناه على منظر الليل وتستطيع أن تتجاوز الكثير، وعندما يتخطّى المرء كل شيء، تصطدم الأيدي بميناء آخر في بلاد أخرى. لكنّ عليه، كما يظنّ، أن يخلع ذلك الحذاء، قبل أن يقفز، إنه يخلعه، وسيكون على الشاطئ وهو يحمل الرباط المفكوك، والرباط المعقود، لأنه ليس لديه وقت ليضيّعه. وفي صباح الغد، عندما يبدأ النهار في وقته المحدد مبكراً، ومملوءاً بالبخار إثر صدور الأمر من صاحب السن الذهبي الذي يصحو في وقت مبكر جداً، ويكون الطابور يسير بخطوات عسكرية نحو التل وراء آثار الدبابات، سيكون الحذاء موجوداً وتعود الأشجار والغربان إلى الغابة من جديد.

يشعر إيلّي بالخوف فوق قمّة التّل ويخرج من كعب قدمه. الأرض سوداء والسهل لا ماء فيه. يسير إيلّي بمحاذاة آثار الدبابة ويشعر بالخوف حتى من النظر إلى ذاته. لقد شاهد الخندق كل شيء، وسيعرف الضابط ذو السّن الذهبيّة يوم غد أن الأمر خيانة. سيصرخ فمي وسيلمع سنّه. وتبقى قمّة التل صامتة ولا تدري أنّ الليل أمضى ساعات في جبهة

إنسان، واستطاع أن يدفع بوضوح إحدى الجماجم لتنتقل من الفزع إلى الهروب.

بعد ذلك تفتح كلُّ خطوة حفرة في البطن، ويغدو كلّ تنفسّ كالحجر في الحنجرة. تخدش أعوادُ الذرة المكسورة عضلاتِ الركبة، ويُغطّي العشبُ الردفيْن العاريين. كان على إيلّي أن يتغّوط، فيرفع رأسه ويضغط. تعم الرائحة الكريهة كل شيء، حقل الذرة والغابة والليل والقمر، وتصل إلى الأشياء غير الموجودة.

يبكي إيلّي ويلعن أمّ الجنود والضباط والدبابات والخنادق. ويلعن كلّ ما أنجبه العالم.

لعناته باردة، ولا تصلح للأكل ولا للنوم. لكنّها تصلح للتجوال هنا وهناك وللبرد الذي يصل حد التجمد وهي تصعد بين أعواد الذرة وتختنق. لعناته تصلح لعُباب الماء وللسهول، كما تصلح للتهديد وللسكون الممتّد.

عندما تنكسر اللعنات، فإنّها لا تعود سيرتها الأولى.

عندما يكون الجوّ بارداً
لا أستطيع أن انظر إلى الماء

أدري، أدري، تقول كلارا بصوت مرتفع، بأنّ للمترو ضجيجاً، وأنه يسافر بالقرب من الأراضي المستوية، وأدري أيضاً بأنّ إيلّي إنسان حساس، وأن الجسر يهتزّ والأشجار تحتشد في موقف السيارات. وكنت أدري، تقولها بصوت خفيض، أنّ إيلّي لا يستطيع أن يحتمل الثعلب. فأظافره الحمراء تنغرس في الشعر أولاً، ثم تظهر هذه اليد، بيضاء محنيّة. بعد ذلك أن تكون قد غاصت في الشَعْر. وأنا أدري بأنّ إيلّي لا يهرب، وأنّ شعره يطير كالمروحة فوق جبينه. أجابت أدينا، هذا ما لا تعرفينه، فكيف لك أن تعرفي هذا كلّه. ثم نظرت إلى وجنتي كلارا وأطرافها وفوق عينيها السوداوين.

يغدو النهر في غياب صيّادي الصنارة خطّاً مائياً في المدينة لا غير، ولا يزيد على التهاب مفصلي كسول يقع بين المرآة والأرض، على نحو يمكن للمرء أن يشمّ رائحته.

تزحف قدما كلارا فوق البلاط الحجري، بينما تبقى أدينا واقفة. تسير كلارا، دون أن تتنبّه، ثلاث خطوات في منتصف البلاط الحجري. هيّا، تقول كلارا، فعندما يكون الجوّ بارداً. فإنني لا استطيع أن أنظر في الماء. بعد ذلك بقيتْ كلارا واقفة، وانتصب شعر رأسها أسود اللون كأنه عشب النهر. هنا، تقول أدينا. يُصبح الإنسان عارياً أمام البرد. سحبتها كلارا من ذراعها. قالت: هنا أشعر بالدوار تماماً. بعدها تراجعت عن

الماء بضع خطوات. ترمي أدينا ببعض الأوراق الذابلة في الماء، فتقول كلارا وهي تتابع تلك الأوراق بنظراتها، لكنّه لا يصح لك أن تشعري بالقرف من النهر، فتقول أدينا، لقد رآك باول أمس في المستشفى.

أعرف ذلك، قالت كلارا، وأعرف كذلك أنّه قال لك كلّ شيء. أظافرها الحمراء تغوص في جيوب المعطف وقد تمكنت من أن تدفع البطن بيدها إلى الخارج. كنت حبلى، ولم تظهر اليد البيضاء المحَنْيّة فوق الأظافر. سألتها أدينا: لماذا تقومين الإجهاض؟ تلتصق بإجابة كلارا الضعيفة أوراق ذابلة عندما تقول: إنّ باؤل يعرف الطبيب.

يتجمّد العشب في موقف السيارات ويمتّد على شكل حزم إلى جوار الطريق، كثيفاً وفارغاً، لكنّ الأغصان في الأعلى تصغي دون أوراق.

تناولت كلارا بعض العشب، ولم يكن ذلك يتطلّب منها أن تشدّه، فالعشب مُلقى هكذا ولم يسبق هذا أن عرف النمو. وقد بدا ذلك العشب منكسراً، لا يستطيع الوقوف بين أصابعها. استدارت أدينا وقالت إنّ الكَسْر ليس أمراً غريباً، فهو غصن يقع تحت الحذاء. سألت أدينا، أهو طبيب؟ فردت بل هو محام. فاستدارت وقالت إنّ الضجيج ليس أمراً غريباً؛ إنّه حبة بلوط سقطت فوق الطريق. سألت أدينا، كيف لم تخبريني بذلك على الإطلاق. رمت كلارا بالعشب بعيداً، لكنّ العشب لم يتطاير، فهو خفيف جداً، لهذا سقط فوق حذائها، ردت كلارا وقالت: لأنّه متزوج. بعد ذلك أخذت الأحذية تصدر ضجيجاً وبدأ الرمل يزحف فوق الطريق. امرأة تجّر دراجّتها الهوائية تمر بهنّ، تسأل أدينا ولكن لماذا خبّأت الأمر عني؟ تردّ كلارا وهي ترى الدراجة

التي تحمل كيساً. لأنه متزوّج. لم تلتفت المرأة التي فوق الدراجة، فأضافت كلارا، نحن لا نرى بعضنا إلّا في النادر، فسألت أدينا، منذ متى تعرفينه؟

يقف أمام دار السينما تسعة جنود وضابط. يوزّع الضابط تذاكر الدخول. يقارن الجنود أرقام المقاعد والصفوف. على لوحة العرض صورة لجندي ضاحك وصورة لحاجز سكة حديدية مغلق من البداية إلى النهاية. فوق قبعة الجندي تعلو السماء وتحت وجهه عنوان الفيلم

لا يستطيع أحد أنْ يَعْبُر من هنا(1)

حرّكت كلارا ذراعها وأشارت بذقنها إلى الجنود الواقفين عند السينما، زاغت عينا أدينا بين النباتات الخضراء الداكنة وقالت: لقد رأيتهم، لكنّ إيلّي ليس بينهم.

ثمة صوت يُحيّي القَزَم لعباراته الرفيعة، وللطوب الذي كسره.

ابتسمت كلارا، المدينة باردة، يقول القزم، فتطرق كلارا موافقة. رأسه ضخم للغاية، وشعره كثيف وساطع أمام تلك النباتات الخضراء الداكنة، التي تشبه العشب المتجمد في موقف السيارات. الآن، ثمة برد قارس يقول القَزَم، وعندما اشتريت التذكرة كان الجو دافئاً، وكان يضع كسرة من الخبز تحت ذراعه.

---

(1) فيلم روماني ظهر عام 1975، وهو من إخراج دورو ناستازه. (المترجم).

مرة واحدة في الماضي
وليس الآن

رجل عجوز يجرّ أسطوانة غاز فوق عربة يدوية. فوق مفتاح الإسطوانة غطاء، وفي الغطاء عُلقت حقيبة مملوءة بالخبز. مقبض العربة اليدوية هو مكنسة في واقع الأمر، وعجلاتها من درّاجات الأطفال الثلاثية العجلات، وهي ضيّقة وتدخل بين فتحات البلاط الحجري. يجرّ الرجل العربة ويسير بضع خطوات إلى الأمام تشبه خطو حصان أعجف. يهتز غطاء أسطوانة الغاز، فيظلّ الرجل واقفاً ويدع المكنسة ويتناول قطعة من الخبز، ويبدأ بمضغها وهو يتأمل سيقان أشجار الحور، ليتأمل الأغصان بعد ذلك.

تتّحرك الأقدام خلف الرأس، وتهتزّ الخطوات خلف الأعناق. تُدير أدينا رأسها. تضع يداه بذور زهرة عباد الشمس في فمه، حذاؤه يلمع، ساقا بنطاله يهتزان، وسترته الواقية تصدر لوناً من الخشخشة. الحذاء يتزحلق فوق وجنتيها. إنه ذلك الرجل الذي جاء من الباص والذي ظل ينقل التابوت من نافذة إلى أخرى. قال لها: أنت تعجبينني ثم بصق قشر بذور زهرة عباد الشمس فوق الحجر وأضاف: أنت رائعة في السرير. هنا ثمة مقعد وفوق المقعد زجاجة فارغة. قال لها: أنت ماهرة في الجنس. فوق المقعد التالي كان ثمة مسامير حديدية عارية، وخشبة يمكن الجلوس فوقها. قالت له: غادر فوراً، وجلست في منتصف المقعد الفارغ. بصق الرجل بذور زهرة عباد الشمس فوق المقعد، فأسندتْ

ظهرها إلى المقعد، فجلس إلى جوارها. قالت له: هناك من المقاعد ما يكفي، وزحفت إلى طرف المقعد وقالت: غادر فوراً وإلا فسأصرخ، نهض الرجل وقال: لا بأس، لا بأس. ثم نهض الرجل وفتح أزرار بنطاله وأخذ يتبول في النهر، وحياها. نهضت وبدا وكأنَّ لسانها يقف في عينيها لشدة شعورها بالتقزّز، لدرجة أنها لم تر البلاط الحجري وهي تخطو خطواتها الأولى. شعرت وكأن الماء البارد قد غمر رأسها من خلال أذنيها. أنهى الرجل تبوّله وصاح بها من الخلف: أنا على استعداد لأعطيك مائة لاي.

وقفتْ أدينا فوق الجسر، لكنّ الرجل سار ببطء في الاتجاه المقابل الذي سبق له أن جاء منه. كانت ساقا بنطاله تتحركان، وقد بدتا نحيلتين. كان الرجل يرفع يده نحو وجهه مراراً، لأنه كان يتناول بذور زهرة عبّاد الشمس.

سأل الرجل ماذا عن الطفل الروماني الصغير الذي دخل النّار؟ قلت: لا أدري. فقال، لكنك كنتِ تعرفين ذلك قبل ثلاثة أسابيع ثم أضاف، إنني أعرف، كما يعرف الجميع، أنّ الصّغار يدخلون الجنة وليس النار وفي هذا تناقض. قلت إنني قمت بفتح الدّرج لأنني أشعر بالبَرْد، وقد كنت أبحث عن منديلي فقال إنه كان عليّ أن أقوم بإغلاق الدّرج. فسألت لماذا كان عليّ أن أفعل ذلك؟ فقال إنه كان يمكن أن يكون في الدّرج شيء لا يجوز لي أن أراه. قلت له: هذا مكتب عمل، فقال إنه بعد أربع سنوات ونصف يكون في كل دّرج شيء عزيز علينا. ضحكت وقلت إنني لم أكن أدري أنّ الأمر سرّي إلى هذا الحدّ.

فقال لي بعدها إنه يعمل محامياً، وإنّه قد رُبّي على نحو حسنٍ؛ وسأل بعدها: ماذا يمكن للطفل الروماني أن يرى في جهنم؟ بعدها روى لي هذه الطرفة: توفيّ طفل روماني صغير ودخل النار، فوجدها شديدة الازدحام والجميع يقف في الوحل الحار حتى الرقبة. أشار الشيطان للطفل الصغير بالذهاب إلى المكان الفارغ الموجود في الزاوية، فذهب إلى هناك وغاص في الوحل إلى ذقنه. إلى جانب الشيطان كان ثمة رجل يغوص في الوحل فعرف أنه شاوشيسكو، فسأل الطفلُ الشيطان: أين العدالة يا ترى، لقد ارتكب الرجل الكثير من الخطايا مقارنة بي، فقال الشيطان صحيح، لكنّ الرجل يقف فوق رأس زوجته.

أخذ الرجل يضحك ويضحك، بعدها لاحظ أنه يضحك، وأن نظرته أصبحت حادّة، فضمّ كتفيه وارتعشت البقعة الجلدية الموجودة فوق الوريد الموجود في عنقه. لقد كرهني، لأنه كان يتّوجب عليّ أن يضحك. اندفعت قبضة يده، وصارت يداه كالشوكة والسكين، فتناول قطعة من الورق من الملف الموجود معه ووضع قلماً فوق الطاولة. اكتبي، قال لي. أمسكتُ بالقلم، فتطلّع إلى المصنع عبر النافذة وأملى عليّ أنا فقلت: أنا أم أنتم فقال لي: اكتبي أنا ثم أضيفي اسمك: فكتبت:

لن يقول أحد باستثناء من له صلة بك أنني قد عملت معه. بعدها وضعت القلم جانباً وقلت: لا أستطيع أن أكتب ذلك. سألني عن السبب فقلت بأنني لا أستطيع أن أعيش في مثل هذه الأجواء. هكذا إذن، قال، كان صدغاه يتحركان، لكنّ صوته ظلّ هادئاً. نهضت وابتعدت عن الطاولة. اتكأت على النافذة وأخذت انظر صوب الساحة، وقلت: لا

أريد أن أبقى محشورة في المصنع بعد اليوم. حسناً، قال لي: كنت أظن أنك تحتاجين أوقات ما بعد الظهر لنفسك. أدخل قلم الحبر إلى جيب سترته وكوّر الورقة وأدخلها إلى الملف. ثم فتحه، فرأيت فيه صورة شخصية، لم أستطع أن أرى الصورة بوضوح، ولم أر سوى جدار. كنت أعرف، أنني أعرف هذا الجدار، أنت تظنيّن أننا سنجري خلفك، لكنّك أنت من ستأتين إلينا من تلقاء نفسك. قال الرجل ثم فتح الحقيبة التي تحتوي على الملّف وأغلق الباب، وعندما ذهب رأيت أبي أمام هذا الجدار، بخدّين ضامرين وأذنيْن كبيرتين، وقد كانت تلك الصورة هي آخر صورة تلقّتها أمي من أبي.

سألت أدينا ما اسمه؟ فقال باول مورغو وأضاف أبي باول مورغو وما عمره؟ تسأل أدينا فيقول باول خمس وثلاثون، خمس وأربعون فيقول أبي، ليس ثمّة ما يُدعى خمس وأربعون.

المقهى مظلمة وزهور الغاردينيا على جدران النافذة تبدو حمراء غامقة، كما أنّ غطاء الطاولات يبدو أحمر غامقاً ويبتلع الضوء القليل. والمعاطف والقبّعات سوداء والمصابيح تضيء على نحو لا يكفي والدخان فاتح وهي تبدو معلّقة مثل كلام النوم المبالغ فيه. في الفجوات الموجودة بين زهور الغاردينيا في الخارج الواقعة إلى جوار النهر، فوق البلاط الحجري، ثمة يوم مسائي. سيقان أشجار الحور تقف منفردة فوق قدميها، وعلى طريق النهر تدور الريح، فتجمع الورق الجاف وتفرّقها من ثمّ.

صيادو الصّنارة يجلسون في المقهى، ويشربون حتى الثمالة. إنهم

يشربون إلى الحد الذي يصبح فصل المساء عن الأشياء التي تحيط به غير ممكن.

تسقط هنا أو هناك ورقة تحركها الرياح. وتلحظها أعينهم مصادفة وهي تنظر مصادفة عبر الزجاج. وهم يعلمون أن هذه الورقة تأتي من بعيد، لأنّ أشجار الحور تبدو عارية من الأوراق في الماء، وأغصانها تبدو مثل القضبان المستخدمة في الصيد. فصيادو الصّنارة لا يثقون بأشجار الحور. فهم يعرفون أن قضبان الصيد لا تبقى مرفوعة في الأعلى، إلا ورؤوس الصيادين، موجودة في الأسفل. فأشجار الحور تحول بينهم وبين الحظ في الشتاء. كما يقول هؤلاء الصيّادون، وأشجار الحور العادية تفترس الحظّ في أثناء الشراب.

سأل باول: من هو الذي أخبرته عن الطرفة. فردّ أبي: ليتني أستطيع التذكر.

ولأنّ الصيادين يخافون البطيخ فقد وضع كلّ واحد منهم زجاجة عرق نصف مملوءة فوق رأسه. وقد مدّ كل واحد منهم يديه جانباً كالجناح وسار وهو يضع الزجاجة فوق رأسه حول الطاولة.

لقد قرأ مورغو علّي تصريحاً يقول إن المقصود بصاحب الوجه الذي لا وجه له هو تشاوتشسكو وبأنّ هذا قد صدر عنك، ولم أصّدْق هذا الأمر، لكنّه أراني ورقة، كُتبت بخط يدك لكنّ أبي قال. إنّ مورغو كان يُملي. وكان ثمة رجل في الغرفة المجاورة يصرخ، وقد سمعت صوت الضربات. لقد كتبتُ كل شيء. فقال باول، كان ذلك صوت شريط على جهاز التسجيل. ثم نظر إلى أدينا، التي كانت ترى الوجهين في الفراغ.

كان لوجه أبي في الفراغ خدّان ضامران وأذنان كبيرتان. لكنّ أبي قال إن ما سمعه لم يكن قادماً من جهاز تسجيل، وهو لا يؤمن بذلك. ثم أضاف بأنه عندما سمح له بأن يغادر المبنى، وكان ذلك حوالي منتصف الليل، هبطت الدّرجات، فكان في منزل البّواب مرآة يدوية كبيرة بجانب الهاتف وإلى جوار المرآة منفضة سجائر فيها بعض الماء وفرشاة حلاقة. كان على وجه البواب شيء من رغوة الحلاقة وفي يده شفرة حلاقة. لم أصدق ما رأيت. بحثت عن البقعة الجلدية الموجودة على عنقه. وقفت إلى جوار البواب وأبعدت الشفرة عن خدّه، لكنّ الرجل صاح بي، أغلق الباب، فأدركت لحظتها أن البواب يحلق لحيته.

لم يكن ثمة أحد في الشارع، وفضلاً عن ذلك كان الظلام دامساً. يقول أبي. وكنت أرى باستمرار، رغوة بيضاء أمام حذائي. بعد ذلك وصلت عربة مترو فارغة لها نوافذ مضيئة، كان السائق يسافر وحيداً وعلى وجهه رغوة بيضاء، ولم أتمكن من الصعود إلى العربة.

يرفع أحد صيادي الصنارة، جرّاء ما يستشعره من خوف، زجاجة العرق ويضعها أمام فمه دون أن يشرب. ويغلق عينيه ويقبّل تلك الزجاجة، بعدها يبدأ يدندن بإحدى الأغنيات، وعيناه تطوفان بالموجودات المحيطة به. وكلّ ما يحيط به يسبح في الدخان. في الخارج تدّق ساعة الكاتدرائية مرات لا يعرف أحد عددها، لكنها أقصر من الأغنية التي كان يترّنم بها. كان الجميع، بمن فيهم أدينا، لا يستطيعون إحصاءها.

يسأل باول: لمن حكيت هذه الطرفة؟

يقول أبي: حلمت ليلاً بأنني كنت أبحث عن ذلك القبر في مدينة غريبة، وقد قادني بعضهم إلى ساحة حجرية، كان سورها الخلفي بمثابة الجدار الذي اتكأ عليه والدي. كان علي أن أقص شريطاً أبيض اللون، أعطاني رجل سمين مقصّاً. وكان رجل سمين قصير القامة يرتدي معطفاً أبيض يقف على أطراف أصابعه إلى جواري، همس الرجل في أذني، بأنه قد تم افتتاح الساحة. بعد ذلك مر إلى جانبي مجموعة من الرجال يتبع بعضهم بعضاً. وكانوا جميعاً ضعافاً ولهم أعين تشبّه الكرات الزجاجية، ليس فيها أي نظرة. سألني الرجل السمين القصير القامة إن كنت أراه. فأجبت بأنه لا يمكن أن يكون موجوداً. فقال الرجل السمين القصير القامة: ليس بوسع أحد أن يعرف ذلك، كلهم موتى.

صمت باول وأبي وأمسك كل واحد منهم رأسه بيديه، وشدوا على جماجمهم غير قادرين على الاستيعاب. كان الصياد ينشد تيرا تيرا تيراتا، وفمه موجود على كل وجه. كانت زجاجة العرق تنتقل تحت الطاولة من يد لأخرى، وكان كل صياد يغلق عينيه ويحتسي العرق.

يحل المساء في المقهى، الذي يستغرق وقتاً طويلاً في وسط المدينة، وفي أرجائها المختلفة. مثلما يعيش الظل الإنساني العابر في النهر. الشتاء يحّل في المدينة. ذلك الشيخ الخرف البطيء، الذي يتغلغل برده في عظام البشر. فالشتاء يحّل في المدينة، فتتجمد الأفواه، ويمسك بالأيدي وهي ذاهلة ويسقطها على تلك الشاكلة أيضاً، دون أن يتحوّل الماء إلى جليد، ويضطر كبار السّن إلى أن يرتدوا حياتهم الشخصية كالمعاطف. إنّه شتاء يضطر الشباب فيه إلى أن يكرهوا أنفسهم عندما تلاحقهم شبهة

السعادة، وهم يفتشون بعيون قاحلة. في الوقت نفسه، عن حياتهم، إنه شتاء يحوم حول النهر، حيث تتجمّد الضحكات بدلاً من الماء، حيث يسود التلعثم، ويتم الصراخ بأنصاف الكلمات. وحيث يصطدم كل سؤال بالحنجرة ثم يغدو صامتاً وأخرس فوق اللسان وعندما يصطدم بالأسنان.

يقبّل الصياد، خوفاً من البطيخّة، فم الزجاجة ويغنّي:

ذات يوم وليس الآن
كنت أنام ولم يكن ذيلي ينام
أما الآن، الآن، الآن
فإن ذيلي ينام وأنا لا أستطيع النوم
تيرا تيرا، تيراتا

البقعة الجلدية

الظلام حبيس بيت الدّرج ورائحته شبيهة بالملفوف المطبوخ. لم تتمكّن من العثور على المصعد، على الرغم من كونه باب الوحدة السكنية مفتوحاً. تتعثر ساقاها فوق الدرجات الأولى بقوّة إلى الحد الذي تبقى فيه الدائرة الصفيحية للمصباح الكهربائي عالقة فوق الدرابزين، وتقفز من خلاله إلى الجدار دون ضجيج. صوت الأحذية في الرأس. في الطابق الأرضي ثمّة غرفة تجفيف. وهناك تسقط بقعة ضوء من الخارج. بحجم اليد فوق حفّاظات الأطفال البيضاء. صناديق القمامة الموجودة إلى الجوار رمادية تشبه الإسورة القماشية. في الطابق الثاني هناك إبرة الراعي الكئيبة في وعاء بلاستيكي، تشبه رائحتها رائحة الأرض العفنة والملفوف المطبوخ. لم ترد أدينا أن تلسمها، فتجنبّت الدرابزين، في الطابق الثالث صوت الأحذية التي تتحرك. سيقان البناطيل تهبط الدرّجات وقميص يلّوح بوضوح. ترفع أدينا المصباح الكهربائي إلى الأعلى. تقفز الدائرة الكهربائية فوق كتف الرجل ومنتصف وجهه وعينه وأذنه وأطراف ياقته البيضاء. بين ياقة قميصه وأذنه ثمة بقعة جلدية مضيئة. أرنبة أنفه والدائرة المحيطة بالمصباح الكهربائي تنحنيان فوق ذقنه.

تفكّر أدينا بحبّتي الجوز وبذلك الرجل الذي يكسر حبة الجوز بيده والذي يسألها عن اسمها، وأنّه موجود في الطابق الثاني يذرعه جيئة وذهاباً وتتردّد خطواته في رأس أدينا. كان الوقت صيفياً وقد

سأل الرجل: وماذا بوسعنا أن نفعل الآن؟ كما أنّه روى الطرفة الخاصة بالطفل الروماني الصغير. وقد قال أبي إن البقعة الجلدية قد ارتعشت فوق العِرْق الموجود في رقبته.

في الطابق الرابع تقرع الأجراس، تسحب أدينا أصبع السّبابة وتصمت الأجراس. تقول كلارا، أعرف ما أعرفه، يصدر الباب صريراً، ويقف شعر كلارا المتجعّد عند الباب.

بعد ذلك تضغط أدينا على خد كلارا بجناح الباب، فيتراجع شعرها إلى الوراء قليلاً ويبقى وراء الباب المغلق. وعندما صار الشعر يبدو وكأنه جزء من الباب، مرّت أدينا وسارت عبر الممرّ. بقي باب المطبخ مفتوحاً وفاحت رائحة القهوة.

فنجانان فوق الطاولة، مِلْعقتان، مكعبّات السّكر، تتوزّع فوق الطرابيزة الموضوعة إلى جَانب السرير. السرير مفتوح والنقش الدمشقي فوق المخّدات كالهمس فوق الأفواه.

كان الرجل عندك، تقول أدينا، إنّه الرجل الموجود الآن في بيت الدرج وهو باقل. ترفع كلارا شعرها إلى الأعلى وتقول: صحيح. هنا تبدو أذنها حمراء كالجمر إلى جوار خدّها الذي كانت تضع أصابعها الدقيقة فوقه، حيث يعلق شعرها المبعثر حول عينيها.

تقول أدينا، يبدو أنكما تلتقيان نادراً ونادراً تعني هنا كلّ يوم. كانت أنفاسها تُسخّن كلّ كلمة وهي تقول أنا أدري لماذا تقومين بإخفائه، فمحاميك هذا يعمل في أجهزة الأمن السّرية. كان ثمة فوطة يدوية تحت ذراع كلارا وفوق مسند الكرسي وأصابعها الرقيقة تغلق الأزرار

الحمراء المدوّرة لبلوزتها. تقول أدينا: أنت تكذبين حتى عندما تصمتين. في المزهرية تبدو زهور القرنفل الحمراء المنتفخة التي تتلامس سيقانها والماء من حولها غير صاف.

لم أستطع أن أفعل شيئاً بخصوص المسألة التي تضرّك، ولم يكن بوسع باڤل هو الآخر أن يفعل شيئاً. فوق ماكينة الخياطة بنطال ضيق. أمسكت أدينا ذقنها بيدها واتجهت صوب المطبخ.

تتكئ كلارا على الثلاجّة وتضع أصبع السبابة فوق فمها وتقول بشفتين مُغلقتين، باڤل إنسان طيّب. تقف عبوة القهوة مائلة فوق الإطار، في حين يبدو الفرن مملوءاً بالقطرات المنتشرة فوقه. تقول كلارا لقد وعدني باڤل بهذا الخصوص، وهو يعرف أنني لن أستمرّ في حبه، إذا حصل لك مكروه. الفوطة المخصصة لتنظيف الجلي فوق الطاولة وتبدو مجعّدة. وماذا بشأن الثعلب، سألت أدينا، وهل أخبرك لماذا قاموا بتقطيعه؟ إنه ينام معك ضمن مهمّة موكلة إليه، وهو يريدنا معاً واحدة في الصيف وأخرى في الشتاء، ويكون في رأسه عندما يستيقظ كل صباح رغبتان كعينيه، أن تكون قبضته صارمة نحو الرجال وأن يكون فحلاً أمام النساء.

على نافذة الوحدة السكنية من الخارج هناك تنورة مخملية معلّقة، الجزء العلوي منها أحمر وجاف أما الجزء السفلي منها فهو أسود لكثرة ما فيه من الماء، إلى الحد الذي لا يتوقف فيه طرف التنورّة عن التنقيط. وماذا عن الآخرين، وهل وعد رجلك الطيب بحمايتهم؟ سألت أدينا. عضّت كلارا شفتيها ونظرت بطرف عينيها إلى صورة أدينا كما

تظهر في زجاج النافذة وقالت: أنت لا تعرفينه، وضغطت بيدها على شعرها.

هل تنامين مع رجل مثل هذا، تساءلت أدينا. عبوة القهوة مفتوحة وبقايا السكر تبدو متحجرة فوق بقع القهوة. تهب الريح على الشجرة في الخارج، تقول كلارا: أنت لا تعرفينه، الكرة الخضراء المنبعجة تدخل في غصن الشجرة. ترد أدينا، أنا لا أعرفك، الكرة الخضراء المنبعجة تدخل في غصن الشجرة. ترد أدينا، أنا لا أعرفك، مرّ على الكرة الخضراء المنبعجة شتاء آخر. فتقول كلارا، كنت أعتقد أنني أعرفك. أصابع كلارا مجموعة. بقع زرقاء فرق ركبتها، برودة البلاط وصلت إلى بطنها، تصيح أدينا، أنت تنامين مع مجرم، وأنت مثله، أنت تحملينه في وجهك، أتسمعين، أنت مثله تماماً. دفّأت كلارا أحد قدميها بالقدم الآخر، فصرخت أدينا، لا أريد أن أراك ثانية، لا أريد. سقطت يداها وبدت عيناها ممزقتين ونظراتها مثل صيّاد قفز من العينين ويصل إلى الهدف. وكان ما يصرخ به الفم المبلل كالجمر فوق اللسان. وأخذ غضبها يتحول إلى كراهية سوداء كمعطفها.

إبقيْ هنا، تقول كلارا. تهز أدينا أصابعها الرقيقة التي حاولت أن تسحب المعطف والتي صاحت: لا تلمسيني، فأنا لا أستطيع أن أرى يديك. بقي شعر كلارا فوق باب المطبخ. ولم يكن الممر يسمح للأصابع بالسير خطوة واحدة، صوت الباب، ينغلق.

الدرج بالقرب من الحائط والمصباح الكهربائي يوزع الأنوار هنا وهناك. تتوقف أدينا في الطابق الثالث وتمسك في الطابق الثاني

بالدرابزين بقوة بيد غير ثابتة. صندوق القمامة يصطدم بشيء ما، تسمع شيئاً يسقط في الأنبوب، بل في رأسها. وبعد درجتين يتكسّر الزجاج.

لو قدّر لإنسان أن يقف تحت الشجرة وأن يرفع رأسه نحوها، لرأى الكرة الخضراء المنبعجة الموجودة بين الأغصان، صغيرة ومعتمة وكأنه لا شيء هناك يمكن للعين أن تراه. المعاطف تمر من هناك، وبدلاً أن يكون فيها بشر، يكون فيها شهر تشرين الثاني، الذي يكون في أسبوعه الثاني كئيباً وهرماً، بحيث يأتي المساء فيه عند الصباح.

كانت أمي على الدوام، هي جدّتي، تقول كلارا، ليس من حيث السنوات، بل من حيث الكيفية التي تتعامل فيها مع السنوات. فعندما بدأت جدتي تتقدّم في السّن، تقول كلارا، كنت ما أزال طفلة صغيرة، فأمسكتْ بأذني ذات مرة وضغطتها بقوة وقالت: أين أنت يا بنيّتي، أين تذهبين عني بعيداً؟ وعندما بدأت جدتي تتقدّم في السّن، بدا زوجها يصغر وأخذ يبدو أصغر منها سنّاً، وكأنه كان يصون بشرته خلسة على نفقتها. وكأنّ أمّي كانت تذبل لصالحه. لكنني لا أريد أن أكون هكذا، ولا ينبغي للإنسان أن يكون كذلك. تقول كلارا. بعد ذلك أخذ جدّي يسرع. فكل ما كان يبدو نقاط قوّة عنده، صار يمثّل نقاط الضعف. جاء ذات مرة إلى المدينة ضعيفاً وكأنه يجيء للمرة الأولى، ولم يستطع أن يحتمل البقاء من غيرها في ذلك الصيف وتوفّي بعدها.

بقي باب الملعب الرياضي مفتوحاً. في موقف السيارات كان رجال الشرطة والكلاب. كان الناس يتدافعون من الباب وهم يغنّون ويصرخون. تحلّق الكرة الرومانية في فضاء اللعب المضاء ضدّ

الدنماركيين. فازت رومانيا بمباراة كرة القدم. يصعد الضوء من الحاجز المحيط بالملعب إلى السماء، وكأنّ القمر قد تناثر أجزاءً هنا وهناك. من هم الدنماركيون؟ تحمل أيدي الرجال الألوان الثلاثة، في ثلاث شرائح منفصلة، الأحمر الجائع والأصفر الصامت والبقع الزرقاء السّمان في بلد معزول. من يعرف الدنماركيين؟ تتحدّث شفاه الرجال عن العالم وبطولات كأس العالم. تزحف الأناشيد من حلوقهم كالأجمة الواقعة فوق السّد الترابي المحيطة بالملعب. ما الذي يريده الدنماركيون هنا؟ يقف عدّاء المسافات الطويلة دون أن يشارك. فعندما يكون الأصدقاء منفعلين، يكون وحيداً، ثم يشعر أنّه غريب.

يغني رجل عجوز استيقظي يا رومانيا من غفوتك الأبدية. الأغنية ممنوعة، يجلس الرجل على حافة الحجر، وينظر إلى ذنب الكلب وحذاء الشرطي، يغنّي الرجل بلا خوف ويرفع ذقنه عالياً تمسك يده بالقبّعة المصنوعة من الفراء، ينحيّها عن رأسه ويلوّح بها ثم يرميها فوق الأرض ويسير عليها بقدميه. ثم يقفز ويقفز ويغنّي إلى الحد الذي يمكن للمرء أن يستمع إلى صوت نعليه في أثناء الغناء.

والأغنية ممنوعة وتفوح منها رائحة العَرَق. فالرايات في الأعلى مجنونة ورؤوس الرجال في الأسفل سكرى. وخطاهم حائرة. تذهب الرايات ليلاً مع الرجال فوق الشارع.

يتداعى صوت الرجل العجوز، وهو يقول عندهم شجرة السنط العارية من الأوراق، يا إلهي من نكون نحن في العالم ونحن لا نملك خبزاً نأكله! يمّر إلى جواره شرطي وكلب وشرطي آخر. عندها يرفع

الرجل ذراعه ويصيح في السماء: يغفرُ الله لنا أننا رومانيون! كانت عيناه تلمعان في الضوء المتحرك وكان اللمعان يزداد سرعة في أطراف عينيه. ينبح الكلب ويقفز إلى عنق الرجل فيحمله اثنان من رجال الشرطة، ثم ثلاثة ثم خمسة ويأخذونه بعيداً.

يقوم موقف السيارات ويقعد، بما في ذلك شجرات السّنط، يقذف الشارع خطاه فوق وجهه، يقف الموقف على رأسه وتغدو السماء تحت نهر الدانوب ويكون الإسفلت هو الليل في الأعلى. في النظرة المقلوبة وتحت المتراس، وفي الأعلى في السماء في ذلك البلد المنعزل، ثمة ضوء أبيض يحوم حول المدينة.

كان رأس الرجل العجوز يتدّلى نحو الأسفل تماماً.

لعبة الدبابير

يبدو على وجه الطفل ذي العينين المتباعدتين والصدغين الضيقيّن طابع الوحدة منذ الصباح. يجلس ذلك الطفل فوق المقعد وحيداً بين الأطفال الآخرين، بعينين محمرّتين والدوائر الحمر فيها ذابلة.

حاولت أدينا مرّتين في أثناء الدرس أن تدعو ذلك الطفل إلى السّبورة، وكانت ترى أنّ الأفكار لا تستقرّ وراء الزجاج، في عينيه اللتين كانتا تتنقلان بين أجزاء النافذة. إنها نظرات فيها الكثير من التفكير والتأمل. بعد ذلك دعت أدينا أحد الأطفال الجالسين أمام الطفل الشارد إلى السبّورة ثم دعت طفلاً آخر يجلس إلى جواره. ذهبت عينا الطفل صاحب الصدغين الضيّقين بعيداً، لكنهما لم تلحظا شيئاً.

جلس الطفل، بعد انتهاء الحصة الدراسية، على حافّة النافذة وأخذ يتثاءب. وقال إنه كان مع أمه خلف الكاتدرائية الواقعة على بعد شارعين وراء الجسر، حيث يسكن الراهب الهنغاري. تجمّع الكثيرون هناك للصلاة والغناء، وكان هناك شرطة وجنود، لكنهم لم يشاركوا الناس غناءهم وصلاتهم، كانوا يكتفون بالمراقبة. كان الجو بارداً ومظلماً. وقد قالت أمه إن الناس يرتعشون برداً، وكانت وجوههم وأيديهم تلمع نظراً لوجود الشموع المضاءة. قال الطفل: ويداي كانتا تلمعان أيضاً، فعندما يضع الطفل شمعة أمامه، فإنّها تضيء عنقه ويده. يضغط الطفل على زجاج النافذة بإصبع يده اليسرى الممدود ويقول: كان الجنود والشرطة يرتجفون من البرد. تنظر أدينا إلى الثآليل على أصبعه، بينما ترتفع أشجار

الحور سامقة وعارية في السماء. يقول الطفل: إنّ أميّ قالت إنه حيث لا يوجد أحد، يمكن أن يكون أحد ما، مثلما توجد الظلال في الصيف بعض الأحيان، مع أنه لا شيء ولا بشر موجودون. وقد قالت أيضاً إنه توجد أدراج لا يراها الإنسان ولا يستطيع أن يفتحها. وهذه الأدراج موجودة في سيقان الأشجار وفي العشب وفي السياج وفي الجدران. رسم الولد بالطبشور يده اليسرى، بيده اليمنى على زجاج النافذة وقال إن أمّه قالت إنّ في تلك الأدراج توجد أذن على الدوام. وعندما أبعد الطفل يده عن زجاج النافذة، ارتسمت على الزجاج الخطوط العريضة الخضراء ليد واضحة. والأذن تُصغي، هكذا قالت أمي. وعندما يزورنا أحد، يضيف الطفل، تضع أمي جهاز الهاتف في الثلّاجة، ثم يضحك. فتطير ضحكته بعيداً عن وجهه، ثم يحني رأسه ويتكئ على يده التي يمسك بها الطباشير ويقول: أما أنا فلن أقوم بوضع جهاز الهاتف في الثلّاجة.

يرسم الطفل أظافر خضراء بين الأصابع الشّفافة، فحيثما تصبح الخطوط العريضة للإصبع غير واضحة، ترسم الطباشير ثآليل خضراء تحت الأظافر.

السماء رمادية، والرمادي ليس لوناً، لأنّ كل شيء رمادي، فالوحدات السكنية هناك رمادية، لكنّ لونها الرمادي يختلف عن لون النهار، الذي لا لون له.

يقول الطفل لأدينا، ليس للكبار ثآليل أيتها الرفيقة، فعندما يكبر المرء تتلاشى الثآليل وتذهب صوب الأطفال. فقد قالت أمي، إنه عندما

تتلاشى الثآليل، تأتي الهموم.

بخار ساخن يهّب من أفواه الأطفال. لكنّ المرء لا يرى ذلك البخار. فَتحت أشجار الحور الباسقة، يمكن للمرء أن يراه. وبعد قليل من الصمت، سيعلق ذلك البخار في الهواء. وسيحمل ذاته بعيداً. وسيكون في وسع المرء أن يرى في الهواء، ماذا قالت الأفواه. لكنّ ذلك لا يُغيّر شيئاً. كما أنّ ما يمكن للمرء أن يراه في الهواء، سيكون خاصاً به وغير موجود، فإن المدينة موجودة لذاتها، والناس موجودون فيها لذواتهم. وحده ذلك البرد القارس موجود من أجل الجميع، وليست المدينة.

فوق الأصابع الشفافة الموجودة على زجاج النافذة ثمة توت أخضر.

بدلة العرس ضيقّة. يمشي الرجل وراء الجّرار ووراء الموسيقيين، يقع بيت الشباب وراء الشارع الأول خلف المتراس الخاص بالملعب الرياضي، إنّه مكتب السجل المدني. يسير إلى جانب بدلة العرس ست من رجال الشرطة، دعوا أنفسهم لحضور الاحتفال، وقد قالوا إن احتفالات الزفاف ممنوعة، لأنّ التجمعات ممنوعة.

أُغلق باب المعلب الرياضي وعاد الدنماركيون إلى بيوتهم، لكنّ الأغنية الممنوعة انتشرت ولم تتوقف عن التردّد في أرجاء المدينة.

في الليل عوت الكلاب في جميع الشوارع، واقتربت أكثر مما كانت تفعل في الشتاء الخالي من الجليد. فعندما كان الليل وحيداً، وكان قد استيقظ لمدة طويلة، ولم يكن شيء في المدينة يستطيع احتماله سوى البرد. كان الناس ما يزالون يمشون ذاهبين إلى منازلهم. كان الليل بعيداً على نحو يفوق أكثر الطرق إلى المنزل بُعداً. كان الناس يقطعون الشوارع

والمصابيح اليدوية في أياديهم واللهب المنبعث من أعواد الثقاب فوق أصابعهم. بعد ذلك أضاءت الشموع.

في الطريق إلى المنزل كانت أدينا تسير خلف ذاتها وكانت بكرة الأسلاك الغليظة الصدئة، تخلّف وراءها بقعة صدئة فوق الشارع. فعندما يقع التجمّد ثم يعقبه الذوبان، وعندما لا تتساقط الثلوج. فإن الأسلاك تتلف تدريجياً. يعوي الكلب **أولغا** أمام الثكنة الخشبية، فتضيء حبات التوت الأخضر في عينيه. تصيح أدينا بصوت عال: **أولغا**. في رأس الكلب ثمة دُرْج، لا تسمح له أدينا أن ينفتح. والنهار محبوس في تلك الجمجمة، وهو يستدير إلى الوراء في هذا النباح الليلّي فالطريق تعرف ذاتها وهي ليست بعيدة والخطوات تتعثر وتتشابه دائماً.

بعد ذلك تبدأ الأقدام تغذّ الخطى، ويكون الرأس فارغاً، حتى لو كان الثعلب يقف فوق الطاولة. فالثعلب موجود في الرأس دائماً. عندما تجيء أدينا إلى شقّتها قادمة من الشارع، فإنّ البرد يدور في أطراف أصابعها ويشتعل، لأن أدينا تنظر صوب غرفة الاستحمام. بعد ذلك تزيح قدماها الذيل وقدمين من الفراء جانباً. وهو ما يتكرّر كلّ يوم.

في حوض المرحاض يطفو عقب السيجارة، لكنّه لم ينتفخ بعد. تضع أدينا الحذاء على مقدمة قدمها. تبتعد القدم اليمنى قليلاً مع طرف الحذاء الذي ترتديه. لكنها تترك العنق مستلقياً.

وبينما تُصغي أدينا إلى دقات قلبها من فمها، تضعُ أصابعها الأجزاءَ التي تمّ اقتطاعها فوق بطنها تماماً.

كان يمكن لباؤل أن يكون شاهداً على الزواج، لكنّ الناس لم يتركوا

رايتهم منذ الدنماركيين ولا يعودون ليلاً إلى بيوتهم. وكان باؤل في العمل المتواصل ليلاً ونهاراً، كما قال. أين يقيم الدنماركيون، فإنّ كرتهم مسحورة وجلودهم الرقيقة لا تراها الشمس. إنهم يقطنون هناك في الأعالي، حيث تتقلّص الكرة الأرضية، هكذا يشير مظهرهم، كما يقول باؤل.

عازفو الكلارنيت أفسدوا نشيد الزفاف، عازفو الكمان أمسكوا بالخيوط الرفيعة بين الوحدات السكنية، لأن الصدى يعلو في الأماكن الضيقّة. الأوكارديون ينفتح وينغلق. تسحب كلارا كعبها العالي من بين شقوق الشارع، القرنفل يتناثر وتدخل سيقانه بين فتحات الأزرار.

صندوق الجرافة يَعْلق أمام الجّرار ويعلو في الهواء. في الأمام الأسنان الموحلة. العروسان يقفان في صندوق الجّرافة. يرفرف غطاء الوجه، ترتعش زهور القرنفل البيضاء الخاصة بالعروس بين الأخاديد، وتغدو كمّا العروس ملطخيّن بالطين. القزم يرتدي حلة سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنق سوداء في شكل الذبابة. كعبا حذائه الجديد عاليان كقطعتين مكسورتين من القرميد. يضع غريغوري قبعة كبيرة فوق رأسه، في حين تضع البّوابة منديلاً ذا أطراف حريرية على رأسها ويحمل البواب قالب حلوى مدوّراً بين يديه، وعيناه مكبلتان وهو يغني:

زمان الصبا ولّى إلى غير رجعةٍ
ولم يبق إلّا شهر أيار وحده

مارا هي العروس. انتظرت هذا اليوم سنتين، لكنّ التجمع اليوم صار ممنوعاً. قال العريس، نحن نحتفل بزواجنا ولا نمارس عملاً

سياسياً. العضّة الموجودة في ساق مارا شفيت منذ زمن طويل. كانت تحرص على أن تريها له لأسابيع طويلة في المكتب. كانت تبدو حمراء في البداية، لكنّها سرعان ما كبرت وصارت زرقاء. وعندما صارت خضراء كانت في غاية الضخامة. نمت الأسنان وغادرت آثارُها الجلدَ ثم صارت صفراء وباهتة ومنكمشة وتلاشت تماماً. واجهت مارا صعوبات مع عريسها. كان العريس يريد فسخ الخطوبة، كان عليها أن تريه البقعة الجلدية كل مساء، وقد اعتاد على ذلك. لكنه لم يكن يعتقد إن المدير هو الذي عضّ مارا، ويقول: ليتني أدري أنّ هذه الأسنان هي أسنان غريغوري.

يحيا إوزّ الثلج من الثلج الذي لا يتساقط هاهنا. تُدير الإوّزات أعناقها وتفتح مناقيرها وتصيح. ترتبك الإوز فوق الأرض الخطأ. ذاب جليد الليل، تباعد الإزّوات ما بين أجنحتها وتصبح ثقيلة الحركة. وعندما يتمّدد الجلد العائم، ترتفع الإوّزات. يتّحرك الهواء بكثافة فوق العشب، ويمّر بعد ذلك بالشجر، فيبدو وكأنّ ثمة هديراً قادماً من حفيف الأوراق في غابة جرداء. تصطف إوزات الثلج في الأعالي في أثناء الطيران، ويتركن الأرض المستوية والحقل وتتساقط الذرة من بين أجنحتها. صحيح أنّه ليس ثمة ثلج، لكن السهول تتقّلص حيث كانت تلال الإوزات قد طارت وتغدو على شكل كرة بيضاء. فوق الأرض يبقى التلّ الأخضر الميال إلى اللون الداكن ينمو، أما الريش فإنه يطير لاحقاً بعد زمن طويل.

تبقى الغربان في الغابة لأنّها سوداء، وتتظاهر الأغصان بالموت.

يلعب الجنود لعبة الدبابير. يقف الجنود في دائرة، وفي وسط الدائرة تقف الناموسة ويجري الضغط فوق الوجه التي توجد فوقه بقوة وصلابة. يتجّه الوجه صوب الجهة الأخرى، دون أن يكون من المسموح أن يترك ذلك الضغط فجوات. تجتمع الدبابير حول الناموسة وتلسعها. ويكون على الناموسة أن تعرف الدبور الذي لسعها. فإذا طال الوقت ولم تستطع أن تعرف، فإنه يجري سحقها تماماً. الناموسة ترتبك وتشعر بالخوف. تضغط اليد بقوة فوق الصدغين، فتموت الناموسة تماماً. تسقط الناموسة على الأرض عند كل لسعة. ويتكرر ذلك إلى الدرجة التي تعجز فيها عن الوقوف. ويستمر ذلك طويلاً. ترتعش شفتا الدبور وتهمهمان يتوجب على الناموسة أن ترى الدبابير كلّها وأن تخمّن وهي واقفة.

وعندما تعجز الناموسة عن الوقوف، يسمح لها أن تتّحول إلى دبّور.

لكنّ الناموسة تبقى ملقاة، كل مرة، بعد اللسعة الأخيرة، دون أن تشعر بالإثارة. يمس الضابط ذو الأسنان الذهبية الناموسة بطرف حذائه، فإذا نهضت، يكون لها بقع زرقاء حول عينيه وعظامها كلها تؤلمها، إذا كانت ناموسة حقيقية.

إيلّي محظوظ، فإنّه غير مضطر أن يكون اليوم ناموسة.

يقول الضابط بأنه يعطي ابنه كل ظهر يوم أحد عشر ليئي. تتطلع عيناه نحو السماء، ويتابع إوّز الثلج، في الجبال ثمة ثلوج، والإوّز يُغيّر وجهته في الطيران، كما يقول.

يبلع الضابط ريقه ويقول إن ابنه يضع صندله الأبيض في قدميه،

دون أن يضع الورقة النقدية التي يمسك بها، جانباً. بعد ذلك نسافر إلى المدينة بالسّيارة، أذهب هنا إلى الحديقة الصينية وأحتسي البيرة، أما ابني فيذهب ومعه هويّتي إلى مقهى الحزب الموجودة عند الزاوية، فهو يحب أن يتناول الحلوى ويأكلها بشّهية. تمطقّت أسنانه الذهبية وقال إن قوالب الحلوى موجودة في الفاترينة، والفاترينة عالية جداً، فكان ابني مضطراً في الصيف الماضي أن يرفع نظره إلى الأعلى كي يراها. لكنّ ابني كبر بسرعة، فصار يستطيع، في الصيف التالي، أن يراها تماماً. وهو يُحبّ أن يأكل، في المقام الأول، قالب الحلوى المحفوف باللون الأخضر الفاتح. وقد اعتاد الطباخ أن يقول لولدي إن النحل يصنع قالب الحلوى حلو المذاق، فيشعر ابني بعد ذلك بالخوف ويغلق عينيه.

ينفخ الرجل أنفاسه، أنفاسه تبدو رمادية في الهواء ويقول إنّ معظم النحل يتراكم حول الحواف المصنوعة من التوت. تتورم يد الطباخ في كل صيف بسبب لذعات الدبابير، وتغدو تلك اللذعات زرقاء بشعة. يتوجب على الطباخ عندما يقدم خدّمة للآخرين. أن يضع عندها، فوطة بيضاء فوق يده. هذه هي الحكاية، فالنحل يطير في مقهى الحديقة ويحوم حول كؤوس البيرة لكنها لا تلسع. يلمع سنّه الذهبي وهو يقول إن الدبابير وحدها هي التي تحوّم حول قوالب الحلوى في البوفيه.

يتأمل إيلّي التلة الخضراء الداكنة ويشعر بعد نظرة طويلة أنّ هذا الوجه صفيحّي وأنّ السن الذهبية هي منقار أصفر. إنه منقار إوزة الثلج.

عندما يكون قد مضى عدة أسابيع على الدبابة في الغابة، وعندما تكون الخنادق قد جُهّزت منذ عدة أيام، وعندما يبقى الضابط ذو السن

الذهبي يعاني ستة شهور في الثكنة ويشعر بالاشمئزاز من الأكياس الرملية المكدّسة في الساحة، عندئذ يسير الطابور إلى لعبة الدبابير عبر حقول الذرة المكسّرة، فوق الحقول وصولاً إلى الهضبة.

يشعر إوز الثلج بالارتباك فوق الأرض. فهذا الإوز يُحضر معه، من حيث لا يدري أحد، البرد والصياح وخبط الأجنحة، التي تحلق بعيداً على الدوام. هناك يفترس الإوزُ الثلجَ، ويعود دائماً، ولا يأكل الأعشاب ولا الذرة. وإذا لم تطر تلك الإوزات، تبقى وتنظر نحو السماء وتتجنب الغابة.

إنّ لعبة الدبابير، يقول الضابط، هي توازن جيّد وصراع جميل. وهو لا يشارك في اللعب، لكنه يحرسه، حيث تلمع قواعد اللعب فوق سنّه الذهبي. استديري، قال الضابط للناموسة، هيّا حلّق، خاطب الدبور، وتركه يحلّق المدة التي يريدها. إلدغّ، إلدغ، صاح الضابط، وعليك أن تكون فوقها، ولكن ليس مثل برغوث.

المدينة التي تحتضر

تنظف المرأة ذات الشعر الأحمر الكستنائي المموّج زجاج النافذة. وإلى جوارها دلو من الماء يعلوه البخار. تتناول المرأة فوطة رمادية مبلّلة من الدلو وتسحبُ فوطة رمادية أخرى من على حافة النافذة، ثم تسحب فوطة بيضاء جافّة عن كتفها وتنحني وتمسك ورقة جريدة مكوّرة بيدها. يلمع الزجاج، بينما ينقسم شعر المرأة إلى جناحين ويقف طليقاً أمام النافذة. تغلق المرأة جناح النافذة وتربط شعرها.

صارت زهور البيتونيا سوداء من الصقيع، واحترقت السيقان والأوراق، وعندما يصبح الجوّ دافئاً، تلتصق زهور البيتونيا التي كانت متجمّدة ببضعها البعض.

لا تُقدِمُ المرأة على شراء زهور بيتونيا جديدة من السوق، إلّا بعد أن تكون الشمس قد استقرت، بأشعتها الفاترة، فوق الملعب لمدة أسبوعين. تكون الزهور ملفوفة بأوراق الجريدة وملقاة إلى جوار النافذة قريباً من يد المرأة. بعد ذلك تخلع المرأة الملفوف الأسود من الأرض، وتسحب الجذور العميقة بسكيّن ضخم وتخلخل الأرض بمسمار كبير. وعندما تتناول المرأة زهور البيتونيا واحدة وراء أخرى من الجريدة، تكون جذورها قصيرة وضئيلة كالشعر. تحفر المرأة الثقوب باستخدام المسمار وتدخل تلك الجذور إلى داخل تلك الثقوب، وتسوّى الثقوب بعد ذلك بأصابعها وتسكب الماء على الزهور البيضاء الجديدة، ويبقى الماء يرشح فوق الزهور مدة يومين.

في الليلة الأولى تصطف زهور البيتونيا المزروعة حديثاً، سيقاناً وأوراقاً إلى الحدّ الذي يكون من الصعب على صاحبة الشعر المموّج أن تراها وهي تقف صباحاً على النافذة. وعندما يغدو الجو دافئاً، تتفتّح الزهور. وتزحف البقع الشتائية الموجودة تحت الأوراق البيضاء نحو الأسفل كلَّ يوم، إنها تزحف إلى أسفل المدينة.

تدع أشجار الحور وأزهار الأكاسيا حوّافها العارية تومض، قبل أن تنمو أوراقها. بعد ذلك يذهب البَرْد ولا شيء يغطيّها. ثم يركب الديكتاتور طائرة الهيلوكوبتر ويتجول فوق البلاد، يُحلّق فوق السهول والوهاد. سيقان الرجال المتقدّمين في السّن، تقف في الأعلى حيث تهّب الرياح وتنشّف الشتاء في الحقول.

إنّه يمدّ يده حيث تلمع البحيرة الجليدية فوق صدغه، قالت ابنة الخادمة لأدينا. وهو يحني ساقيه العجوزيْن ويقول: إنه ينبغي تجفيف البحيرة، لأنّ الذرة لا تنمو فيها.

في كل مدينة له منزل. تتحرك المدينة أمام صدغه قبل أن تهبط طائرته. وحيث تهبط الطائرة، يمضي ليلته. وحيث يمضي ليلته تسافر إحدى الحافلات عبر شوارع المدينة ببطء، وتكون نوافذها مغطّاة بالألواح، وفي الحافلة ثمة أقفاص مصنوعة من الأسلاك. تتوقف الحافلة عند كل منزل، ويجري جمع الدّيكة والكلاب والذهاب بها بعيداً. ولا يحق لأحد، باستثناء الضوء، أن يوقظ الديكتاتور من نومه، قالت ابنة الخادمة، أما صياح الديكة ونباح الكلاب فإنّها تفقده توازنه. ومن الممكن، تقول ابنة الخادمة، أن تقف سيقان الرجال العجائز في وسط

المدينة، في الطريق إلى شرفة الأوبرا، حيث سيلقي الديكتاتور خطابه. ويمكن له أنْ يغلق عينيه لمدة قصيرة، لأنّ ثمة ديكاً صاح في الفجر وهو نائم، أو لأنّ كلباً قد عوى. ويمكن له عندما يفتح سواد عينيه ويرى أنّ الأوبرا ما تزال قائمة. أن يمدّ يده ويقول: ينبغي أن تُهدم، لأنه لا يمكن بناء وحدات سكنية حيث توجد.

إنه يكره الأوبرا، تقول ابنة الخادمة. وقد سمعت زوجة الضابط نقلاً عن زوجة ضابط آخر في العاصمة، أنه لم يذهب إلى الأوبرا إلا مرة واحدة. وأنه قال: إنها مسرح مملوء بالناس، ومسرح مملوء بالأدوات ولا يكاد المرء يستمع إلى شيء. وقد أضاف: إنّ ثمة عازفاً واحداً، يتحلّق الآخرون حوله، ثم مدّ يده. في اليوم التالي جرى حلّ الأوركسترا.

يرتدي الديكتاتور، كما تقول ابنة الخادمة، ملابس داخلية جديدة صباح كل يوم. كما يرتدي قميصاً جديداً وبدلة جديدة وربط عنق جديدة وجوارب جديدة وحذاءً جديداً. وتكون ملابسه في أكياس شفافة محكمة، كما قالت زوجة الضابط الموجود في العاصمة، حتى لا يستطيع أحد أن يُسمّمه.

أما في الشتاء فتوضع له كل يوم بطارية تسخين جديدة، ومعطف جديد، كما قالت ابنة الخادمة، إضافة إلى شال جديد، وقبعة جديدة من الفراء أو قبعة جديدة. وكأنّ كل ما ارتداه بالأمس صغر على مقاسه، لأنّ قوته تتنامى في أثناء راحته الليليّة، فيكبر وجهه المنكمش في الصور وتغدو جبهته الرمادية أكثر سواداً.

لكنّ ما ارتداه من ملابس يوم أمس، يمشي، عندما تغفو سيقان

أولئك الرجال الكبار في السن. مثل الظلام عبر البلاد. فعدد القبعات السود المصنوعة من الفراء في اليوم، تساوي عدد الليالي ببدرها الساطع قالت ابنة الخادمة. لأنه عندما يضع قبعة الفراء فوق شعره، لا يظهر البدر المنير ليلاً. ولا يظهر في، أحسن الأحوال، سوى هلال أبيض فاغر الفم، ولفمه زاويا لا يستطيع أن يغلقها، ويتسرّب بعد ذلك في السماء. وهو قمر يدع الكلاب تعوي، ويدع نظرتها المتوّهجة تضغط بقوة على الرأس، عندما تدّق ساعة الكاتدرائية اثنتي عشرة دقة. إنه قمر ذو وجنة في الوجه، تتكئ بالقرب من البيت. إنّه قاطع طريق في الليل وهو فجوة في الظلام وراء المترو الأخير. فحيث يغادر المترو أحد الناس ليلاً ولا يستطيع البتّة الوصول إلى منزله، تكون الحجارة مكومّة في الصباح. يقف الطريق الخفيّ للمساء أمام النافذة مدة من الزمن، كالضوء المتأخر. فالأرض مظلمة والثعلب مشرق وهو يمدّ رجليه المقطوعتين بعيداً. يمكن للمرء أنْ يفتح النافذة، وعندما تهبّ الرياح، يتأرجح الجدار، ويغدو في وسع المرء أن يزيحه بإصبع واحدة وكأنّه ستارة، أو كأنّه الماء الراكد. إيلّي يعرف ذلك، ويفكرّ كلّ يوم بهضبته المليئة بالماء وبطريقه الموحلة. لقد اقتلع العشب منها ومضغه وابتلعه، لقد أكل العشب. وقد سحب فمه خارج الصورة ووضع ذبابة ميتة على وجنته، لهذا لم تستطع أدينا أن تلمسه.

سحبت أدينا يدها عن الطاولة، الطاولة ساخنة في المكان الذي توضع فيه اليدان. وعلى الأرض، حيث يكون الثعلب هو الصيّاد، تُلقى أصابع أرجل الثعلب المقطوعة فوق الفراء. وبعد ذلك، عندما

استطاعت الأيدي تسخين الطاولة في الأعلى، اتجهت نحو الجَبْهَة. لقد شعرت الأيدي أنّ الجبهة دافئة، وأنها مقارنة بالطاولة لا تدري شيئاً عن السّكن.

تقرع الأجراس بالتتابع، طويلاً. الشّقة تبعث على الفزع. تنظر أدينا من خلال العين الموجودة فوق الباب. كلارا تقف في بيت الدّرج، في الممّر الضيّق. أنا أرى عينيك، تقول كلارا، افتحي الباب! تبتعد أدينا عن الباب، فتغدو عين الباب خالية، فتغطيّ كلارا عين الباب. تدّق كلارا قبضة الباب وهي تقول: أنا واثقة أنك في المنزل. تتكئ أدينا على الجدار. في بيت الدّرج تصطدم مقابض الحقيبة اليدوية الخاصة بكلارا بالأرض. بعد ذلك تتكوّر إحدى الأوراق. وتتسلل عبر فتحة الباب وتسقط فوق الأرض:

ستجري عملية اعتقال لبعض الناس، وهناك قوائم وعليك أن تختبئي، ولن يبحث عنك أحد في منزلي، ينفتح باب الجيران وينغلق. صوت كعب حذاء كلارا يدّق على الدرج. تسحب أدينا الورقة بأطراف أصابعها من فتحة الباب، تنحني وتقرأ وركبتها تحت ذقنها. تكوّر الورقة وتلقي بها في المرحاض وتسحب النياغرا، تطفو الورقة ويغمرها الماء، لكنّه لا يبتلعها. تمدّ أدينا يدها إلى الماء وتتناول الورقة وتسّويها وتضعها في جيب معطفها.

أبواب الخزانة مفتوحة. وحقيبة الملابس مفتوحة هي الأخرى وملقاة فوق السّجادة، يقع قميص النوم قريباً من الثعلب، في حين تسقط السترة الصوفية والبنطال في الحقيبة. ترمي أدينا بعد ذلك بالمنشفة والجوارب

المجعّدة والسراويل ومعجون الأسنان ومقص الأظافر والمشط إلى داخل الحقيبة.

يغلق المستشفى نهاية الشارع الذي يحوي مجموعة من النوافذ الصغيرة المضاءة، كسلسلة من أقمار. النوافذ بلا سقوف والسماء بلا ممّر فوقهم دون أية نجمة. تقف إحدى السيارات ورجلان يجلسان في داخلها. يتأرجح على الزجاج الأمامي حذاء أحد الأطفال يتحوّل الضوء نحو الأرض، فتشيح أدينا بوجهها. ولو أطفئ محرك السيارة، لاستطاع المرء أن يستمع إلى دقّات قلبها من وراء المعطف. تعزل الأضواء حقيبة السفر بعيداً عن يدها. ويذهب الرجال إلى المستشفى.

قبل المدخل هناك درجات، وتغدو الأرض عميقة عن اليمين واليسار وهناك توجد الأجمة الجرداء. ترتعش يدها مرّتين، فلا تجد سوى ورقة رطبة وذابلة. الحقيبة تقع في نهاية الدرج المرتفع. أما الريح فهي مظلمة وخفيفة كأوراق الشجر.

تنتظر أدينا دون يديْن. لم تذكر اسمها للبّواب، فهو سيراني عندما يأتي، قالت. يتصل البواب هاتفياً، بينما يدها اليمنى تتحسس الورقة المبلولة في جيب معطفها.

يتمشّى البواب جيئةً وذهاباً. تنظر عيناه عبر الفاصل الزجاجي، في نظراته بعض الدرجات، وشيء من الليل وبعض الضوضاء المتلاشية. نظراته تحتفظ بكل شيء؛ لأنها تعرف المناظير. حذاؤه يتحرك فوق الأرض، ثمة طيّتان في فمه، المصباح الكهربائي في السقف ينظر. بدلاً من أن يضيء. في عيني البواب تبدو الأجمة مضيئة أكثر مما هي عليه في

الخارج. لأنّ في عينيّ البواب جوهرتين مشعتين، وفي وسط كل عين من عينيه مصباح كهربائي.

يهبط باول الدرجات، وقبعته البيضاء بمثابة زهرة بيتونيا بيضاء، وتكاد تبتلع أذنه. تضع أدينا الورقة المبتّلة داخل راحته. كانت الورقة مليئة بالتجاعيد ولها الكثير من الثنيات، وكأنها إبهام ممدود. يقرأ باول، والبواب يصغي إلى الليل كعادته، ونظرة مخطوفة والريح تضطرب في الخارج باليافطة الصفيحية. انتظري في السيارة، يقول باول لها، وحذاؤه القماشي فوق الأرضية الغرانيتية. يضع باول مفتاحين في يد أدينا، حتى لا يُصدرا صوتاً ويقول لها المفتاحان مربوطان معاً بخيط أبيض من الشاش، عدّي النوافذ في الأسفل، فالسيارة تقف على يمين النافذة العاشرة. اخلع حذاءك الأبيض، تقول أدينا، فإن الجميع سيلاحظونه. يُطرق باول ويقول: أعرف بأنني لست في الخارج طبيباً. معطفه الأبيض غسل وكوي حديثاً.

لم تعد الأيدي تخاف من الشجرة، حتى لو كانت أوراقها رطبة من الداخل وذابلة. تحمل أدينا حقيبتها بيديها الاثنتين أمام بطنها، حتى لا تبدو في معطفها مختلفة عن المعطف ذاته. وفي الطريق الذي لا يستطيع المرء أن يراه لشدة الظلمة، توجد قبعة باول التي تشبه زهور البيتونيا، ويوجد حذاؤه الأبيض ومعطفه الأبيض. أخذت تعد النوافذ في الأسفل، والأجمة تسحبها نحوها، وكانت ترى بين النوافذ الأغصان المفردة في الريح وترى أنّ باول صار خبازاً للحلويات، يتعلم من خلال اللحم البشري. عيناه تكبّران الأحشاء تحت الجلد، حتى تغدو باردة.

يصدر باب السيارة صوتاً كالفرقعة. تستلقي الحقيبة فوق المقاعد الخلفية. تتساءل أدينا عن مقص الأظافر وأين سينتهي به المطاف بين الملابس الثقيلة في الحقيبة الكبيرة؟ إلى جوار الحقيبة كان شال أنّا، سيارة تصطف أمام المدخل. يخرج منها شرطيان، ويخرج كلبان من البابين الخلفيّين. كان الكلبان يتشمشمان فوق الشارع، ويشمان خطوات البشر. كانت أدينا تتمنى لو أنها تجلس في السيارة، كما يستلقي مقص الأظافر في الحقيبة.

يجيء باول من الباب المضاء وينزل الدرجات. حذاؤه أسود، ويمر قرب الأجمة كما يمرّ الحراس الليلّيون. يعد النوافذ. بنطاله شبيه بالممّر.

يدّق باول على زجاج النافذة، ينفتح الباب، ساقاه تبدوان كحقائب السفر. تسأل أدينا. ما الذي تبحث عنه الشرطة والكلاب؟ يدير باول مفتاح التشغيل. فتتحرك السيارة. إنهم يحضرون في كل ليلة جرحى من الحدود، يقول باول. غالبية هؤلاء الجرحى أموات، ثم يضيف سنسافر إلى أبي وبعدها إلى ليفيو في الريف: إلى جوار مستودع الجثث ثمة ورشة، هناك يجري تثبيت التوابيت باللحام ثم يتمّ إرسالها إلى البيوت. بحراسة الشرطة. ولا يسمح لأحد بالنظر إلى داخلها.

النافذة العلوية مضاءة. لا يتحدث باول، لكنه لا يكتفي بدّق الباب، يفتح أبي ويضحك ويرفع حاجبيه عالياً، فتهب رائحة العرق. تضع أدينا الورقة في راحته، فيمسكه باول من ذراعه وهو يقول: هيّا معاً، فنحن ذاهبان إلى الريف. تتجمّد عينا أبي وتكبر وتصغر في وجهه ويطرق. ويقول لا أريد أن أعرف الوجهة التي ستسافران إليها، ولا

أريد أن أسافر معكما، حظاً سعيداً، ما معنى هذا؟ إلى القرى صغيرة، حظاً سعيداً.

في نهاية الشارع الأسود يتمشى بشر ويحملون مصابيح يدوية في أيديهم. يسلبهم الليل ملابسهم. يسير باول بالسيارة ببطء، ويسير بهدوء كذلك.

فكرّت أدينا قليلاً ورأت بأن المدينة، لن تتوقف على الإطلاق. لأنّ الأغذية الممنوعة هاجمتها. ورأت بأن الشوارع ستظل تجري دون توقف صوب الريف، وستكون المدينة في كل مكان. ورأت بأنّ الأجراس ستّدق في الحقول المظلمة. عندما تستدير الطريق، لأنّ الغابة ستكون بمثابة موقف للسيارات خلف حقول الذرة المتجمّدة. كما رأت بأنه ستكون ثمة كاتدرائية وراء البرج، وأنّ الحقول الفارغة ليست فارغة، لأنّ القدم تزحف في وسطها.

وقد رأت بأنّ الديكتاتور قد رأى المدينة التي تحتضر من الأعلى وهو يطير في الهواء. كما رأت بأن الجنود يحيطون بالمدينة التي تحتضر إحاطة السوار بالمعصم، وأنهم قاموا بدفن المدينة التي تحتضر مستخدمين المجاريف التي يحملونها، وأنّ المدينة تخلو من الجسور تماماً. ورأت أيضاً بأن إيلّي يدفن ويدفن، وهو يشير إليها بأصبعه الذي يعلو ويهبط كالأمواج ورأت بأن أطراف الحذاء تدخل أطراف المدينة مع الأحذية الأخرى وتفكرّ بنهر الدانوب.

صعد باول وهو يرتدي حذاءه الأبيض، وسافر بالسيارة طويلاً ولم يتحدث كلمة واحدة عند الوصول إلى نهاية المدينة، حيث اختفت

الأضواء تماماً وانطفأت على أطرافها. ثم إنه ضل الطريق على حافة أحد الحقول، فتطلع نحو السماء وأخذ يفتش عن قمر أبيض فيها، ثم تذكر فجأة بأنه طبيب وأنه يصمت وإلى جواره إنسان يجلس، وفي بطنه أحشاء ساخنة.

إناء التبوّل

تتحّرك يد باول فوق وجه أدينا. تصاب أدينا بالذعر. لقد وصلنا. يقول باول وهو يسحب يده الثقيلة عن وجنتها. فتسأله: هل نِمت؟ كانت ملامح وجهها قد تغيّرت وتهدّلت وجنتاها وبدت عيناها كالممزقتين. المقعد الموجود أمام منزل ليفيوس عميق في إحدى نهاياته. في حوض الماء تتبدى السيقان التي كانت قد نمت في الوحل. النوافذ مظلمة وراء السياج والبوابة مغلقة.

في الجنوب، حيث يشطر نهرُ الدانوب البلادَ، تمثّل البيوتُ شوارعَ القرى، ليس ثمة امتداد هنا، فالأسوار متلاصقة، وخلف كل منزل ثمة حديقة وخلف كل حديقة ثمة حدّ. وليس للكلاب هاهنا مكان للتجوال ولا مكان للنباح. وقد سبق ليليفيو أنْ قال في الصيف الماضي إنه لا علاقة للصوص بالأمر، فليس ثمة ما يمكن أن يُسرق هنا، والناس يحتفظون بالكثير من الكلاب، حتى لا يستمعوا إلى أصوات الرصاص وهم يرّبون الإوز بدلاً من الديوك؛ لأنها تمضي الليل في النقنقة. وقد اعتاد الناس على هذا الأمر، فلم يعودوا يستمعون إلى النباح والنقيق، بل إلى صوت الرصاص.

تصغي أدينا إلى نقيق الإوز الذي يتسم بالقصر والعُمق، سواء أكان قادماً من الساحة أم ساحة الجيران أم الساحة المقابلة. فالإوز محصور بين الألواح. وبوسع المرء أن يصغي إلى وقع خطاها وأجنحتها وهي تضغط على الأخشاب وهي تتصادم، ولا تستطيع أن تنام بعمق. فشارع القرية، في كل ليلة كأعناقها، بمثابة الجورب.

في الصيف، كان ليفيو عريساً. وقد تزوج بمعلمة من القرية؛ لأنه غريب ولأنه كان يشعر بالوحدة. زوجته امرأة شابة، لهذا فإنها لم تكد تشير إلى سنّ زوجها. كان الرجل يحتفظ بصمته وإصغائه لنفسه. لأنها تعودت أنّ تقوم النساء بالحديث ويجلس الرجال إلى جوارهن صامتين يوافقون على ما تقوله زوجاتهم. وقد ترعرعتْ على صوت الرصاص واعتادت منذ صغرها على نباح الكلاب ونقيق الإوز.

وفي أثناء زفافها الذي وقع في الصيف وحضره باول وأدينا، كانت العروس ترتدي ثوباً طويلاً ونقاباً أبيض اللون، بدا أنّ لها وجهاً شبيهاً بوجه الخروف. لكنّه خروف لم يسبق له أن تناول العشب على الإطلاق، على حدّ تعبير باول. لقد احتضن الجميع العروس وقبلّوها، أما العريس ليفيو فاكتفى بالضغط على يدها وتحريك وجهه بعيداً. وقد أكلتْ العروسُ كثيراً، واكتفى ليفيو بمضغ الطعام وهو شارد الذهن. وقد رقص ليفيو وكأنّ ثمة حجارة في جيوبه، أما العروس فكانت ترقص وكأنّ ثمة ريشاً أبيض يحلّق فوقها. ولم تكن العروس تتكلم كثيراً، لكنها كانت تبتسم عندما تنطق بشيء. كان شرطي القرية ثملاً وكان يرمي في أثناء الطعام النكات ويضحك وحده. وكان سكره يجعله يكرّر الحديث على نحو لا يستوعبه أحد. أما القسيس فكان يجرّ قبّعته السوداء ويمرّرها فوق عنق إحدى الزجاجات وبقايا حساء المعكرونة عالقة على لحيته. وبعد أن فرغ من الطعام رفع القسيس لباسه إلى الأعلى وأخذ يرقص مع الشرطي. تطلع ليفيو نحو باول وأدينا وسألهما عن موعد زواجهما فردّ باول: عمّا قريب. استشعرت أدينا

الكذب وهو يمرّ فوق وجهها، لكنها سألت الخروف إن كانت تربطها بالرجل صلة قرابة وكانت تشير في تلك الأثناء إلى الشرطي. صمت ليفيو، وابتسم الخروف الصغير وقال، هذا هو حال الريف، فالشرطي جزء من المشهد.

يحمل باول الحصى بين يديه ويرميها على النافذة، فتحدث بعض الخدوش في الزجاج ثم تسقط فوق الورق الجاف الموجودة في الأسفل. إنهم ينامون بعمق. قال باول. يعلو صوت نباح الكلاب، ويصمت الأوز. يقفز باول فوق السياج ويدق على الزجاج بأصابعه، فيظهر ضوء في النافذة الأخيرة.

يترنح رأس ليفيو تحت تأثير النعاس، يصدر عن جناح النافذة صرير، فيقول باول: أنا هو. ثم يرفع ذقنه إلى الأعلى، لكنّ وجهه يبقى قابعاً في الظلام وهو يقول: علينا أن نختبئ. يميّز ليفيو الصوت.

يقومون بدفع السيارة إلى الحظيرة ويغطيها ليفيو بالقش ويضع أكياساً فوق العجلات. تضيء أجنحة الإوز الأبيض من خلال الثقوب الموجودة بين الألواح وتأخذ بالنقيق، وتبدأ مناقيرها تدق فوق الخشب.

تقف الخروف حافية القدمين وهي ترتدي ملابس النوم، وتتجّه نحو الحذاء الضخم الملقى على الدرج. وتضيء الحظيرة بمصباحها اليدوي.

في المطبخ تبتسم الخروف، ويقول ليفيو، لقد تحدثنا يوم أمس عنكما، أما الخروف فتقول: تحدثنا عنكما وها نحن نراكما واقفيْن بالباب. تضع أدينا الحقيبة قريباً من الموقد، في حين يمدّ باول يده إلى جيبه ويخرج معجون الأسنان منها ويقول وهو يضحك فوق الطاولة:

هذه هي أمتعتي.

تقود الخروف أدينا إلى الغرفة المظلمة وتسدل الستائر وتزيح أكاليل الزهور الضخمة المرسومة فوقها وتقول: هذا هو المصباح اليدوي وعليك أن لا تضيئي الأنوار، لأن من في الخارج يروننا، ثم تدفع الملابس الموجودة في الخزانة جانباً وتقول يعرف الجميع الغرفة التي ننام فيها، وها ثمة مكان لملابسكم.

إنّها ذات الغرفة وذات السرير. وقد كانت أدينا تستلقي فوقه إلى جوار باول في الصباح الذي تلا حفل الزفاف وتسأله لماذا يكذب. ولماذا تجعل ليفيو يعتقد بأننا ما نزال على علاقة. يزفر باول أنفاساً حرّى بينما تحلق بعض البعوضات حول الضوء ويقول: أهذا أمر مهم؟ نزل المطر صباح اليوم التالي الذي أعقب حفل الزفاف. وأعقب المطرَ حرٌّ لاذع لم يستطع الليل أن يخفف منه، لهذا لم يكن من الممكن إغلاق النافذة. أغفى باول قبل أن يتمكّن من إغلاق فمه واكتفى بتغطية ساقيه وأخذ يشخر حتى أخمص قدميه. أطفأت أدينا النور، وصوت الصراصير يشيع في القرية أصواتاً مبهمة، بينما كانت الموسيقى الشعبية لا تزال تدور في أذنيهما. كان البعوض يشم رائحة العرق ولا يقترب إلا من وجهيهما. كان باول قد شرب الكثير مع ليفيو وأخذ يتحدث مع محاسب يخلو فمه من الأسنان عن انخفاض نسبة البروتين في حليب الأبقار الحكومية.

حلمت أدينا في ليلة البعوض هذه أنها رقصت مع ذلك المحاسب الذي يخلو فمه من الأسنان. كانت ثمة ملعقة ملقاة فوق الأرض، وكأنّ

المحاسب يخطو فوقها في أثناء حركاته وخطواته. أخذته أدينا إلى طرف الحديقة، وعندما شرع يرقص معها هناك، كانت ثمة ملعقة أخرى ملقاة هناك، وكان المحاسب يخطو فوقها في كل حركة يتحركها، بينما كانت امرأة ذابلة تجلس إلى المائدة وتتأمله. كانت المرأة أكبر منه في السن وقد خاطبته بقولها: ارقص على نحو لائق، فالسيدة قادمة من المدينة.

يغوص المصباح اليدوي بعيداً في الجيب المظلم، أما المشط فيوجد في أعلى الجيب، في حين يكون مقص الأظافر ملقى فوق الأرض وفرشاة الأسنان موضوعة بين الجوارب. لباس النوم بارد فوق الجسم، ورائحة الإبطين والقدمين تفوح بالعرق. يدخل باول فرشاة الأسنان إلى فمه، في حين يقوم ليفيو بوضع إناء أبيض خاص بالتبّول إلى جانب السرير ويطلب من باول أن لا يذهب إلى الساحة حتى في النهار.

يدع باول فرشاة الأسنان تقع من فمه فوق الطاولة، ثم يدور حولها ويضيء أكليل الزهور بالمصباح اليدوي. في الخارج تعوي الكلاب، يشمّ باول رائحة زهور الغاردينيا ويقول لأدينا وهو يضع حذاءه إلى جوار حذائها أتسمحين لي أن أضع حذائي هنا؟ ثم يستلقي فوق السرير وهو يرتدي ملابسه ويضحك.

تقول أدينا وهي تتناول وعاء التبوّل، إنّ عليّ أن أذهب إلى الحظيرة. ولم يكن ثمة وجه فوق السرير، الذي كانت ملابس باول تستلقي فوقه. يقول باول إنه تبول ثلاث مرات في الطريق بسب خوفه. توجه أدينا ضوء المصباح الكهربائي نحو وعاء التبول وتقول إنه جديد تماماً، لكنّ أسوأ ما في الأمر هو صوت الماء وهو يندفع، فيرد باول بأنّه موسيقى.

تضع أدينا وعاء البتول بين فخذيها وتشرع بالتبول، فيقول باول إن جدّه قد اختلف مع صهره، لأنه كان يدع الخيول تقف أمام المنزل ويأخذ بالصفير حتى تتبّول ثم يواصل سفره بعد ذلك. تحس أدينا ببخار دافئ بين فخذيها أثناء اندفاع البول. فوق الطاولة ثمة جريدة تضعها أدينا فوق وعاء التبّول وتصغي. كانت الريح وراء الستائر تهز الفروع العارية، فيقول باول إنه كان يتخيّل الصوت على نحو مختلف.

تقول أدينا إنّه كان لدينا مرحاض صيفي وآخر شتوي وأربعة أوعية للتبّول. كان المرحاض الصيفي موجوداً خلف الكروم في حديقة جرداء، أما الآخر الشتوي فكان يقع خلف الممرّ وفي حين كان المرحاض الصيفي مصنوعاً من ألواح خشبية، كان الشتوي مبنياً من الحجارة. وكان عندي وعاء تبول أحمر اللون، ولأمي وعاء أخضر ولأبي وعاء آخر أزرق. أما الوعاء الرابع فكان مصنوعاً من الزجاج وكان الوعاء الأجمل، لكنه لم يستخدم قط. وكانت أمي تقول إنه مخصّص للضيوف. ولم يكن لدينا ضيوف، كان لدينا زوار يأتون إلينا لزيارة قصيرة. كانت الخياطة تأتي مرتين أو ثلاث مرات في أثناء العام، وتحضر معها ثوباً لأميّ وبعض المعجّنات، وتسارع في الذهاب. كان الحلّاق يحضر في بعض الأحيان، عندما كان أبي يحضر معه في فصل الخريف العرق المصنوع من البرقوق. كان الحلاق يشرب وهو واقف ثلاثة كؤوس ويمضي. وكان أبي يقول له أحياناً. إنّ بوسعه أن يقصّ له شعره بسرعة. وكان الحلاق يردّ إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك في غير دكانّه الخاص بالحلاقة، فهو يحتاج إلى مرآة، من أجل أن يكون قص

الشعر سليماً.

كان كل من يأتي إلينا، يُقيم في هذه الضاحية القذرة. لم يكن ثمة ضيف لدينا. ولم ينم لدينا أحد. قالت أدينا. لم يتفّوه باول بكلمة، فقد نام وهو يرتدي ملابسه، دون أن يكون له وجه.

الأظافر تنمو

صوت إنساني يقول أمام النافذة، فكرّت بالأمر، لكنّي نسيت. أكاليل الزهور المرسومة فوق الستائر تبدو أكبر في النهار. في الخارج يصيح الإوز، أصواته تبدو مختلفة عنها في الليل، حيث تكون في النهار أكثر وضوحاً. ترى أدينا الإوز يقف في صفوف بيضاء ويحتشد على نحو لا يقل عن شوارع القرية طولاً، بل لعلّه يفوقها. أما في الحقل فإنّ صفوف الإوز تلتهم الذرة ولا تدعها وتعصف وهي تفترسها في صفوف طويلة تبلغ حِدّ القرية وتظلّ تفعل ذلك طالما ظلت أجنحتها دافئة. إن جلوس الناس ليشاهدوا ذلك عبر النوافذ لفترات طويلة دون أن يصابوا بالذعر، يعود، كما قدرت أدينا، إلى اعتياد الناس على سماع صوت إطلاق النار في الحدود. لكنهم يصابون بالدهشة عندما يرون سيقان الذرة المتجمدة تتجول في شوارع القرية بكثافة، وتقف كالقرية في منتصف الشارع.

وجه باول على الوسادة رمادي اللون، وهو يبدو أكثر ما هو عليه في المدينة. ملابسه متجعّدة منذ يوم أمس. فوق الخزانة مجموعة من العبوات الزجاجية الملفوفة بأدوات السولوفان والمربوطة بخيوط خضراء. تبدو حبات المشمش في العبوات الزجاجية كالحجارة.

رأسها بارد من الداخل، هي تدّق على جبينها بأناملها، فرشاة الأسنان الخاصة بها ملقاة إلى جوار الفرشاة الخاصة به وإلى جانبهما مقص الأظافر. وضعت فرشاة الأسنان الخاصة بها مع مقبضها داخل فمها.

أحست أدينا بوجود الثعلب أمام الخزانة، قريباً من أصابع قدميها، ولم يكن فوق السجادة سوى بعض الخيوط المنسولة البيضاء، لكنّ أدينا أغمضت عينيها ومشت حافية نحو حذائها. شمت منشفتها الصغيرة، وذهبت وهي تحمل إناء التبول إلى المطبخ. في الموقد كانت هناك حجرة، وفوق طاولة المطبخ كان ثمة قطعة من لحم الخنزير المقدّد ورغيف من الخبز وإلى جوارهما ورقة مكتوب عليها:

سنعود في الثانية عشرة

هكذا كانت تمرّ الأيام وتبدو كصورة الإوز في ذهن أدينا التي تقف محتشدة من غير قرية، وتختبئ كعمود فقري وكشيء طويل بلا نهاية. أيام تمتد من الفرع إلى أخمص القدمين، وتتكوّن من السرير والستائر وإناء التبّول والمطبخ، الأيام قصيرة وطويلة إلى الحدّ الذي يمتزج فيها كل صوت بالخوف الذي سرعان ما يتبّدل إلى شعور بالغياب، وتغدو الآذان فيه أكثر يقظة من العينين التي تعرف كل شيء في رحاب المنزل.

قال لهم ليفيو إن تشغيل المذياع والتلفزيون مسموح في أثناء وجوده وزوجته داخل المنزل، لأن الجيران يسمعون الأصوات الصادرة عنهما.

وعندما كان ثمة صوت ينادي من وراء الباب، ويكون الرجل الذي يحاول تحريك المزلاج يرتدي زياً رسمياً وتتبدّى صورته في الفتحات الموجودة بين الستائر، يبحث باول وأدينا عن مكان وراء الباب الواقع في الخلف، ويقفان متلاصقين في حُجرة المؤونة، حتى تختفي الأصوات تماماً. بعد ذلك يجدان جريدة في الساحة فوق الدرجات، ويعرفان أن الرجل كان ساعي البريد. وعندما كان ليفيو والخروف يعودان من

المدرسة، كانا يجدان الجريدة فوق طاولة المطبخ، وعلى صدر صفحتها الأولى يجدان ذؤابة الشعر المرفوعة فوق الجبين والسواد في العينين. وأسفل منهما كتب أنّ ابن الشعب المحبوب قد طار إلى إيران وفي اليوم التالي يجدان أنّه قد عاد من إيران إلى البلاد.

تظن أدينا بأنّ على محارتي أذنيها وأعضاء جهازها التنفسي أن تلمع لشدّة ما تقوم بالإصغاء، وتعتقد بأنّ لمعانها ينبغي أن يكون شبيهاً براحة اليد، وتظن بأنّ الأصابع ينبغي أن تنمو بسرعة لكثرة ما ترتعش خوفاً. لكنّ ما يبقى مختلفاً هو صوت الماء في إناء التبوّل، فزمن باول الذي يحتاجه لهذا الأمر، هو أطول من الزمن الذي تحتاجه أدينا، إضافة إلى أن باول يستطيع التلاعب بعملية التدفّق ويستطيع أن يضحك بصوت زائف جراء الرغوة الصفراء اللون، لكنّه يشتم ويلعن عندما يضطر للتغوّط، ويشعر بأنّه شبيه بالقملة التي تختبئ في حافة السرير.

تعود الجريدة الملقاة على إناء التبّول إلى اليوم السابق على الدوام، وقد اعتاد باول أن يضع الذؤابة نحو الأسفل. ثم يضع بعد ذلك، بوقت قليل، قطعاً خشبية وكيزاناً من الذرة في الموقد ويتأمّل الجمر المتوقد بطرف عينيه ومن تحت إبطه.

كان ثديا أدينا عاريين فوق الحوض والصابون يُرغي، ولأنّ أدينا كانت تستشّعر بأن باول سيمسك ثديها، بوجهه الأحمر ويديه الباردتين، فقد كانت تحاول أن تنتظر تلك اللحظة، من غير أن تشعر بالألم. بعد ذلك يبدو وجه باول قد شاخ. في حين يبدو وجهها فارغاً في شاي زهر الليمون، ويتباعد الوجهان بعدها من خلال الملعقتين ويقود كل منهما

إلى صَدفته. تظل الملعقتان تحركان السكّر حتى يذوب، فيقول باول: إنني لم استمع إلى صوت رصاصة، بل استمع إلى نباح الكلاب ونقيق الإوز وصياح ساعي البريد وهو يقف بالباب. إنني استمع إلى الأصوات العالية، مع أنني عرفت عن طريق ليفيو، أنّ أصوات الرصاص منخفضة، وتشبه انكسار أحد الأغصان، ليس أكثر.

فُتح الباب ذات يوم، ووضع ليفيو كيساً طويلاً في المطبخ. كان الكيس يحتوي على شجرة عيد ميلاد من غير المسموح أن يراها أحد في طرقات القرية، فهي شجرة صنوبر تميل إلى البياض، سرقها والد أحد التلاميذ الذي يعمل سائقاً لإحدى الشاحنات من غابات جبال الكاربات يقول باول إن هذا حدث يوم أمس، في حين ترى أدينا أنّ الأمر قد وقع صباح اليوم. وضع ليفيو الكيس إلى جوار الجدار وكان عليه أن يعود سريعاً لحضور أحد الاجتماعات. أغلق ليفيو الباب من الخارج، في حين قام باول يجرّ الكيس الذي يحوي الشجرة إلى المطبخ، فبدت الإبر الصنوبرية هشّة ورمادية هناك. أرجِعْ الشجرة إلى داخل الكيس، قالت أدينا، فأنا لا أستطيع أن أراها.

كان الأمر مختلفاً يوم أمس، فعندما صدر صوت مقص الأظافر، رأت أدينا حافة الأظفر المحنيّة تسقط فوق الطاولة. فقالت، إن أظافرها غدت تنمو بسرعة، منذ أن تم تمزيق الثعلب. ضحك باول بصوت مصطنع، فأدخلت أدينا أصبع السبابة في فمها وعضّت الأظفر حتى استطاعت أن تقص بأسنانها باقي الأظفر، وبعد ذلك مزقته إلى قطع صغيرة جداً وأكلته. ثم قالت إنني كنت أرى في المدرسة يومياً أن

الأظافر والشعر تنمو أسرع عند الأطفال المُهمَلين منها عند الأطفال المُعْتنَى بهم، فالأظافر والشعر تنمو أسرع عند الذين يعيشون خائفين، وهذا أمر يمكن لنا أن نلحظه عندما نرى رقاب الأطفال. قطع باول قطعة شفافة مستديرة من لحم الخنزير المقدّد وأدارها على شفتيه قبل أن يبتلعها. بوصفي طبيباً أجدني مضطراً للاختلاف معك. قال باول وهو يشير إلى الجريدة، فلو كان الأمر على هذه الشاكلة، لتوجّب على هذه الخصلة أن تنمو وتمتد من الجبهة إلى أخمص القدم خلال يوم واحد. مسح باول أظافره بقطعة رقيقة من اللحم المقدّد، فلمعت الأظافر، فقالت أدينا ما الذي تعرفه أنت عن البشر؟ فأنت لا تراهم إلا حين تقوم بتشريحهم لأنهم إما مرضى أو أموات. أنت لا تدري شيئاً. وهل ثمة ديكتاتور تُعرف حالته الصحية بوضوح، سواء في الدماغ أو في المعدة أو في الكبد أو في الرئتين. أصغى باول وأظافره تلمع ثم صاح بأنّ قلب الديكتاتور يغفو كما يحدث في رواياتك.

فكرّت أدينا بأنّ ذؤابة الشعر ستنمو كلّ يوم حتى تصل إلى أخمص القدم وسيمتلئ كيسُ الشعر تماماً وسيصل الشعر إلى الحافة وسيكون وزنه أثقل من وزنه، فهو يخدع الجميع بمن فيهم الحلّاق.

كان الحساء في الصحون عندما أراد باول أن يدعو أدينا لتناول الطعام، لكنه بدلاً من أن يناديها نادى على أبي. عندها بقي الحساء في الصحون، وسحب باول في أثناء الصمت الذي ساد، جلداً رقيقاً علق بالملعقة، فقال باول: أتعرفين لمن حكى أبي الطرفة الخاصة بالروماني الصغير؟ لمن حكاها، سألت أدينا، فرد باول حكاها لإيلّي.

حدّقت أدينا في صحن الحساء، فتبين لها أنّ الدوائر في الحساء لم تتفتت، حتى بعد أن حاولت أدينا أن تشطرها بالملعقة. استمعت أدينا إلى صوت ضجيج للمرة الأولى، ولم يكن الصوت، عواء كلب أو نقيق إوز، كان شبيهاً بصوت غصن يتكسّر، لكنه مختلف عنه تماماً، كان صوتاً ينكسر داخل جمجمة بشرية.

في مساء اليوم نفسه أو في مساء اليوم التالي أحضرت الخروف كيساً مملوءاً بالشوكلاته من أجل عيد الميلاد. كانت قطع الشوكولاته ملفوفة بورق سولوفان أحمر اللون، وعلى كل قطعة عُلّقت خيوط حريرية. قالت الخروف إن الشوكولاته أعطيت لها من ممرضة ابنها واحد من تلاميذها. ثم أكلت قطعة من الشوكولاته، فوضعتها بأكملها داخل فمها وتركتها تذوب دون صوت فوق لسانها، وقالت بعد ذلك إنّ ليفيو يريد في بعض الأحيان، أن يعود إلى المدينة. أما الآن، فإنه من حسن الحظ أننا هنا، أو أننا كما يقول ليفيو، في نهاية العالم. فهاهنا يعرف كل واحد وجبة الطعام التي أكلها جاره يوم أمس الأول أو يعرف ماذا باع وماذا اشترى ويعرف المبلغ الذي يدّخره. فأضاف ليفيو ويعرف ما لدى جاره من عرق في القبو. ثم أكلت الخروف قطعة أخرى من الشوكولاته، وقامت، بعد ذلك، بتقطيع إوزّة. ففصلت الفخذ عن البطن والأجنحة عن القفص الصدري، قال ليفيو إنني أسلك سلوكاً غامضاً، حتى في المدرسة، فأنا استمع وأفكّر من جهتي، رفعتْ الخروفُ القفصَ الصدريَّ الخاصَ بالإوزة وقصّتْ معدتها. كانت المعدة مليئة بحصى صغيرة. فقال ليفيو، أنا أعرف بأنني انتهازي، وإلّا

لما كنتم هاهنا. فسألت الخروف كم تستطيعون أن تظلوا مختبئين؟ ثم وضعت ورق الغار فوق الطاولة سأل ليفيو أين تستطيعون أن تعيشوا في هذه البلاد؟ نزعت أدينا القشور عن البطاطا، في حين نظر باول صوب ليفيو وقال: نستطيع أن نعيش هنا مثلما تتأرجح قشرة البطاطا بين الإبهام والسكين.

سألت أدينا هل ينبغي أن نذهب إلى السهول وراء الدانوب؟ هل ينبغي أن نهرب؟ وهل عليك أن تصغي إلى صوت الرصاص وتتوقع أنه قد أصابنا؟ إننا لا نحتاج إلى أكثر من نصف ساعة حتى نكون داخل حقول الذرة، حتى تأتي الحصّادات في الصيف سحب باول أدينا من ذراعها، فقالت وهي تنظر في وجهه، بأنّ المحاسب سيتولى إيضاح الارتفاع في نسبة البروتين في الدقيق. أغلق باول فمها بيده، فأبعدت يده عن فمها، فصار منظر البطاطا غير واضح. وعندما أضافت يحدث في بعض الأحيان، أن تعلق شعرة بين أسنانكم، وهي شعرة لم تسقط في العجين عن طريق الخبّاز.

نومٌ خفيف

تفرّق الجميع بعد المساء وبعد تقطيع الإوزة وذهبوا إلى أسرتّهم دونما كلام، وناموا بعمق، ثم قاموا جميعاً بسحب الشّعر من الخبز وأخذوه معهم إلى منامهم. كان النوم يزحف في هذه الليلة بعمق، لأنه كان يشعر بالخجل من المساء.

وضعت أدينا قميص نومها في هذه الليلة فوق الطاولة وقالت: لن أغيّر ملابسي. فأنا أتجمد من البرد، ثمّ تناولت المعطف من الخزانة ووضعته فوق الغطاء. كان باول يشعر بالاكتئاب وبالانزعاج من ذاته. لم تكن أدينا تفكرّ بالنوم، بل كانت تشعر باليقظة التامة، إلى الحد الذي كانت فيه عيناها ملء الغرفة. لكنها لم تتحرك وباول يتنفسّ بهدوء في أثناء النوم.

نهضت أدينا من السرير وارتدت حذاءها. كانت تريد أن تذهب بعيداً وتسير على امتداد الشارع. ولم تكن ترغب في الذهاب إلى الحدود، بقدر ما كانت ترغب في الوصول إلى الذرة في الحقل. وكانت تفكر أنّ بوسعها أن تستلقي هناك وتتجمّد حتى الموت. وقد سبق لإيلّي أن أخبرها بأنّ التجمّد يبدأ بتحرك بسرعة، فيصل إلى الحلق وعندها يتوهج الجلد ويموت المرء وهو يشعر بالدفء.

كانت الكلاب تنبح في الخارج، ولا صوت في الغرفة. امتدت يد باول نحوها وأمسكت بيدها وجرّتها صوب النافذة. أزاح باول الستائر جانباً. ورفع أطراف الستائر البيضاء فوق شعر أدينا وقال: ليس

في وسعك أن تفعلي ما تفكرّين فيه، انظري، فالماء يتجمّع في الحوض وكيس الثلج وفضلات الإوز طريّة ولم تتجمد. ثم تأمّلها وهو يقول لها: إنّك تشبهين الخروف بهذه الأطراف البيض فوق رأسك. ساعدها باول في خلع المعطف، ولم تقاومه أدينا، لكنّها كانت تفكرّ وهو يساعدها في خلع الحذاء والملابس الأخرى بأنّ نومه خفيف وأنّ ثمة طريقاً طويلاً فارغاً لا تستطيع أن تخبئ نفسها عنه فيه، حتى تفكرّ فيه بصمت وهي إلى جواره في الظلام.

ولم تجد أدينا ما تستند عليه، عندما مد باول يده نحو صدرها، فقد عادت إلى ذاكرتها السنوات التي خلت والتي أمضتها مع باول. كان باول يبدو في قمة الإثارة، وكان جسدها يتوهج على نحو يغاير ذلك التوهج الذي كانت ترغب في الوصول إليه عند التجمّد في حقل الذرة. لكنها مع ذلك كانت تعي بأنّها لم تكن هي التي تتوهج بل كان المخفي. فالثعلب موجود عندهم في المنزل، أما ليفيو والخروف فلن يكونا قادرين على إدراك خطر الثعلب المتنامي.

جلست أدينا إلى جوار باول في الظلام وسيجارته تتوهج وهو يربّت فوق جبينها، بينما كانت تتأوه. سألها باول هل تلومين نفسك، فنظرت إلى المشمش في العبوات الزجاجية الموجودة تحت سقف الغرفة والمعلقة في الهواء، ولم تر الخزانة وقالت: أجل، لكنني لا ألوم نفسي هذه المرة. ولم تر المشمش في العبوات الزجاجية، كانت تعلم أنها موجودة هناك.

كانت أدينا تعلم عند كل لمسة وعند كل خطوة في النوم ما الذي فعلته. وكانت تعلم أن ليفيو والخروف يعيشان في أحد شوارع القرية

وأنّ عيد الميلاد ينتظر كلاً منهما بشجرة صنوبر كسيحة، وأنهما قاما بتزيين الإبر الصنوبرية الموجودة قرب النافذة، ودفعوها إلى هناك ليراها المارة من الخارج كما كان يحدث سابقاً. وأنّ أحداً لم يمر من هناك باستثناء شخصين غريبين في الغالب، أمضيا الصباح كله في الحقل إضافة إلى امرأة مع طفلها تريد ثعلباً.

قال باول لأدينا إن وجودي الدائم هاهنا هو بمثابة لون من الابتعاد بالنسبة لك، ولا يعني النوم معك على الإطلاق. كانت السيجارة تتوهج وقد احترقت سريعاً في فمه.

إهدأ، قالت أدينا، فقد انفجر رأسي.

حلمت أدينا في تلك الليلة أنّ كلارا كانت تقف وهي ترتدي فستانها وتحمل أكاليل زهور صفراء في حقول الذرة المتجمّدة. كانت الريح تهب جافة. بينما تحمل كلارا حقيبة كبيرة. فقالت لها أدينا: ليس ثمة أحد هنا، وليس ثمة من يبحث عنك، فتحت كلارا الحقيبة، وكان فيها حبات من السفرجل. قالت كلارا: كلي، فقد غسلتها من أجلك. تناولت أدينا سفرجلة وقالت: لم تغسليها فقد كان ثمة شيء فوق القشور.

سماء سوداء–بيضاء

عندما كانت أدينا تضع زهر الليمون الجاف في الماء الذي يغلي كلّ صباح، كان الزهر يتقلّب في ذلك الماء وتغدو الأوراق خضراء فاتحة، ولكي تتمكّن أدينا من التمييز بين الأيام، فإنها كانت تحصي عمليات صنع الشاي. فالأيام تتشابه وفي كل نهار يطلع الصباح وتبدأ الكلاب والإوز تهيم في الشوارع. فوق الطاولة ورقة مكتوب عليها:

سنجيء عند الساعة الثانية عشرة تقريباً أو في حوالي الواحدة ظهراً أو قرب حلول المساء.

كان طعم شاي زهر الليمون بطعم النوم دائماً. أما إناء التبّول فكان يصدر رائحة كريهة بالقرب من باب المطبخ.

كانت أدينا لا تنظر، إلا في النادر، عبر الفتحات الواقعة بين ستائر المطبخ، لأنّ السياج المحيط بالساحة مصنوع من الأسلاك، ولأنّ النباتات الأرجوانية عارية. وقد اعتادت أن تنظر من خلال الساحات والحدائق. لكن باول اعتاد أن ينظر عبر الفتحات تلك ويتساءل عن لون السماء ويقول إن الجو بارد هناك.

كانت الأصوات تعلو صباح اليوم في القرية، جلس باول، منذ أن صحا، أمام فتحات الستائر. كان الشارع فارغاً. لكنّ الصياح والعواء كانا يعلوان في وسط المدينة.

تنظر أدينا من خلال فتحات الستارة في المطبخ، تبدو الشمس متوهجة والنباتات الأرجوانية العارية تلقي بظلالها فوق الرمل. تضع

الجارة ثلاثة كراس في الساحة. وجهها صغير ومتجعد. وقد بدت تحت أشعة الشمس، وكأن لها ذقناً وليس لها عينان. تحمل تلك المرأة مخدتين وفرشتين إلى الساحة وتنفضهما وتعلقهما فوق تلك الكراسي.

برد شاي باول، لأن عينيه ظلتا معلقتين بأكاليل الزهور التي تعلو فوق قماش الستائر.

يبدو ليفيو بين فتحات الستارة وهو يمر ويرتدي سترة مفتوحة من غير معطف. يعود ليفيو، كما يقول باول، إلى المنزل باندفاع، فيجلس بسرعة إلى طاولة المطبخ ويشرب من شاي باول البارد، تنظر أدينا عبر فتحات الستائر وترى أنّ ليفيو لم يغلق البّوابة، بل مرّ إلى جوار النبتة الأرجوانية اللون، العارية الأوراق. كان ليفيو يحمل شاله بين يديه. سحبت أدينا الستارة وأعادتها إلى وضعها السابق وجلست سريعاً إلى جوار باول ووضعت رأسها بين راحيتها. يتحرك المفتاح في أكرة الباب، ويبدو وجه ليفيو أحمر يتحدر العرق منه. يرمي ليفيو شاله فوق طاولة المطبخ ولا يجيب على سؤال أدينا حول ما يحدث في الشارع بل يصيح ويدخل إلى الغرفة.

ترتعش يداه ويفتح التلفزيون ويقول إن تشاوتشيسكو لم يتمكن من إلقاء خطبته، فقد هتف الناس بسقوطه، فسحبه أحد حراسه إلى ما وراء الستارة. تبكي أدينا، فوق شاشة التلفزيون تختلط المكعّبات الحجرية والنوافذ واللجنة المركزية وما أمامها من معاطف كثيرة. وتمتزج كلها وكأنها حقل. يعلو الصياح، يتوهج خدا أدينا ويسقط فكها وتغدو يداها رطبتين وتغدو الوجوه الصغيرة التي يعلو صياحها خطوطاً من

الأعين تنظر نحو السماء. يصيح ليفيو لقد هرب، لقد مات. تعلو طائرة مروحية شرفة اللجنة المركزية ويختفي سنّ الإبرة الرمادي، غير الواضح وتعلو سماء سوداء—بيضاء فارغة شاشة التلفزيون.

يُقبّل ليفيو الشاشة وهو يقول: سأفترسك، سأفترسك، وتعلق قبلاته الرطبة فوق السماء السوداء—البيضاء. تشاهد أدينا سيقان الرجال العجائز معلقة في الهواء وترى أطراف ركبتين وعضلتي ساقين بيضاوين وناصية مرتفعة إلى الأعلى، على نحو لم يسبق لها أن وصلت إلى مثل ذلك العلو. يسحب باول الستائر عن النوافذ كلها، فيغمر النور المنزل إلى الحد الذي تتأرجح فيه الجدران؛ لأن كل حائط أكبر من الغرفة بأكملها.

تقف الخروف بالباب وهي تلهث من الجري وتضحك والدموع تتحدّر من ساقيها وتقول إنه يتم جلد الشرطي أمام الكنيسة وهو لا يرتدي سوى ملابسه الداخلية، فقد قام المحاسب بخلع بنطال الشرطي في حين قام القسّ بوضع قبعته الشُرطية فوق الشجرة. وأضافت بأنّ المرأة العجوز تعرف كل شيء، فقد قالت قبل يومين إن الشتاء سيكون دافئاً جداً هذه المرة.

حين يأتي برق الشتاء ورعده
وتتشظى الشتاء في كانون الأول
عندها يجب أن يموت الملك

هكذا قالت تلك المرأة العجوز. إنني امرأة متقدمة في السن، وقد كان الأمر يسير على هذه الشاكلة في السابق. وقد سألتْ تلك المرأة

صباح هذا اليوم إن كنتُ قد سمعت شيئاً ليلة أمس. لم يكن ذلك، كما قالت، أصوات إطلاق النار، بل كان صوت هزيم الرعد، ولم يكن ذلك الصوت هنا، بل كان ذلك بعيداً في أعالي البلاد.

يحتسي باول وليفيو العرق. يعلو صوت الزجاجات والكؤوس يتمشى باول وهو يرتدي روب ليفيو الصباحي، عاري القدمين وبيده كأس العرق ويدور حول طاولة المطبخ ويغني بصوت عميق مرتعش الأغذية الممنوعة:

استيقظي يا رومانيا من غفوتك الأبدية

يضع ليفيو فوطة مجعّدة فوق كتفه ويرقص والزجاجة بيده ويغني بصوت عال ومزمجر:

اليوم مشرق وغداً مشرق

وستتحرك الأمور إلى الأمام قليلاً

تقعقع الأواني في خزانة المطبخ، ويعلو صوت باول وهو يتحدّث عن يقظة رومانيا ويرقص حول ليفيو ويغني معه:

ثمة خطوة وخطوة وخطوة

إلى الأمام دائماً، ولا عودة إلى الوراء.

تتكئ الخروف على الموقد، ووراء كتفها تبدو مخدات المرأة العجوز وفرشاتها وقد صُفّت في الساحة وكانت تبدو مشرقة وكأن تلك المخدات والفرشات تنام فوق الكراسي.

تسأل الخروف عن المكان الذي ستهبط فيه الطائرة المروحية فيجيب باول إنها ستهبط في السماء أو فوق الوحل عند الرومانيين الصغار.

تقول الخروف: عندما كنت صغيرة كانت هناك أرجوحة دائرية في الساحة الرئيسية. وعندما تساقط الثلج مرة أخرى، تم إيقافها، لأن من غير المسموح أن يجلس ميهاي في البرد، فقد كانت له قدم متيبّسة. وعندما كان أحد يرغب في ركوب الأرجوحة، كان عليه أن يشتري بطاقات من المجلس البلدي. كان الأطفال يحصلون على ثلاث بطاقات. في حين كان الكبار يحصلون على خمس. كان من المقرر تعبيد الشوارع من الأموال التي يجري جمعها. كان ميهاي يدقّق في البطاقات. ويمزق جزءاً صغيراً منها شبيهاً بالمثلث ويرميها في القبعة. كما كان يدع الشابات الصغار يركبن الأرجوحة مجاناً في الصيف. فقد كان ميهاي يسمح لنفسه أن يمسكنهن وهن يرتدين البناطيل قبل أن يركبن الأرجوحة، ويفعل ذلك خلف صندوق ضخم. اشتكت بعض الفتيات وأخبرن رئيس البلدية بالأمر، الذي قال إن المسألة غير مهمة وأن ميهاي لا يجرح أحداً بهذه الفِعْلة. يقوم ميهاي بتشغيل المحرك كما يقوم بإطفائه. ويساوي بين أوقات السفر للجميع، لأنه ينظر في أثناء ركوبهم الأرجوحة إلى ساعة الكنيسة. يستريح ميهاي ظهراً ويتناول الطعام ويصب زجاجة مملوءة بالديزل في داخل المحرك. ولا يقوم بإصلاح المحرك إلا في الليل حتى لا يتسبب في أية خسارة مالية. وميهاي يعرف المحرك بدقة. فقد سبق له أن ركبّه بنفسه وجمعه من محركين لمحراثين آليين قديميْن. تروي الخروف بأنها كانت تركب الأرجوحة عندما كانت البنات يركبنها، ولم أكن أركبها في وجود الصبيان لأنهم يمسكون بمقاعد الفتيات ويعكسون وجهتها حتى

تضطر الفتيات للتقيّؤ. وكان ميهاي هو الذي يُري الأولاد، الكيفية التي يقبضون فيها على مقاعد الفتيات.

في مساء شتائي مرّت سيارتان سوداوان عبر القرية، وكانتا قادمتين من إحدى المقاطعات الحدودية. وقد قيل إن من فيها كانوا ثلاثة أعضاء من أعضاء الحزب البارزين، وضابط من ضباط الحدود وثلاثة حرّاس شخصيين، وكانوا ثملين تماماً. قرع أحدهم نافذة موزّع البريد وسأله عن الشخص الذي معه المفتاح، فأشار الرجل إلى نهاية القرية حيث يسكن ميهاي.

كان ميهاي نائماً عندما قرع الرجل نافذة غرفته. ولم يرد ميهاي أن يفتح النافذة. لكنّ الدّق فوقها لم يتوّقف. قال ميهاي:

أجل المفتاح معي، لكن المحرك خال من البترول. وليس لدي بترول، فالبترول موجود في المجلس البلدي. وعندما وصل ميهاي ومعه المفتاح برفقة الحارس الشخصي، قال إن ما في المحرك من ديزل يكفي لرحلة واحدة. وماذا بعد، سأل الحارس الشخصي. فرّد ميهاي بعدها يتوقف الموتور.

لوح الحارس الشخصي بيده، فنزلوا جميعاً من السيارة وجلسوا في المقاعد، حيث جلس الحارس الشخصي بين أعضاء الحزب، في حين جلس الضابط الحدودي في الخلف. وقف ميهاي إلى جوار المحرك حتى جلس الجميع وربطوا أنفسهم. صاح الحارس الشخصي، هيّا أدر المحرك، وفي وسعك أن تذهب إلى منزلك عندما تتحرك الأرجوحة. تحرك المحرك، فطارت المقاعد وحلقت الأرجوحة في الهواء وذهب

ميهاي إلى المنزل. ثم ظهر القمر، وبرد الجو كثيراً. وبقي المحرك يتحرك وبقيت المقاعد تطير طيلة الليل.

توقفت الأرجوحة الدائرية في الصباح، قالت الخروف، وكانت المقاعد عالقة في الخلف وفيها الرجال السبعة الذين كانوا متجمدين.

مسحت الخروف دمعتين من عينيها وفتحت فمها وأغلقته. في اليوم التالي وصلت لجنة تحقيق إلى القرية، وتم منع الأرجوحة وجرى تفكيكها ونقلها بعيداً. ولم يتم تعبيد الشارع في القرية على الإطلاق. وجرى اعتقال ميهاي وموزع البريد بوصفهما من أعداء الطبقة. وقد قال ميهاي في أثناء المحاكمة إ الوقت كان ليلاً ولهذا كان الديزل يبدو أسود. من هنا جاء الخطأ، فلعل المحرك كان مملوءاً. أما موزع البريد فقد قال إنه استمع إلى صوت المحرك طيلة الليل، وأنه لم يهدأ إلا عند طلوع الصباح. وقد نظر عبر النافذة مرة واحدة ورأى الرفاق وهم يطيرون في الهواء. أجل، قال الرجل، لقد استمعت إلى صياحهم، لكنه اعتقد تماماً بأن الرفاق بَدوْا وكأنهم يحتفلون.

التوت المتجمّد

ظلت السماء السوداء-البيضاء فارغة وصارت الأغنية الممنوعة تتردّد على كلّ لسان في الحافلات وفي العربات التي تقودها الخيول في طول البلاد وعرضها. كما صارت تتردّد في جيوب المعاطف الممزّقة وفي الأحذية التي دخلت عن طريق الخطأ في أرجل أصحابها. كما تكرّرت بين أدينا وباول في أثناء عودتهما إلى المدينة.

السماء زرقاء في طرقات القرية، وتصيح في الفراغ، جرّاء الأغنية الممنوعة. كما أن شرطي القرية ارتدى بنطاله من جديد وترك قبعته فوق الشجرة، ولم ينظف درج مكتبه واكتفى بأن يأخذ صورة زوجته وطفليه ويضعهما في سترته. وبعد ذلك شرع يبحث في نهاية القرية، عبر الحقل، عن الطريق الأبعد.

تحمل الجارة العجوز وسائدها وفرشاتها إلى المنزل، لأن المساء شأنه شأن النهارات الأخرى، يقف وراء القرية وإن بدا ذلك أشدّ وضوحاً في هذا اليوم.

على الحدود، في الطرف الثاني من البلاد، حيث تمتّد السهول كأرنبة الأنف وصولاً إلى هنغاريا، تبقى الحواجز مظلمة وليس ثمة مخرج. قبل الحواجز ثمة سيارة تنتظر. وهناك رجل يرتدي سترة سميكة يمدّ جوازه من خلال النافذة. يقرأ ضابط الحدود:

كراكزولني ألبرت

الأم ماجدة مولودة باسم فراك

الأب كراكزولني ألبرت

عندما وضع الرجل جواز سفره في الصندوق الخاص بالجوازات بدت من خلال ياقة الرجل بقعة جلدية بحجم الإبهام، فانفتح الحاجز.

الستارة في الأعلى مغلقة وراء النافذة. الشقّة غير مقفلة، والمفتاح موجود في الباب من الداخل. أبي ليس في الشقة، ولم يترك ورقة تبين مكان وجوده. الخزانة مفتوحة وعلى السجادة هناك علبة كبريت. فوق أرضية المطبخ ثمة كرسيّ مقلوب، وعلى طاولة المطبخ هناك زجاجة عرق نصف فارغة وكأس مملوء. وفوق الموقد طنجرة مملوءة بالحساء المتعفّن.

لا يُغادر أحدٌ منزلَه على هذه الشاكلة، يقول باول، إلا إذا كان مُجبراً.

أطلقت النار على الألواح الزجاجية في المقهى الواقع خلف شوارع السلطة الهادئة، كما تمّ تمزيق الستائر الحمراء. يتحلق الجُنود حول الطاولات، وتقف أشجار الحور منتصبة وحادة وهي تتأمل الماء. ويقف الجنود في كلّ مكان كان صيّادو الصنارة يقفون فيه أثناء فصل الصيف. ولم يكن هؤلاء الجنود يحتاجون إلى ساعة، ففي برج الكاتدرائية تدق الساعة دون أن يلتفتوا إليها.

تكسرت أشجار الصنوبر الواقعة بين الأوبرا والكاتدرائية، ودُمّرت واجهات المحلات وأُفرغت من محتوياتها، وبدأت الرصاصات كثيفة فوق الجدران كالحجارة السوداء المتطايرة.

امتلأ درج الكاتدرائية بشموع صفراء رقيقة، تومض على نحو غير متوازن كالريح. ولم تذبل زهور القرنفل وزهور بخور مريم القصيرة

البيضاء على الرغم من أن الكثيرين قد داسوا فوقها. الطريق محروسة بالدبابات والجنود. يجلس القزم فوق أحجار الرصيف إلى جوار الصليب الخشبي وهو يضع رباطاً أسود على ذراعه ويمدّ ساقيه بحيث تظهر الآجرة المكسورة فوق الممشى، وهو يبيع الشموع الصفراء فوق الصليب ثمة صورة لأحد الموتى وعلى ذقنه بقعة الفم يتسم ويبتسم. تغلق أدينا عينيها فترى في الصورة ملاكاً يبتسم على الرغم من جرحه النازف. يرفع باول عينيه ويقترب من الصورة ويحدق فيها. تجلس إلى جوار حذائه امرأة تتدثّر بملابس كثيرة، والشموع تتناثر من حولها فوق قطعة من القماش. بينما تأكل بيضة مسلوقة لم تنضج تماماً. وتمدّ يدها إلى داخل البيضة وتلعق الصفار، بحيث يبدو إصبعها وطرف فمها مثل صفار البيض ومثل الشموع الموجودة أمامها. تمسح المرأة أصبعها بالمعطف وتناول كُلّا من أدينا وباول شمعتين.

لا أستطيع أن أصليّ، تقول أدينا، بينما يقوم باول بإشعال الشمعة.

الصور مُعلّقة فوق الباب الخشبي السميك للأوبرا. يرفع باول يده فوق قبعة الفراء الخاصة برجل عجوز، تمس يده إحدى الصور. إنها صورة باؤل، فمه يبتسم وفوق ياقة قميصه ثمة بقعة جلدية.

في آخر القائمة الخاصة بالصور تمسّ أدينا وجهاً من الوجوه، إنه وجه الرجل الذي قفز إلى النهر واستطاع أن يذهب إلى الشاطئ بهدوء. تحت الصورة كان مكتوباً:

لقد أطلقوا عليه الرصاص

لقد كانوا جميعاً يطلقون النار في الهواء. قال الرجل العجوز ذو

القبعة المصنوعة من الفراء، لقد كان الهواء في رئات الناس.

كانت الستارة فوق النافذة مغلقة. لقد كانوا هنا. يقول باول. باب الشقة مُغلق، وأبواب الخزائن مفتوحة على مصراعيها. والملابس ملقاة فوق الأرض ومعها الكتب والملاءات والمخدات واللحاف. أما الأسطوانات فهي موجودة فوق حواف المطبخ، وقد كُسرت وديس عليها بالأحذية.

تفتح أدينا باب الشقة. الحمام مفتوح وحوض الاستحمام خال، وفي المرحاض تطفو بذور زهرة عباد الشمس. أما الخزانة فمغلقة.

يتحرك ذيل فراء الثعلب تحت طرف حذاء أدينا، ثم تتحرك القدم الأولى والثانية والثالثة. ثم الرابعة. تزيح أدينا الذيل بأطرف أصابعها إلى الفراء. ثم تزيح القدم الخلفية اليمنى، ثم اليسرى ثم القدم الأمامية اليمنى ثم الأمامية اليسرى. هذا هو الترتيب، تقول أدينا. يفتش باول السجادة، فلا يرى فوقها شَعراً.

يسأل باول: هل أستطيع أن أبقى هنا؟

تقف أدينا أمام حوض الاستحمام والماء الساخن يتدفق من الصنبور والمرآة مغطاة بالبخار. تخلع أدينا بلوزتها وتمد يديها تحت الماء ثم تغلق صنبور المياه وتعاود ارتداء بلوزتها. في الغرفة يتحدث التلفزيون.

لقد شاهدت أكتافي البيضاء في الحمّام، تقول أدينا، ورأيت حوض الاستحمام والبخار الساخن، ولا أستطيع أن أخلع ملابسي ولا أستطيع الاستحمام. ثم تبدأ بالتفتيش داخل حقيبتها، كان مقص الأظافر مُلقى في قعر الحقيبة.

يملؤ النوم العينين قبل أن يغدو السرير دافئاً. يحمل كلّ من أدينا وباول إلى النوم، الصورة الرثة ذات الجمجمة المثقوبة التي تفوق الرأس في الضخامة.

تتحدث زوجة الديكتاتور للغرفة وتقول: لقد أحببتكم كأطفالي، أما هو فيطرق، وينظر صوب الباب، مقص الأظافر الموجود فوق الطاولة إلى جوار يد أدينا، ثم يضع قبعة الفراء على جبينه. ثم يرتديها، إنها القبعة ذاتها التي لم يغيرها منذ عدة أيام. بعد ذلك تعلو أصوات الرصاص من خلال الشاشة وتقع على جدار إحدى الثكنات، في الزاوية الأكثر قذارة وعرياً في الساحة. يبدو الجدار مثقوباً وعارياً.

فلاحان عجوزان يستلقيان فوق الأرض، وتظهر أحذيتهما في الغرفة وحول رأسيهما تلتف أحذية الجنود الثقيلة. انزلقت المناديل الحريرية الخاصة بالعجوزين من الرأس إلى العنق. وبقيت قبعة الفراء في مكانها، التي سبق لها أن تعددت ثم تشابهت ثم جاءت القبعة الأخيرة.

سألت أدينا باول إن كان يستطيع أن يفتح الجثّتين، فتح باول مقص الأظافر وأغلقه وردّ بأن ذلك سيكون أسوأ من أنه يضطر إلى رؤية أمه وأبيه. فقد اعتاد أبوه على ضربه وكنت أخشاه على الدوام. وعندما كنت أرى يده، في أثناء تناولي للطعام، وهي تمسك بالخبز كان خوفي يتلاشى. ثم صار أبي يشبهني، ثم صار مثلي تماماً. لكنه عندما يصفعني، لا أستطيع أن اعتقد أنه يأكل طعام باليد نفسها التي يصفعني بها.

يتنفس باول الصعداء من إرهاق الأيام الماضية. تقول أدينا حيث يوجد القلب عند الآخرين. تكون ثمة مقبرة، ويكون الموتى فيها

صغاراً ودامين كأنهم توت متجمّد. يمسح باول الدموع من عينيه ويقول إنني أشعر بالاشمئزاز منهم وعليّ أن أبكيهم. ولكن من أين يأتي هذا التعاطف. يتساءل باول.

رأسان فوق الوسادة، يفرّق النوم بينهما، بينما آذانهما مغطاة بالشعر. ووراء النوم وخلف المدينة ثمة يوم خفيف وحزين بالانتظار. شتاء وهواء ساخن والموتى باردون. والزجاج في مطبخ أبي لا يشرب الفراغ تنام كلارا مع الصورة الرثة ذاتها على بعد بضعة شوارع من هنا.

يرن جرس الهاتف في أثناء نومها. تبدو زهرات القرنفل الذابلة في الظلام ويبدو الماء وهو يلمع في المزهرية. أنا في فيينا. يقول باؤل، وعما قريب سيزورك شخص ويعطيك عنواني وجواز سفر، عليك أن تأتي إلى هنا فوراً، وإلا فلن تجديني.

الغريب

تسافر النوافذ المضيئة وتومض هنا وهناك وتبقى تتحرك فوق قضبان السكّة الحديدية. في المترو المظلم ثمة نور يشعّ هنا أو هناك. وكلّ من يبدو يقظاً وراء الجدران، تبدو نوافذه مضاءة. وكل من هو مستيقظ، عليه أن يكون في المصانع. تتدلى العقد من القضبان. ويجلس القزم إلى جوار الباب. يعلو صوت سكة الحديد وإلى جوار كلارا هناك امرأة تضع طفلاً على ذراعها. ينفتح باب المترو عند كل موقف، ويتنهد الطفل، ويغلق القزم عينيه وينفتح الباب. لا أحد يدخل باستثناء الرمل الذي تذروه الرياح. هذه الرمال لا يراها أحد، فهي كالطحين إلا أنها قاتمة. ويمكن للمرء أن يصغي إلى صوت الرمال وهي تتحرك بقوة فوق الأرض.

وفي الزاوية، حيث يمتد السياج ويصل إلى سكة الحديد ويكاد يمس غصناً في النافذة المضاءة، يُغنّي الطفل بصوت ذاهل في العربة:

كلّ يوم بعد يوم
رغبتي في بيع حقلي
رغبتي في بيع بيتي
تتنامى، تتنامى

تخفض المرأة رأسها وتنظر نحو الأرض الفارغة، ويخفض القزم رأسه وتخفض كلارا رأسها. كانت قضبان السكة الحدّيدية تغنّي، هي الأخرى من تحت الأحذية. وكانت الجبال تصغي وتتأثر وتغّني.

مكبر الصوت صامت في المصنع، حيث تجلس القطط ذات الملامح التي تشبه النمور إلى جوار الباب، بعينها ورق ألمنيوم أخضر اللون. اختفت الشعارات من الصالات وبقيت في الساحة. يذهب القزم إلى الأسلاك وتعدو من خلفه القطط. غريغور هو المدير والمدير هو رئيس العمال والبواب هو مدير المستودع ورئيس العمال هو البواب، وكريسو مات. تذهب أدينا في صباح اليوم نفسه إلى المدرسة، متأخرة عن موعدها ساعة من الزمان، كانت الأجواء فيها قد أشرقت وصارت الوحدات السكنية تحت السماء الرمادية شبيهة بالموقد في حجرة الهاتف ثمة كسرة خبز وفي نهاية الشارع توجد لفة أسلاك كبيرة، وأمام الثكنة العسكرية ثمة لفة أسلاك فارغة ملقاة في الساحة ولم يعد كلب أولغا موجوداً هاهنا.

في الزاوية الأكثر قذارة في ساحة المدرسة وأمام أحد الجدران ثمة جبل، يتكون نصف الأول من منديل فيه حبال مجدولة وشراشيب صفراء ولاصقات توضع فوق الكتف. أما النصف الثاني فيتكون من الورق والشعارات وعلامات خاصة بالجنود وبروشورات وصحف تحوي خطابات وصوراً.

يحمل الطفل ذو العينين المتباعدتين والصدغين الضّيقين صورة ويضعها أمام وجهه. على الصورة تبدو الذؤابة والسواد في العين. تصل الذؤابة إلى كتف الطفل. نحن لا نقوم بحرق إطارات الصور. تقول ابنة الخادمة، ثم تنزع الذؤابة من الإطار وتقول إن أمها هي الوحيدة المتبقيّة في منزل الضابط، الذي جرى اعتقاله واختفت زوجته. يحضر التوأمان

سلة مليئة بربطات العنق الخاصة بالطلائع وربطات عنق تشبه الفراشة حمراء اللون عليها خطوط حريرية صفراء.

تشعل ابنة الخادمة النار في الجبل المكون من الورق وسرعان ما تفترس النار ذاتها، فتقول ابنة الخادمة لقد انتظرتُ هذه اللحظة طويلاً. يتداعى الورق الهش فتقول أدينا لابنة الخادمة بأنّ أحداً لا يشهد بذلك لك. يحرك التوأمان النار المشتعلة بالعصي ويتحركان خلال السباحة. ترد ابنة الخادمة ما الذي كان عليّ أن أفعله. لقد كان يتوجب عليّ أن أصمت، فلدّي طفل. تأخذ الرياح الدخان نحو الحائط، بينما يقف الطفل ذو العينين المتباعدتين إلى جوار أدينا ويصغي.

أدري، تقول أدينا، إن للرجال نساءً وأن لدى النساء أطفالاً وأن الأطفال جوعى، تبعد ابنة الخادمة خصلات الشعر عن فمها وتتأمل الجبل المكبوّس وتقول: الآن انتهى كل شيء وهانحن نحيا، وسأزورك في الأسبوع القادم.

ابنة الخادمة صارت مديرة، وصار المدير معلماً للتربية البدنية وصار معلم التربية البدنية مسؤولاً عن الورشة، وصار معلم الفيزياء مسؤولاً عن التغيرات والديمقراطية.

تشير عاملة النظافة وهي تحمل مكنستها خلال الممرات، وتنظف الأمكنة التي كانت الصور تعلق فوقها، وتنظف الجدران الفارغة. علّقت صورة في المدينة تقول: الإنسان الطيّب جرى إطلاق الرصاص عليه وأنت تحتفل بعيد ميلادك. حتى لو أنني ترعرعت هنا، فإنني لن أستطيع أن أهديك شيئاً، لا حذاءً ولا لباساً ولا بلوزة. ولا حتى تفاحة. تتكئ

أدينا على البوابة وتستنشق الرائحة القادمة من ساحة المدرسة وتقول، عندما لا يستطيع المرء أن يُهدي أحداً ما شيئاً، فإنه يشعر بالغربة.

تقول كلارا إنه لم يطلق النار، فهو في الخارج، ولدي جواز سفر، فما الذي يتوجب علي أن أفعله؟ تتساءل وحواجبها تميلان نحو الزرقة. أما رموشها فطويلة وكثيفة وهادئة.

أنت غريبة. تقول أدينا، فما الذي تريدين أن تفعليه هنا؟

في الطابق الخامس يرى المرء كيف تتراجع ظهيرة يوم شتائي وراء الحاجز الترابي الخاص بالملعب. وتقف أدينا وابنة الخادم وهما تتأملان ذلك. فوق الطاولة زجاجة عرق وكأسان. تشرب أدينا وابنة الخادمة نخب ما يحدث وتسقط قطرتان من كل كأس فوق الأرض.

أحضرت ابنة الخادمة ابنتها، وعمرها سنتان ونصف. جلست ابنتها فوق السجادة وأخذت تمسح خدها بذيل الثعلب، كانت تتحدث مع نفسها. عبّأت أدينا الكأسين مجدداً. كانت الجارة ذات الشعر الكستنائي المجدول تقف على النافذة المفتوحة.

تقول الطفلة، للقطة شنب وكانت تزيح رأس الثعلب بأناملها بعيداً عن رقبتها. تضع الطفلة رأس الثعلب فوق الطاولة. تصغي أدينا للمرة الثانية إلى ضجة في رأسها، تشبه صوت انكسار غصن من الأغصان، لكنّ الصوت يختلف.

ترفع ابنة الخادمة الكأس.

لا يهمّ

وراء الجسر الأخير، بالقرب من شاطئ النهر، ليس ثمة بلاطات حجرية ولا مقاعد ولا شجرات حور ولا جنود.

ساقا الثعلب وبطنه وذيله فوق الصندوق، وفي الأعلى يوجد الرأس. الصندوق من كلارا، تقول أدينا. لقد أتينا من المدينة واشترت حذاء لنفسها وسرعان ما وضعته في قدميها. يضغط باول بإصبعه على وسط الصندوق ويقول: هنا يمكننا أن نضع الشمعة ثم يُغلق الصندوق تقول أدينا: أردت أن احتفظ به، فقد جلست إلى الطاولة ووقفت إلى جوار الخزانة واستلقيت فوق السرير ولم أعد أشعر بالخوف منه. يُدخل باول الشمعة في الفتحة، فتقول أدينا: ما يزال الثعلب هو الصياد. تحترق الشمعة، فيضع باول الصندوق في الماء ويدعها تنطفئ. يرفع باول رأسه نحو السماء ويقول: أبي يستلقي على بطنه هناك وبوسعه أن يرانا ثم يقول: لا يَهُمّ، لا يَهُمّ. ثم يبكي. الشمعة ما تزال مشرقة كإصبع يقول باول: ربما يكون إيلّي على حق، فيمتد الليل ويطفو صندوق الحذاء وبعيداً بعيداً في أعماق البلاد، حيث تتوقف السهول فجأة، حيث يعرف كل واحد الطريق، حيث تصل طرف أقدام الليل نفسه إلى هناك، يمر إيلّي عبر الحقول على نحو مختصر، يرتدي إيلّي زيه العسكري وينتعل حذاءه الضخم ويحمل حقيبته الصغيرة. محطة القطار تقف وحيدة وأضواء المدينة الصغيرة تضيء حيث تختفي أضواء السماء، وتصطف تلك الأضواء مثل الحاجز. من هنا تكون الحدود غير بعيدة.

يتناول الحارس حبوب زهرة عباد الشمس. تيميشورا. يقول إيلّي.

يقذف الحارس البذور من فمه من خلال النافذة المفتوحة ويسأله: هل تريد السفر جيئة وذهاباً؟

تذكرة ذهاب فقط يقول إيلّي وقلبه ينبض بقوة.

يجر الساتر الترابي للملعب الأكمة الجرداء نحوه. ويتم نسيان الكرة التي طارت أخيراً، أما الأغنية الممنوعة فقد انتشرت في جميع أرجاء البلاد وهي الآن تضغط فوق عنقه وعندما تقترب منه يحلّ الصمّت. فالدبابات ما تزال منتشرة في أرجاء المدينة، وطوابير الخبز أمام المحلات طويلة. وعدّاء المسافات الطويلة يعلّق ساقيه العاريتين فوق المدينة، ثمة معطف ينزلق نحو الآخرين.

نبذة عن المؤلفة:

من مواليد عام 1953. في نيتسكي دورف في رومانيا. وهي تنتمي إلى الأقليّة الألمانية في رومانيا. عاشت هيرتا موللر في برلين حتى عام 1987م و قدّمت العديد من الأعمال الروائية. ونالت عام 2009 جائزة نوبل للآداب.

نبذة عن المترجم:

باحث وناقد أدبي ومترجم ورئيس قسم اللغة العربية في جامعة اليرموك -الأردن. حصل على الدكتوراه من جامعة فريدريش فيلهلم - بون - ألمانيا عام 1986. وعمل أستاذاً زائراً في أكثر من جامعة أردنية وعربية. أصدر عدداً من الدراسات من أبرزها:

- الانتحار في الأدب العربي.
- باريس في الأدب العربي.
- دوائر المقارنة.
- السيرة والمتخيل.

كما أن له العديد من الكتب المترجمة عن الألمانية:

- يوميات فرانتس كافكا 1910-1923.
- هلموت بوتيجر: «ما بعد اليوتوبيات. تاريخ للأدب المعاصر الناطق بالألمانية».
- بوبر يوهانزن: «أوروبا والشرق من منظور واحد من الليبراليين المصريين».
- إنجو شولتسه: «آدم وإيفلين».

كان الثعلبُ يومها هو الصيّاد

ترسم هذه الرواية من خلال لوحات شعرية معبّرة أجواء روائية مشحونة بالتوتر والخوف. من خلال شخصيات تعيش قلقاً وجودياً في مناخ مملوء بالخوف والرعب حين يتحول الأصدقاء إلى خونة ويختفي بعضهم. ويجري اغتيال بعضهم الآخر وحين تضطرب الموازين وتختل المعايير.

إن الرواية في مجموعها لوحات شعرية تتنامى من خلال سرد مليء بالإيقاع يسعى لتفكيك الظلم. لذا لم يكن مستغرباً أن يعد النقاد هذه الرواية واحدة من أفضل روايات هيرتا موللر الحائزة على جائزة نوبل عام 2009.

9 789948 170709